# الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

## إنسان المستقبل

« القلب والسيف »

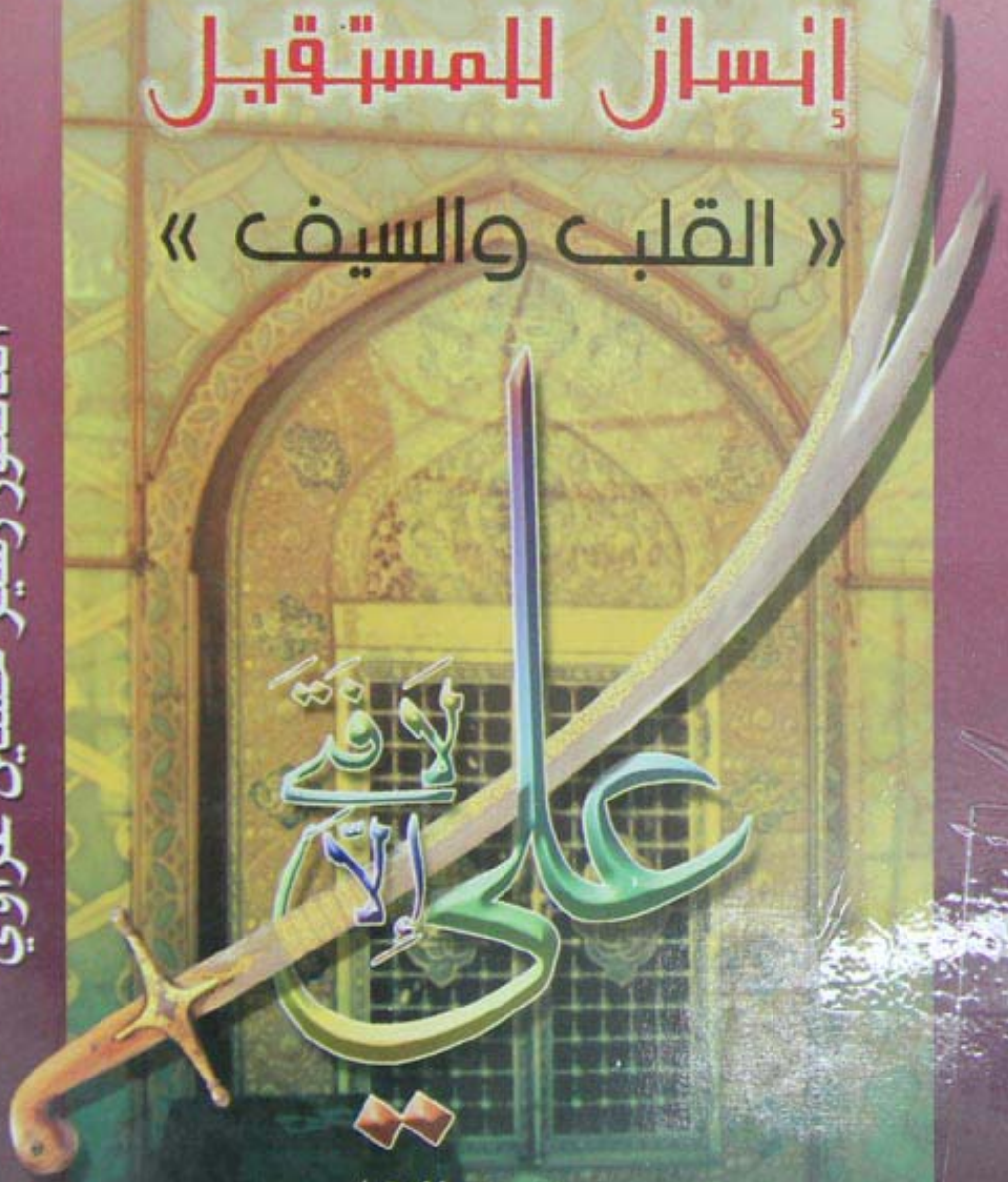


الدكتور زهير حسين غزاوي

دار الهادي
بيروت - لبنان

٣٧
/٣٥
٤غ/
٨ الف

www.haydarya.com

جميع حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٥٥٠٤٨٧/ ٠١ - ٨٩٦٣٢٩/ ٠٣ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/ ٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com - URL: http: //www. daralhadi.com

# الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام

## إنسان للمستقبل

## «القلب والسيف»

الدكتور زهير حسين غزاوي

دار الهادي
للطباعة والنشر والتوزيع

# الإهـــداء

إلى

د. غادة الرمحي ـ د. يوسف بروچلر

# مقدمة

## بسمه تعالى

هل بقي ما يقال عنه وآلاف الكتب تناولت سيرة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام على مدار أربعة عشر قرناً، اعتدالاً وغلواً، لم يقف فيها أحد ضده باطلاق؟ ومع ذلك فإن بحثاً حول الإمام يتمتع اليوم بالحداثة ويبقى فيه الكثير مما يقال.

في دراسة موجزة كالتي بين يدينا تسعى إلى توصيفه برجل المستقبل، تقدم مجرد محطات عن حياته وفكره، هي بالقطع راهنة بالقدر الذي يبدو فيه إنساناً سعى لتحديد ملامح هذا المستقبل، تذكرنا بأن هذا الفارس هو فاتح خيبر والحائز بامتياز على عداوة الحركة الصهيونية إلى الأبد، **وأتباعه في جنوب لبنان يحققون نصراً هو الأول بلا قيد ولا شرط.**

هذا الفارس المؤمن رجل الثوابت الإسلامية والإنسانية الحكيم العالم الزاهد، أنكر ذاته من أجل المبدأ، وقدم نفسه قدوة لكل المناضلين في كل العصور، وكم يسمو في نظر قارئه عندما يطلع على كتابات المستشرقين عنه وهم منحازون إلى خصومه بلا تردد.

لم يكن علي بن أبي طالب إنساناً عادياً، وتغلب فيه الجانب الإلهي على الإنساني دائماً حتى وأتباعه المعتدلون والباحثون المنصفون يؤكدون صوابية

مواقفه وفكره وعصمته من الزلل بالتوازي مع بشريته، ذلك الإنسان الذي بكى وهو يرفض الدنيا وينفصل عن الزمن مقترباً من معرفة الخالق وهو يحمل السيف من أجل إرساء الحق والعدالة والخير على وجه الأرض.

تلميذ رسول الإسلام محمد بن عبد الله وأخوه وصهره ونصيره الأبرز وحبيبه، يبرز اليوم في خضم النضال ضد أشرس هجمة صهيونية غربية إمبريالية على الأمة في قلب انبعاثها، في فلسطين وصولاً إلى العالمين العربي والإسلامي، ليؤكد أن حياته تتحول إلى رمز لكل مناضل يتعذب ويصبر ويأمل بالنصر أو إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة.

تسمو قيمة علي بن أبي طالب عليه السلام عندما نطلع راهناً على آراء المستشرقين (وهم أعداء الإسلام ودعاة فرض الهيمنة على عالمه بغالبيتهم العظمى) فيه، وإذا قرأنا لأحدهم قولاً كهذا «أي قدر عساه ينتظر الإسلام لو أن علي بن أبي طالب بصفته مرشحاً للخلافة لم يشتغل بتجهيز النبي وتكفينه عند اجتماع المسلمين في سقيفة بني ساعدة للنظر في أمر الخلافة وشارك في الاجتماع؟» (هوفمان، مجلة النور الكويت ١٩٩٣).

وأي حريص على الإسلام هو هذا؟ وهو يفترض سبقاً أن الإمام سيقوم بتدمير الإسلام وتشكيل فرقة متعصبة. وأي حقد متجذر لمستشرق كغولدتسيهر عندما يصف فكر الإمام عليّ بفكر الغضب والحقد (غولدتسيهر العقيدة والشريعة في الإسلام) منتقماً لنصر خيبر الذي حققه المسلمون تحت راية الإمام علي عليه السلام، ويتجلى حقده في درجة من السفاهة عندما يخضع بحثه التاريخي للسخرية بالإمام، ليبدو (في هذا الموضوع بالذات وتحديداً) أصولياً متعصباً مدافعاً عن مذهب الجماعة ملفقاً التهم (بالتعصب ضد الإمام) لغالبية جمهور المسلمين، وهو ما ليس له وجود بإطلاق، فقد حاز الإمام علي إجماع المسلمين بفضائله العديدة، ولا خلاف حول مكانه العالي بالقطع بين فرقهم جميعاً.

ولعلّ أشد المستشرقين اعتدالاً يدعي أن الإمام علي **قد توصل إلى أن يسمو على النبي ذاته** «دوميتيك سورديل الاسلام» أو أن الإمام علياً حصل على القداسة لأن الشيعة هم الفرس الذين يقدسون ملوكهم (فلهوزن، الخوارج والشيعة ١٩٥٨). أو ادعاء تحميل الإمام أسباب فشله في زمن خلافته وليس الآخرين كما يقول أحدهم «الخوف من المسؤولية أمام الله والخوف من المحاسبة واراقة دماء المسلمين مما حال بينه وبين اتخاذ القرار الحاسم مندفعاً إلى التريث الشديد خوفاً من اتهامه بالاثرة وحب الذات والسعي إلى المجد الشخصي» (بطروشوفسكي، الإسلام في إيران) وصولاً إلى اتهام الشيعة بأنهم يعظمون علياً أكثر من محمد.

تلك بالقطع حفنة من الشهادات لصالح علي بن أبي طالب سلام الله عليه وقد صدرت من الأعداء، حتى إن الشهادة الأخيرة مديح في إطار من النقد، تدرج ضمن ما أراد هذا الكتاب أن يجيب عليه في تناوله لمحطات من حياة الإمام.

هذا البحث الموجز يسعى إلى القول إن علياً لم يعمل لذاته لأنه علم، ومن أجل ذلك هانت الدنيا والسلطة في عينيه بسبب هذا العلم ـ إن الإسلام حالة ممتدة للمستقبل، وإن أحد أولاده سيقود المستضعفين في هذا العالم نحو النصر، أما هو فليس هذا زمنه. وقد تصرف وضبط سلوكه تبعاً لذلك، مما أثار عجب باحثي سيرته ممن لا يأخذون النبوءات التي تلقاها من رسول الله حول المستقبل، ومستقبله هو بالذات واولاده، بعين الاعتبار، مسلمين وغير مسلمين.

المعرفة قوّة ولكنها في الآن ذاته حالة من الألم إذا كانت، لشخص العالم، معرفة سلبية تضعه في إطار الاستراتيجية العليا والمتحمل للتضحية والرسالية في سبيل المصلحة العليا للعقيدة، وهكذا كان وضع الإمام في مرحلة حياته وتوليه الخلافة ثم اغتياله، لقد ابرزت الوثائق التاريخية وتراث

الإمام أنّه كان يعرف الكثير، تعلّمه من رسول الله ﷺ أو من ذكائه المتوقد واستلهامه المستقبل، فتحمل وصبر وأدرك أنه رجل ذاك المستقبل وأن عليه أن يتحمل الظلم وأن يصبر كأولي العزم وأن يكون قدوة لجيله والأجيال اللاحقة. لهذا فإن دراسة جديدة لسيرته يجب أن تأخذ منذ البدء هذه الحقيقة بالاعتبار وتقرأ تاريخه على أساسها، وتعطي في الآن ذاته لكل ذي حق حقه. ومن هذا المنطلق، تبدو لدراسة عز الدين بن أبي الحديد (شرح النهج) المكرسة لحياة الإمام، جدتها وراهنيتها وموضوعيتها في آن معاً، وهو ما ارتأينا أن نختم به هذا الكتاب لمجرد المقارنة وترك الحكم للقارىء.

المسيح عيسى بن مريم كان يعلم أنّ مصيره (الصليب) فأعلن أنّه فداءً لمجتمعه وصولاً إلى البشرية، فالتزم الزهد والعمل الشاق من أجل البشر الذين سيقومون بصلبه لاحقاً، وكذلك كان علي وهو يتسلم المهمة الرسولية من محمد بن عبد الله ﷺ كوصي وحافظ لأمانة العقيدة والدفاع عنها، ولهذا كان إيجابياً في المدينة المنورة وتخلف عن اجتماع السقيفة بارادته المطلقة وتحمل الظلم وتحدث عنه صراحة.

تتجلّى حياة الإمام من تراثه الفكري، ومنه عرفانه وما تم جمعه، وهو قليل، إن في النهج أو سواه، ولهذا أمكن تلمس حياته مما تبقى من آثاره الفكرية، وفي هذا الدرب نكتشف إنساناً مفعماً بالحكمة، تعزى إليه كثير من العبارات التي ذهبت أمثلة في حياة المجتمع الإسلامي، وأحياناً تختلط كلماته بالأحاديث النبوية بحيث يصعب فرزهما، لهذا يمكن القول إن جامعي تراثه حفظوا لنا بالمصادفة جملة واسعة الطيف من السنة النبوية، ولو أن الفرز الممكن أن اسلوب الإمام في التعبير مختلف بالشكل التعبيري عن السنة النبوية، وقدم الإمام شكلاً جديداً اتسم بالبلاغة وجمالية اللفظ واتساق المضمون والشكل، تعبيراً عن روح شفافة ونفس مفعمة بالجمال الداخلي ليس له مثيل، كان سلام الله عليه يحمل في ذاته النقيضين، المقدرة على

القتل في سبيل الله، والانفتاح على الحياة والمرح معاً، ثم الزهد الذي أُسس على قاعدته تيار الزهد والتصوف الإسلامي كله، فجلهم عيال على علي بن أبي طالب ويعترفون باستاذيته، ويتخذون من سلوكه وتراثه قدوة ونهجاً.

أُحيط الإمام بمجموعة ممن وصفوا بشيعته، كانت حياتهم صورة عن حياته بتوحدهم به، وكلهم من خلّص صحابة النبي وحاملي أوسمة مدحه لهم وكونهم مع الحق، ولقد ظل وجودهم معه باخلاص منقطع النظير رمزاً لمصداقيته وحقه والظلم الذي حاق به، ولامست سماتهم الشخصية بعض ما لديه.. باحثو مدرسة أهل البيت عدّوا منهم أربعة أساسيين ولكنهم أكثر من ذلك بكثير، هؤلاء وأولاد الإمام حفظوا تراثه ونقلوه إلى الأجيال القادمة، واستحقوا أن يكون لهم موضع أساسي في أي بحث يدور حوله، ففيهم يكمن مصدر رئيسي للوثائق التاريخية عن حياته، فإذا كان ممكنا للسلطات المتعاقبة إهمال بعض جوانب حياته، لكنها بالقطع لم تستطع طمس سيرة شخصيات كعمار وسلمان وأبي ذر، ومن هنا سما الإمام بسمو رفاقه الخلص وتلمسنا جوانب مهمة من سيرته عبر دراستهم وتواجدهم في كتب السيرة، وروايتهم وتلاميذهم ومحبيهم واتباعهم للسنة النبوية أيضاً.

الإمام علي بن أبي طالب وقد تحول رمزاً لكل ما هو جميل وخير في التاريخ الإسلامي يستحق أن يجد في كل عصر من يقوم بإلقاء الضوء على جانب من حياته، ومع تقدم العلم والتقنية، وشراسة الهجمة الامبريالية والصهيونية تتسامى قامته رمزاً نضالياً أعطى ذاته للفقراء والمجاهدين من أجل ترسيخ دعائم الحق والخير في هذا العالم الذي يبدو اليوم في حضيض سيطرة رموز الشر واعداء الإنسانية والحق والسلام... أملاً بالنصر القادم.

**د. زهير غزاوي**

# الفصل الأول

# أفكار حول الإمام ـ محطات في حياته

## بسمه تعالى

قرن ممتد من الزمن استمر قبره عليه السلام مجهولاً في صحراء النجف.. ذاك الرجل الإنسان الذي كان ماليء الدنيا وبطل انتصار الإسلام، شغل الناس منذ ألف وأربعمائة من السنين ولا زال.

٤٠ ـ ١٤٠هـ بين استشهاده في مسجد الكوفة على يد خارجي مضلل وبين كشف مرقده على يد حفيده الأبرز (جعفر بن محمد الصادق عليه السلام)، أبرزت مدى الظلم الذي حاق بانسان إمام قدم في سبيل العقيدة حياته القصيرة وحياة أولاده وأحفاده حتى الإمام الثاني عشر.. كان عليّ الإيمان كله كما وصفه ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وآله غبَّ بروزه لبراز عمرو بن ود العامري في موقعة الخندق في العام الخامس للهجرة «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»[1].

رمز الفتوَّة المطلق.. حمل كل من يوصف بالشجاعة من العرب لقب (أبو علي).. سيرته امتازت بإثارتها للجدل في كل تفاصيلها ـ إنصافاً أو غلوّاً ـ ولم يكتب عن شخصية في التاريخ العربي الإسلامي ذاك القدر الذي تناوله، ولم يختلف المسلمون على صحابي للرسول كما اختلفوا حوله، وفي الوقت ذاته لم يحز أحد للإجماع على السمو في المكانة كما توفر له.. عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه.

---

(١) السيد محسن الأمين، سير الأئمة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ج١، ص٢١١.

الفتى الشجاع القوي البنية إلى درجة نسج الأساطير حولها. . يدهش قارىء سيرته كيف توفرت له واستمرت كذلك حتى شيخوخته، رغم ما عرف عنه من صوم متصل وقيام ليلٍ وجهاد مستمر لا يفتر حتى رحل شهيداً في العشرين من رمضان، أربعين عاماً للهجرة عن ثلاثة وستين عاماً.

رمز اليسار في الإسلام كما يحلو لأولئك الذين قرأوا سيرته بمنظار العصر الحاضر أن يوصفوه. . وكان الفقيه (العارف بالله)، ووصفه القرآن الكريم بنفس رسول الله كما ورد في آية المباهلة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ * ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]، وكان اجماع المفسرين على أن المقصود بـ(أنفسنا) هو الإمام علي[2]، وكان من ضمن مفسريه هكذا السيدة عائشة أُم المؤمنين ذاتها كما ورد في كتب التفسير، وبما يشبه الإجماع.

في سير الرجال، ليس كالإمام من حملت شخصيته كل تلك التناقضات، أو ربما ذاك الغنى والتنوع والابداع. فهو المقاتل الذي خاض بحراً من الدماء في سلسلة من المعارك المتصلة مع العدو والصديق (في ثلاثة حروب أهلية ضارية)، وهو إلى جانب ذلك تماماً المثقف، الرقيق الحاشية، العارف بالله، الفقير الذي نزلت فيه سورة (الدهر) ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾، وتسجل السيرة ومفسرو القرآن الكريم أنّه وعائلته الصغيرة السيدة فاطمة بنت محمد عليهما السلام وأولادهما

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ٥٩ ـ ٦١.

(٢) شيخ الإسلام الرازي، التفسير، سورة آل عمران، الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي.

استمروا جائعين أياماً ثلاثة متوالية. وهو أيضاً صاحب الدعابة [وكان مع ذلك ألطف العالم أخلاقاً وأكثرهم بشراً حتى عيب بالدعابة][1] المحاط بالمريدين حوله، حتى اطلق عليهم (شيعة علي) كأول تعبير عربي عن طائفة بهذا الاسم في ذلك الزمن البعيد، وهو بالتوازي صاحب أكبر حشد من الأعداء والمتربصين من قبائل العرب وقبيلته قريش في طليعتهم، ليدفع ضريبة النضال المرير في سبيل الإسلام الصاعد وقد أصبح سيفه ولسانه إلى جانب صاحب الدعوة رسول الله ﷺ، وكم هي مريرة صرخته الشهيرة (أيها الحق لم تترك لي صاحباً)[2].

هذه الحياة التي تنوس بين النقيضين في ذات صاحبها، هل يمكن للباحث توصيفها بالسعيدة أو الممتعة أو الرضية؟!

يقول الرواة إنّه بُعَيدَ حرب الجمل مرّ بالقتلى في ساحة المعركة: ويصورون المشهد في تراجيديا مذهلة وهو يستعرض الذين قاتلوه مجندلين في الساح الجديب قرب البصرة ليخاطبهم واحداً واحداً، إلى أن قال: شفيت نفسي وقتلت معشري، إلى الله أشكو عجري وبجري، قتلت الصناديد من عبد مناف، وأفلتني الأعيار من بني جمح[3]» فهل من حزن أعمق يضرب في جذور نفس شفافة تحمل هموم الكون من حزن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؟.

---

(١) عز الدين بن أبي الحديد، شرح النهج، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، عن حجج النهج، إعداد سعيد السامرائي، مؤسسة الفجر، بيروت ١٩٨٧، ص٣٩.

(٢) في نهج البلاغة، تحقيق مؤسسة النهج، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، لَم أجد هذا النص، ولكن يضاف إليه بما يغني المعنى الخطبه ١٩٢ «أيها الناس لا تستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل...».

(٣) السيد محسن الأمين، حرب الجمل وصفين، دمشق ١٩٦٩، ص٥٥، دار الفكر للجميع.

حمل الإمام في شخصيته كل سمات ما اصطلح عليه (المثقف الثوري)، فقد عاش فاعلاً وأساسياً في مرحلة التأسيس لبناء دولة الإيديولوجيا الإسلامية التي أتيح لها أن تمتد لتشمل كل الجزيرة العربية، تقودها نخبة من أتباع محمد بن عبد الله ﷺ، يقف على رأسهم الرسول ذاته، ومعه من وصّفه بمنزلة هارون من موسى في حديثه الشهير المتفق عليه من الجميع «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[1]. وكان لعليّ أن يتنكب مهمة من أصعب المهام التي تولاها إنسان في التاريخ: أن يكون سيف الرسالة، ثم ليضطلع بمهمة أشد خطورة وهي أن يصبح المعبر عن فكر تلك الرسالة، وليكتشف الباحث أن الإمام كان النقيضين فعلاً في ذاته: القلب والسيف. وهنا يمكن الجزم أنهما لم يجتمعا إلا فيه.

فلأيهما كانت الغلبة في شخصية الإمام سلام الله عليه بالمحصلة الأخيرة؟

للإجابة: يقبل الباحث شهادة مستشرق أوردها في مجال الذم في تحليله لحياة الإمام، حين قال «اتسم الإمام علي بالخوف من المسؤولية أمام الله والخوف من المحاسبة وإراقة دماء المسلمين، مما حال بينه وبين اتخاذ القرار الحاسم مندفعاً إلى التريث الشديد خوفاً من اتهامه بالاثرة وحب الذات والمجد الشخصي»[2].

فهل أبلغ من توصيف كهذا لبطروشوفسكي عندما يقدم حياة عليّ عليه السلام بأنها كانت (تبعاً للوصف) لرجل هو الإيمان والإنسانية بأجلى صورها؟ الخوف من الله، البعد عن الاثرة وحب الذات والمجد الشخصي، وإلا لكان

---

(١) صحيحي البخاري ومسلم الجزء الأول، فضائل الصحابة.

(٢) بطروشوفسكي، الاسلام في إيران، ترجمة السباعي محمد السباعي، دار الثقافة القاهرة ١٩٨٢، ص٥٣.

لمجرى التاريخ الإسلامي أن يسلك اتجاهاً آخر!! ومع ذلك فإن صفات كهذه اعتبرها متابعو حياته أخطاء ارتكبها لا تنسجم مع رجل يقود امبراطورية منذ العام ٣٥هـ، وانتهت حياته بفجيعة أن يسقط اغتيالاً لأنه لم يحرص على وجود حرس شخصي (على الأقل)، والذي تعوّد أن يتحرك في شوارع عاصمته المؤقتة (الكوفة) دون حراسة إلا (ميقات الأجل) كما أثر عنه، والذي استمر يردد لزواره (متى يأتي أشقاها ليخضب هذه) مشيراً إلى لحيته. إنسان عرف مصيره وقبل به، ورغم ذلك قام بكل مهامّه تحت ظلال تلك المعرفة الغارقة في أظلّة الحزن والرضا، والمرارة، والزهد، في سبيل أداء الرسالة التي أراده الله لها.

## الإمام والسعي إلى الخلافة

نقل عن مالك بن أنس (شيخ المذهب المالكي) ومعاصر الإمام الصادق عليه السلام في المدينة المنوّرة (ت ١٦٣هـ) أنّه كان يقول «أفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان ثم يسكت، وعندما يسألونه عن عليّ يقول: **طالب الولاية لا يولى**»[1]. فهل سعى الإمام عليه السلام لكي يطلب إمارة المؤمنين حقاً؟ خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله؟ وهل كان حب السلطة جزءاً من مكونات شخصيته التي نقلها لنا تاريخ السيرة الإسلامية؟

من أكبر ما حاق بالإمام عليه السلام من ظلم هو اتهامه بهذه (الفرية)، لقد كان عارفاً بالله، ونسب إليه معرفته بالمستقبل عبر ما قيل عن تأليفه لكتاب (الجفر)، وحتى إذا نحينا جانباً ما قيل حول هذا الأمر فإن سيرته تناقض تماماً ما ذهب إليه إمام المذهب المالكي وأحد كبار التابعين.

---

(١) محمد أبو زهرة، الإمام مالك حياته عصره فقهه، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٦، ص١٢٠.

أوصى رسول الله ﷺ للإمام بولاية المؤمنين في حديث الغدير الشهير جداً والمتواتر في التاريخ الإسلامي إلى درجة مذهلة حتى إنه أصبح علامة في كتب الحديث باختلاف النصوص[١]، وفي الشعر العربي، وعند جمهور الصوفية من السنّة والشيعة[٢]. ومع ذلك أثر عن الإمام رفضه لنصيحتين هامتين حول خلافته للرسول، الأولى جاءت من أبي سفيان بدافع قبلي يتعلق بنسبة بني أمية وهاشم إلى عبد مناف، وبدوافع أخرى[٣]. والثانية جاءت من عمه العباس قبل ذلك، فلم يشارك في الصراع الذي جرى لاختيار الخليفة والتزم منزله، ولكنه تأخر في بيعة الخليفة الأول احتجاجاً[٤] (ربما على الطريقة التي تمت بها الأمور، وأيضاً تسجيلاً لموقف تاريخي للمستقبل، وهو **المثقف العارف**، رجل اللحظة التاريخية. وبذلك حافظ على الوحدة الوطنية للدولة الفتية التي ساهم في بنائها بفكره وسيفه.

إذن لم يقم الإمام بالسعي لبلوغ ذاك المنصب (وكان في الثلاثين من عمره) بمعرفة دقيقة أنها لن تكون لأحد من نسله، وأنّه سيقبلها بعد ذلك كارهاً كما أوردت كتب السيرة. ولكن الإمام لم يكن بعيداً عن السلطة ابداً فهل كان ممكناً تجاوز رجل بمستوى الإمام في عاصمة الخلافة؟ وهكذا رضي أن يكون وزيراً وحسب، حتى إنه ردد هذه العبارة **(لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خير من أن أكون أميراً)**[٥].

عندما عرضت عليه الخلافة بعيد أول **انقلاب عسكري في الإسلام** على

---

(١) عبد الحسين الأميني، الغدير، ج١.

(٢) على سبيل المثال لا الحصر راجع ديوان عمر بن الفارض في قصيدته التائية، والفتوحات المكية محي الدين بن عربي ج١.

(٣) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث بيروت، أحداث سنة ١١هـ.

(٤) نهج البلاغة، الرسالة ٢٨ إلى معاوية، ص٣٣٢.

(٥) الطبري م. س، أحداث سنة ٣٥.

الخليفة الثالث عثمان بن عفان رحمه الله. أثر عن الإمام التعاون مع الخلفاء الثلاثة إلى أبعد الحدود بل إنّه قام بمصاهرة الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب) بتزويجه ابنته أم كلثوم[1].

المثقف العارف بالله (هو لجميع المؤمنين) وفوق السلطات والقبلية الطبقية وقد كان عليّ كذلك، حتى عندما أُوكلت إليه الإمارة ووجد ذاته منغمساً في صراع أهلي حاول أن يتجنبه بشهادة المؤرخين جميعاً وعلى ذات المنهج سار جميع الأئمة الاثني عشر كذلك، فالحسن تنازل عنها لمعاوية، والحسين خرج عارفاً باستشهاده من أجل إقامة العدل واحقاق الحق في أمة جده وليس من أجلها، وربما كان أبرز دليل على هذا الرفض من قبل رموز مدرسة أهل بيت النبيﷺ هو ما جرى مع الإمام الصادقعليه السلام شيخ المذهب عندما عرضت عليه الخلافة من قبل أبي سلمة الخلال ورفضها، في مفصل بالغ الأهمية من مفاصل التاريخ الإسلامي، العام ١٣٢هـ قبيل سقوط الدولة الأموية مردداً بيت الكميت الشهير:

أيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها  يا حاطباً في غير حبلك تحطب[2]

وقد لخص الإمام بهذا موقف المدرسة بكاملها بدءاً بالإمام علي وصولاً إلى المهدي المنتظر عجل الله فرجه من مسألة السعي إلى السلطة.

## السيدة الزهراء وفدك

**الثقافة موقفٌ من الحياة بكل جوانبها** وإذا أضفنا إليها العلم والعرفان بالله تصبح الدنيا مجرد ممر محفوف بالعذاب والحزن يكرس المثقف فيها ذاته من أجل الآخرين وحسب، وكان الإمام عليعليه السلام كذلك بكل المقاييس. وإذا أضفنا إلى ما تقدم ما أوردته النصوص من خلاف (مثير للجدل) بين الإمام

---

(١) سير الأئمة، م. س، ص١٤.

(٢) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٠، ص٦٨.

وزوجته فاطمة الزهراء (سيدة نساء العالمين عليها السلام). حول **مسألة (فدك)** يمكن حسم هذه المسألة حول موضوع (طلب الولاية).

قام الإمام عليه السلام بتهدئة أنصاره الكثر بعد تولي الخليفة الأول، ويعد الطبرسي منهم اثني عشر من المهاجرين والأنصار يقف في طليعتهم عمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وبريدة الأسلمي، وأبو أيوب الأنصاري، ومعهم زوجته فاطمة التي تحملت كل شيء إلا حرمانها من وراثة فدك، فطالبت زوجها بالتدخل ليدعم حقها في وراثة القرية[1] عن أبيها، ولكن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام رفض تقديم دعمه (الفعلي) حتى في هذه المسألة، في موقف اتسم بالغرابة، إلا بتفسير وحيد هو إصراره على تجنب خوض صراع مع الخليفة الأول مهما كانت طبيعة هذا الصراع. ولكن السيدة فاطمة **تصرفت منفردة**، وحاورت الخليفة، وخطبت بالمسلمين في المسجد[2] في بادرة لم تكن **مسبوقة لامرأة في ذلك العهد**، وبدت نفس الإمام في ذروة الفجيعة لإنسان يرفض دخول صراع من أجل إرث كانت أسرته في أمس الحاجة إليه مادياً على الأقل، وعبر عن حزنه العميق هذا في إحدى خطبه قائلاً: «بلى كانت في أيدينا فدك من كل ما اظلته السماء، فشحت عليها نفوس قوم وسخت عنها نفوس قوم آخرين ونعم **الحكم** الله»[3].

وتسامى عليّ عليه السلام على جراحه وآثر السكون وتسجيل المواقف وحسب، في ظروف موضوعية تتسم بالعنف والقسوة واحترام القوي، وهو

---

(١) سير الأئمة م.س ص٣١٦ ج١.

(٢) راجع نص الخطبة في: السيد محمد الشيرازي من فقه الزهراء عليها السلام، دار الصادق، بيروت ١٩٩٨.

(٣) يقول السيد محسن الأمين في تبرير ما جرى بين السيدة الزهراء والإمام علي: هذا اللوم والتأنيب لا ينافي عصمته وعصمتها وعلو مقامهما فما هو إلا مبالغة في الإنكار، وإظهار لما لحقها من شدة الغيظ، كما فعل موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه غضبان أسفاً، وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه وشريكه في الرسالة.

الفتى المقاتل المشهود له بالقوة والعنف في سبيل الإسلام وتأسيس الدولة، وفوّض أمره إلى الله. وقد سجلت النصوص المأثورة عن مراجع مدرسة أهل البيت (الشيخ المرتضى والطوسي وآخرون) حواراً بين السيدة فاطمة وعليّ، فيه الكثير من القسوة في اللوم من جانب السيدة فاطمة للإمام متهمة إياه بالتخلي عنها وجاء جوابه على الشكل التالي:

لا ويل لك بل الويل لشانئك، نهنهي عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوة، فما ونيت عن ديني ولا أخطأت مقدوري، **فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون، وما أعدّ لك أفضل مما قطع عنك فاحتسبي الله..»**

وأجابت فاطمة: حسبي الله وأمسكت[1]، ثم ما لبثت أن فارقت الحياة بعيد رحيل أبيها بستة شهور، تماماً كما أبلغها قبيل وفاته ﷺ «أنت أول أهلي لحوقاً بي»[2]. ومع كل ذلك يجدر بنا الإشارة إلى أن الإمام رفض استعادة فدك بعد تسلمه الخلافة عام ٣٥هـ لم يكن الإمام علي بن أبي طالب إذن ساعياً خلف الولاية أو [الخلافة كما اطلق على الأربعة الذين تولوا إمارة المؤمنين بُعَيدَ رحيل الرسول، وقد وصفوا أيضاً بالراشدين].

فالسيرة تعرضه أمام أنظارنا إنساناً منكراً لذاته، صابراً، محتسباً، شاكياً إلى الله، ويكرر شكواه تلك باستمرار، ويطالب أصحابه وزوجته بذلك أيضاً، مكتفياً بالكفاف من العيش وهم، حتى عندما بدأت غنائم الفتح ترد إلى عاصمة الخلافة، لتصبح حياتهم صورة من حياته، أو انعكاساً لها عليهم (كما سنرى لاحقاً).

---

(١) سير الأئمة م. س، ص٣١٦.

(٢) البخاري ومسلم فضائل الصحابة ج١، رياض الصالحين للإمام النووي ص٢٩٢، برواية عائشة.

ولكن علياً ثابر على القول بأحقيته في خلافة الرسول ﷺ محتجاً بحديث الغدير، وجاءت ادبيات مرحلة الصراع مع معاوية بن أبي سفيان والي دمشق لتعيد إلى الواجهة جدل الاحتجاج بالأحقية بعد كمونٍ طويل استمر اربعاً وعشرين عاماً هي عمر خلافة الثلاثة الراشدين.

واشتهرت خطبته (الشقشقية) كأبرز تعبير للإمام عن شخصيته بل ومسيرة حياته بكاملها، وهي تستحق أن تدرس ليس ضمن أدبيات الخطابة البليغة وحسب، بل تعبيراً عن مرحلة كاملة لحياة انسان يغمره الحزن، كرس حياته للنضال، وكوفيء من أمته شر الجزاء.

ولدقة أكبر تضاف إليها خطبته السابعة والعشرين في نهج البلاغة لتكمل رسم صورة إنسان في عذاب الحرب **الأهلية وانحدار أخلاقي لأمة تبتعد عن الثوابت** التي آمن بها وعمل للمحافظة عليها في إطار الأيديولوجيا الإسلامية.

الخطبتان قيلتا وهو على سدة السلطة، ولكنهما كانتا أبلغ تعبير عن نهاية عهد، ونهاية إنسان عظيم، لا يزال في وجدان الأمة رمزاً لكل ما هو نبيل وسام من البشر بعد رسول الله ﷺ، لهذا فهما ليستا للاحتجاج بالأحقية، فقد وصلت إليه الخلافة، وليس في خصومه الأحياء من ينافسه في المكانة بمن فيهم معاوية وعمرو بن العاص، فالإمام عليه السلام وقد شعر بقرب الرحيل والهزيمة الوشيكة للحق الذي يمثله في مواجهة مرحلة جديدة بأحداثها ورموزها، لا يمكن لها أن تتسلل إلى وجدانه بالرضا ـ قرر مخاطبة أنصاره ليسجل موقفاً أخيراً، ليظل في ذاكرتهم، رمز الحقيقة التي سعى عمره لكي تسود الأرض على ابتداء امبراطورية مترامية وناهضة ومرشحة لتشمل كل العالم القديم، **وليظل رمز المثقف الذي يشكل وجدان الأمة والحق والخير والجمال و. . .** جوهر الإسلام.

وعلى هامش تحليل ذاتي لنصّين مهمين في توضيح ملامح شخصية

للإمام علي عليه السلام لا يمكن تجاهل سؤال يتردد على أقلام المؤرخين والباحثين منذ مئات السنين ولا يزال: ما هي العوامل التي أدت إلى فشل مشروع إسلامي نبيل كالذي مثله الإمام؟ وتعرض أمامنا عشرات الأجوبة والتحليلات، ربما أعترف بأن أقربها إلى قناعتي هو رأي عباس محمود العقاد[1]، وهو رأي متعاطف أقرب إلى أن يكون ممثلاً لتيار الوسطية بين تيارات الحاقدين والنواصب والمستشرقين من جهة، وتيارات مدرسة أهل البيت بأشكالها المغرقة في الغلو وصولاً إلى المعتدلين وكلهم محب للإمام.

يقول الرأي إن جماهير الأمة بدأت تتحول باتجاه النظام الملكي الإقطاعي بديلاً عن نظام الخلافة الراشدة، لأنه الأكثر ملاءمة لمرحلة الإمبراطورية الجديدة المحاطة عالمياً بأنظمة مشابهة، وأن زخم الإسلام المتشدد في العصر الأول بدأ يميل إلى الانفتاح والابتعاد عن الأصولية.

ومع تقاربنا يظل الرأي غير شامل لكل الحقيقة، فهو ينحاز إلى كون الإمام آخر العمالقة المعبرين عن مرحلة التأسيس والثوابت والجوهر التي لم تعد تلائم العصر. لكنه يغفل عوامل عديدة ربما جاء بعضها في الخطاب السياسي للإمام نفسه (وهو ما سنقوم بإبرازه)، وكذلك في التفسيرات العديدة لمرجعيات مدرسة أهل البيت، والتي ظل من أبرزها اتهام الغالبية في الأمة بعجزها عن تجاوز الطبيعة القبلية وما يرتبط بها من عصبيات تناقض جوهر الإسلام وتعليمات رسول الله صلى الله عليه وآله ووصاياه الواضحة، وتضع مصلحة القبيلة في المقام الأول، ولعلّ حادثة السقيفة وتفاصيلها أكبر مثال على ذلك[2].

هنا يجدر بنا أن نضيف أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وبالتوازي محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله أثر عنهما أحاديث تتوقع ما سوف يحدث، وإذا

---

(١) عباس محمود العقاد، معاوية في الميزان، دار الهلال القاهرة ١٩٥٠.

(٢) راجع الطبري م. س، أحداث السنة ١١.

خصصنا بعض ما ورد عن الرسول، وتحديداً ما ورد في التفاسير العديدة لآية الشجرة الملعونة في القرآن في (سورة الإسراء)[1] وكذلك حديثه الأشهر التالي نصه «في أواخر أيامه اعتاد رسول الله ﷺ أن يخرج عند الفجر إلى البقيع ويخاطب القبور قائلاً: يا أهل البقيع هنيئاً لكم ما أنتم فيه، إن الفتن أقبلت كقطع الليل بعضها أخذ برقاب بعض، والذي نفس محمد بيده إن بطن الأرض خير من ظاهرها»[2] بحيث بدت تلك الأحداث المؤلمة نوعاً من القدرية الإلهية على ضوء ما ورد في السنّة النبوية وأقوال الإمام، رغم أن ما جرى بحد ذاته حمل جانبه الإيجابي في بعث ما أطلق عليه علم الكلام الإسلامي الحتمي الوجود كجانب زاهر من الحضارة الإسلامية، وكان أن أورد كل المتكلمين سندهم الفلسفي متصلاً بالأول والرمز. . علي بن أبي طالب سلام الله عليه، مستبطنة إجاباته عن أسئلة أنصاره العديدة عن تفسير ما يجري من أحداث مفجعة و(فتن).

## تحليل نصين

### أولاً: الشقشقية:

يقول الإمام «أما والله لقد تقمصها فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيل ولا يرقى إليَّ الطير، فسدلت دونها ثوباً، وطويت عنها كشحاً وطفقت أرتئي بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه».

في ذلك الزمن البعيد التزم الإمام أدب الخطاب السياسي في إغفال ذكر

---

(١) الإسراء ٦٩، وورد في تفسير الميزان أن المقصود بالشجرة الملعونة هم بنو أمية (الميزان ج١٣).

(٢) توفيق الحكيم، حياة محمد، دار الهلال ١٩٥٢، ص٢٨٠.

الأسماء التي يعنيها مع أنها معروفة، ولأول مرة يؤطر خطابه باتجاهات ثلاثة: الابتعاد عن ذكر مؤيدات حقه من خلال السنة النبوية (حديث الغدير) ـ طرح ذاته على أنّه الأفضل لمنصب كالخلافة ممن سبقوه، وأخيراً شرح الأخطار والعقبات التي حالت دون سعيه لذلك (اليد الجذاء أو المقطوعة كناية عن قلة الأنصار) ثم (تجنب الفتنة التي كانت متوقعة لو تحرك باتجاه حقه الذي يصر على اعتباره كذلك في خلافة رسول الله واستلام السلطة العليا).

ليقول «فرأيت أن الصبر على هاتا أحجى فصبرت...» منطلقاً إلى تقويم المرحلة السابقة هكذا «في حوزة خشناء، يغلظ كلمها ويخشن مسها، ويكثر العثار فيها، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة إن أشنق لها خرم، وإن أسلس لها تقحم، فمُني الناس لعمر الله بخبط وشماس وتلوّن واعتراض... فصبرت...».

ولن ترى أجمل من تلك الصور الأدبية المصاغة من طبيعة الأجواء المحيطة تعبيراً عن الصعوبة والتخبط السياسي والإداري الممتد لربع قرن من الزمن وصولاً إلى الثورة العسكرية على الخليفة الثالث. أما وضعه هو فكان مثل راكب الناقة الشموس أمامه أمران **أحلاهما مر** في الحزم أو في اتباع السلبية، ولم يكن الإمام سلبياً (كما أثبت التاريخ)، فكان مع الناس في الفوضى التي عبر عنها (بالخبط والتلون والاعتراض والرفض وعدم الطاعة)، وهنا يعترف الإمام بعدم مسؤوليته عما يجري، أو عجزه عن التأثير رغم كونه وزيراً، مكرراً كلمة الصبر: فصبرت.

هل يمكن اعتبار توصيف الإمام علي عليه السلام للمرحلة (الراشدية) برمتها دقيقاً، أم أنّه مجرد وجهة نظر أملاه (التوصيف) موقف الإمام الرافض للطريقة التي تمت بها عملية اختيار الخلفاء الثلاثة والتي اعتبرها بعض المؤرخين حالة (ديمقراطية) في الإسلام باستنادها على نظرية الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؟!

للإجابة عن سؤال كهذا لا بد من أخذ الدراسات التاريخية للمرحلة بالاعتبار، وفوق ذلك قبول حقيقة أن الإمامعليه السلام كان وشيعته المشهورين: عمار، أبو ذر، سلمان، والمقداد، كانوا في موقع المعارضة (بالتعبير المعاصر) رغم مشاركته شخصياً بالسلطة كمستشار، يؤخذ برأيه أحياناً، ويرفض هذا الرأي أحياناً أخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً تمتلىء بها كتب التاريخ.

من جهة ثانية يجب ترسيخ حقيقة أن صحابة رسول اللهصلى الله عليه وآله في موقع المسؤولية المباشرة لم يكونوا معصومين، ومارسوا الكثير من الأخطاء، بعكس ما يحلو لبعض المعاصرين أن يصفوهم، فلم تكن مرحلة الخلفاء الثلاثة الأول بالجمهورية التي يمكن أن تتطابق على صعيد الممارسة، مع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وإن حاولوا (رحمهم الله) أن يكونوا كذلك، وقد حاول الإمامعليه السلام وأصحابه إلزام الخلفاء ـ عبر المشورة أحياناً وعبر الاحتجاج المباشر وتحمل العقاب والنفي أحياناً أخرى ـ باتباع النصوص الإسلامية الملزمة، ولم يحالفه وهم النجاح. وليس أدل على دقة توصيف الإمامعليه السلام لطبيعة المرحلة بأن الجميع ذهبوا شهداء، إن اغتيالاً: عمر، عثمان، علي. أو قتلاً في الحرب (عمار في صفين وأبو ذر في المنفى)، تماماً كما وصّف الإمام بإبداع تلك المرحلة التي مارس فيها فضيلة الصبر الإيجابي حتى لاقى ربّه، أو كما قال (يكدح فيها مؤمن حتى يلقى ربه).

ولكي يكون المكان، موضع ممارسة السلطة، في الصورة يجب أن نتصور إمبراطورية تشمل كل الجزيرة العربية ومصر وفارس، تحكمها نخبة اسلامية هي الخليفة والصحابة دون وجود أي تنظيم إداري يذكر، بصلاحيات كبيرة جداً للولاة ناجمة عن انعدام الاتصالات المقبولة مع المركز، تحت مراقبة دقيقة من أولئك النخب المؤمنة التي تطلب الكمال في السلوك وإدارة الحكم.

التحليل الموضوعي للمرحلة الراشدة إذن لا ينطلق من موقع الإدانة لأحد، وقد مضى هذا الزمن المديد، فتلك كانت الدولة الإسلامية (بمعنى الأخذ بمنطوق الشريعة في إدارة السلطة) الأقرب إلى حمل جوهر هذا المصطلح، ولا يجوز لباحث في سيرة الإمام أن ينطلق من قاعدة الإدانة بقدر التزامه بما أراد الإمام التعبير عنه من تحديد الخطأ والصواب وحسب. كان الإمام عليه السلام يريد الأفضل للمسلمين ملتزماً بالقرآن والسنة كما فسّرهما ـ وهو وباعتراف الجميع الأجدر بالتمكن من ذلك لقربه من رسول الله كهارون من موسى بالاتفاق ـ وهو لم يقصّر في الرقابة أو في المشورة، بما في ذلك الإدانة العنيفة (حادثة المغيرة بن شعبة)[1]. هذا في زمن الخليفة الثاني أما في زمن الخليفة الثالث. فقد اعترض على شكل تكوين مجموعة الشورى رافضاً أن يكون فيها، موصفاً المسألة بأشد مرارة ممكنة.

يقول «ولكني أسففت إذ أسفوا وطرت إذ طاروا».

تكونت المجموعة من ستة من نخبة النخبة من الصحابة وهم[2] الإمام، وعثمان بن عفان وطلحة والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وبالرغم من كل ما قيل حول انتماءات الخمسة وموازين القوى داخل الجماعة، فقد التزم الإمام عليه السلام بالمفاوضات والنتائج. كانت مداولات بالغة الصعوبة يعترف الإمام بأنها أسفّت بمعنى السلبية، وطارت بمعنى الإيجابية، وفي الحالتين كانت مداولات تحمل سمة السياسة والمساومات والصراع على كسب الأصوات باعتراف الإمام، ذلك أن شروط الخليفة الثاني كانت بالغة الصعوبة، حيث أُحيط الاجتماع بخمسة من الأنصار

---

(١) عبد الحسين الأميني، الغدير، ج٨، ص١١٨، عندما جرت محاكمة المغيرة بتهمة الزنى في عهد عمر، وقال علي للخليفة: إن أردت أن تجلد هذا فارجم المغيرة.

(٢) الطبري م.س. أحداث سنة ٢٣.

بقيادة صحابي جليل هو أبو طلحة الأنصاري (باعتبار أن الأنصار هم على الحياد ولا يطمعون في الخلافة) وكانت الأوامر واضحة بقتلهم جميعاً إذا لم يتفقوا.

والحقيقة أن الخليفة الراحل كان يعلم بأن قطبي المنافسة هما علي وعثمان لا غير، لهذا أوكل لعبد الرحمن بن عوف تحديداً ـ وهو أكثر الصحابة حظاً من المال وأيضاً وباعتراف المؤرخين لا يطمح للخلافة ـ لكي يكون الحكم الفيصل في الأمر، ويقول المؤرخون[1] ورواة السيرة إن عبد الرحمن ندم على ترجيح كفة الخليفة الثالث، ولكن الأرجح إلى حد الجزم من كل ما جرى (وهو شهور) أن الإمام علي عليه السلام أخرج نفسه من المسألة ببراعة من يستشف المستقبل كأنما يقرأه في كتاب مفتوح، فقد أصر عند سؤاله الشهير من قبل ابن عوف: أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين؟ أنه لا يلتزم بالبند الأخير، وخرج من المنافسة بإرادته المطلقة لعلمه بأن تراث الخليفتين هو الأقوى في أجواء الصحابة والأنصار معاً. لقد أدى واجبه في حلبة السياسة حتى في خوضه جانبها المظلم (الإسفاف)، وكانت تكفيه كلمة واحد لكي يتولى الأمر بالمطلق، بمجرد أن يتخلى عن إحدى ثوابته الشهيرة، أو بمجرد المناورة والمرونة؛ فهل أخطأ الإمام بذلك؟ ولماذا رضخ للظروف القاهرة فتولى الخلافة بعد ذلك، وفي ظروف أشد صعوبة بما لا يقاس؟

على أية حال فإن الإمام يجيب على السؤالين معاً في خطبته الشقشقية ولكن.. يجب أن نعترف أن حالة عرفانية عميقة جعلت من الجواب سؤالاً أو حشداً من الأسئلة.. تماماً كسيرته وشخصيته وعمق عرفانه. يقول:

«فما راعني إلا والناس إليّ كعرف الضبع ينثالون عليّ من كل جانب

---

(١) سير الأئمة م.س، ص٢٥٠.

حتى لقد وُطىءَ الحسنان وشق عِطفاي مجتمعين حولي كربيضةِ الغنم، . . فلما نهضت بالأمر نكثت طائفةٌ ومرقت أُخرى وفسق آخرون».

هنا وفي إيراده الآية الكريمة بعد هذا الكلام مباشرة ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ثم تعليقه اللاحق «بلى والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنها الدنيا حليت في أعينهم وراقهم زبرجها» ليختم الإمامعليه السلام كلامه بطريقة إجابة حاسمة زادت المسألة غموضاً رغم كل الوضوح في كلماته «أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، ولسقيت آخرها بكأس أولها. . .» مختتماً بجملته العرفانية الشهيرة «ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز» نكتشف أننا أمام خطاب يؤسس لفلسفة العرفان في الحضارة الإسلامية.

## جدلية الإمامة والسلطة والدنيا والآخرة معاً

يلفت النظر هنا ـ وهو ما يؤيد مسألة الغموض العرفاني في جدلية الخطاب ـ تعليق لابن عباس (حبر الأمة) ومرجع تفسير القرآن «والله ما أسفت على كلام قط كأسفي على ذلك الكلام أن لا يكون أمير المؤمنينعليه السلام بلغ منه حيث أراد».

فما الذي كان ابن عباس(رض) ينتظره من ختام؟

يرجح أن حكم القيمة الذي أصدره الإمام على الدنيا نابعاً من عقيدته، هو الختام الأمثل لخطبة كهذه تعبيراً عن حياة كهذه، وأن تفسيره لمجمل مسيرته حتى خاتمة عمره (فهو لم يعمر طويلاً بعد ذلك) جوهره الالتزام بأداء واجبه متجاوزاً كل عذابات ممكنة من خلال الأداء (ألاَّ يقارَّ على كظة ظالم ولا سغب مظلوم) أن يحاربَ الظلم ما استطاع وأن ينصر المظلوم ما استطاع،

أن تكون السلطة، وهو قد تولاها، مجرد أداة لوضع هذا الشعار موضع التنفيذ، وكان الواقع الموضوعي يجبره على أن يكون التنفيذ ـ لأسفه وألمه وحزنه ـ عبر القتال الدامي المتواصل لمجرد «قيام الحجة بوجود الناصر» وهو أشد ما يؤلم الإمام نظراً لكونه في سدة القيادة ولو نظرياً في زمن منحدر غلبت فيه محبة الدنيا حتى النخبة الإسلامية التي افترض الإمام أنها يجب أن تكون بمنأى عن ذلك. أما هو ـ وبالتأكيد يشمل في خطابه خلّص شيعته ـ فقد اختار الالتزام رافضاً «أن يلقي حبلها على غاربها» أن يتخلى عن مسؤولياته وأن يتخذ السلبية أسلوباً، أو أن يكون جباراً في الأرض مخالفاً عقيدة الإسلام والتقوى «لسقيت آخرها بكأس أولها». . أن يتحمل قدره الذي أهله الله سبحانه له. . . رسالته التي خلق لأجلها، وكان الوصي والأول بعيد رحيل الرسول ﷺ من أجل تنفيذها رغم كل العذابات المرافقة.

وهكذا اكتفى الإمام ـ من خلال إجابته ـ بأن يكون الحجة والرمز المستقبلي لكل أتباعه وأمثاله بأن يكونوا كذلك، في قلب السياسة والحدث والنضال حتى الشهادة، نابذين الدنيا خلف ظهورهم، في خدمة الناس: كفاً للظلم ونصراً لسغب المظلوم.

ومع كل ذلك. . لم يشعر ابن عباس بأن الإمام أتم إجابته، وباعتقادنا أن هذا العالم الجليل المتعلق بالظاهر، لم يستطع وقتها تفسير اشكالية مؤرقة طرحها الإمام حول جدلية علاقة الدنيا والزمن (والإنسان فيهما سواء كان إماماً أو رعية) بالآخرة: أين يتلاقيان وأين يفترقان. . لم يستطع أن يدرك عمق التقاء أو افتراق السلطة والسياسة، ومعهما الدنيا ومباهجها، بالزهد والعرفان الإلهي ومعهما الآخرة والمطلق. بهذا ارتقى الإمام لكي يصبح أفق العرفان والعارفين، بينما لم يتمكن ابن عمه الشهير من بلوغ تلك المرتبة، وبقي بعيداً عن أن يصنف من خلص مريديه، شئنا ذلك أم أبينا.

ومن خلال ما كتب عن سيرة الإمام عليه السلام يمكن أن نجزم أن قلائل هم

الذين استطاعوا الإجابة عن أسئلته الكثيرة التي طرحها، وأقل من القليل أولئك الذين تمثلوه وتمكنوا من تفسير ما أراد، وليس غريباً ذاك الكم الهائل من كتابات عن علي بن أبي طالب سلام الله عليه، فهو يستحقها، والمذهل في المسألة برمتها أن كل ما كتب كان إيجابياً، أطفا بذلك على سطح حياته، أم غاص في عمقها.

## النص الثاني:

الخطبة ٢٧: «أما بعد فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء وديّث بالصغار والقماءة، وضرب على قلبه بالاسهاب، وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النصف».

بالتعبير المعاصر فالجهاد مرادف للنضال في سبيل الحق، وعندما يكون لدى المسلم واجب كهذا فهو في سبيل الله سواءٌ أكان لردع عدو أو ضد سلطان ظالم، أو لإعادة حق مغتصب أو رعاية والديه أو لتحصيل الرزق وكف المسألة تبعاً لحديث رسول الله ﷺ[1] الشامل، وقد اشتهر كلام الإمام هذا لشمولية الدعوة في مرحلة انحدار النضال وبروز غلبة المشروع المعاكس وصولاً إلى سقوط الدولة الإسلامية الراشدية.

أهمية هذه الخطبة تنبع من أنها تصل إلى تحليل مرحلة الصراع المسلح في جانبها الخاص بأنصار الإمام تحديداً، وهي المرحلة التي امتدت منذ العام

---

(١) نص الحديث في مسلم، هكذا: «جاء رجل فاستأذنه في الجهاد، قال أحيّ والداك قال نعم. قال ففيهما فجاهد» وكذلك: من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، رياض الصالحين ص١٥٥ (الإمام النووي) دار الكتاب العربي بيروت، وص٤٧٩ باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة (متفق عليه).

٣٥ ـ ٤٠هـ، فلم يتوقف الإمام عن خوضه الحروب الأهلية، ولا يستطاع تسجيل انجاز مدني أو إداري يذكر له فيها إلا على الصعيد الفكري مما أثر عنه وشيعته، (وهو ما سيكون مادة فصل خاص)، لهذا جاءت الكلمات فيها تنضح بأعلى درجات المرارة والحزن. ولأجل ذلك جاءت صرخة الإمامعليه السلام ليتردد صداها عبر المستقبل: فمن ترك الجهاد ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، وكم هي في أشد انطباقها على مرحلة الأمة الإسلامية المعاصرة.

يقول الإمام «فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلّوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات وملكت عليكم الأوطان».

الإمامعليه السلام في سدة الخلافة التي قبلها مرغماً لمجرد أن يكون حجة ويحاول أن يؤدي واجباً لمنع الظالم وانصاف المظلوم، يصل إلى حافة التوازن الدفاعي السلبي، عن المواقع، وقد خاض معارك الجمل وصفين والنهروان ومئات المناوشات الصغيرة، وفقد أنصاره زخم قناعتهم بقضيته التي هي قضية الإسلام والحق بلا جدال، بإجماع المؤرخين[1]، يذهلنا بهذا الغضب النابع من الجمل، بكل ذاك الحشد من الصور البليغة الغاضبة، وسمة الهجوم الشرس على أتباعه جميعاً والاقرار بعجزه عن الفعل «والله يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى».

هذه الخطبة والشقشقية لم يختلف أحد على نسبتهما إلى الإمام، وغالباً ما يبدي الباحثون دهشتهم من اعتماد **الإمام للشتائم** لأنها ليست من شيمة شخصية سامقةٍ بحجمه وثقافته وعلمه وصحبته لرسول اللهصلى الله عليه وآله. ولكن دراسة واقع الجهة الموالية له أصلاً، وهي التي بايعه رموزها جميعاً ثم خرجوا عليه

---

(١) راجع معاوية في الميزان م.س.

وتحديداً طلحة والزبير ثم السيدة عائشة التي تمكنت بوجودهما والقبائل التي حشدتها من توجيه ضربة موجعة لجيش الإمام تبعاً لعدد الضحايا الضخمة في الجانبين، هذه الدراسة تقسر أي باحث على توقع هزيمة مشروع الإمام المستند إلى الحق المطلق، ففي هذه المرحلة بالذات من تاريخ الإسلام، يقف المسلمون جميعاً مع شرعية ولاية الإمام وأحقية ومصداقية تمثيله للدولة الإسلامية والخلافة، واتفق المؤرخون (جميعاً) على أن نهاية علي بن أبي طالب ومشروعه مثلت ضربة موجعة للمشروع الإسلامي بكامله لتقلب الدولة إلى ملك عضوض عقيم.

الإمام في قمة غضبه لله **يوجه شتائمه ولومه** حين يقول «يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أنني لم أعرفكم، معرفة والله جرت ندماً وأعقبت سدماً، قاتلكم الله، لقد ملأتم قلبي قيحاً وشحنتم صدري غيظاً وأفسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان..» بتفسير وحيد هو انهيار جبهة الحلفاء إلى الحضيض **وانزلاق الإمام** إلى أقسى درجات الهجوم عليهم. هذا الموقف الذي أجبر الإمام على اتخاذه جعل بعض المتطرفين من أعداء مدرسة أهل البيت يندفعون إلى تحميل الشيعة ظلماً وزر خذلان رموز المدرسة بدءاً بعلي بن أبي طالب وصولاً إلى الإمام الثاني عشر عليه السلام، وأنهم هم وليس أعداءهم من يتحمل مسؤولية تراجع المشروع الإسلامي[1]، مقدمين العذر للأمويين بقيادة معاوية بن أبي سفيان، بأنهم الأجدر بالسلطة والأقدر على الإدارة وانشاء الحضارة الإسلامية، وهو موقف أبعد ما يكون عن العدالة.

بالنسبة للباحث فإن لجوء الإمام عليه السلام إلى ما يخالف طبيعته العرفانية

---

(١) أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة، تحقيق محي الدين الخطيب ص١٢٠.

الإلهية وحتى القيادية الإدارية في هذه الخطبة، يسجل في خانة الأمور الغامضة، إن في شخصيته أو في طبيعة المرحلة، وبهذا فإننا نرفض كل التفسيرات أو التبريرات التي أعطيت من قبل مريديه أو أعدائه معاً، فقد كان سلام الله عليه بعيداً عن ارتكاب الأخطاء طوال عمره، في حين اعترف الجميع من الصحابة، ممن استلموا الخلافة أو أنصارهم، بالكثير من أخطائهم[1]. وإن حاولت أطراف بعيدة عن الموضوعية توصيفهم بالعصمة والسداد في الرأي وتبرير أية خطيئة ارتكبت بتحميلها غائية تهدف لصالح المسلمين والإسلام.

في نهج البلاغة مجموعة من الخطب تحمل عنوان الذم، فقد ذم الإمام أهل الجمل في الخطبة العاشرة، وذم أهل البصرة في الثالثة عشرة والرابعة عشرة، وذم اختلاف العلماء في الفتيا مهاجماً كل من افتى برأيه دون الرجوع إلى النصوص مردداً كلمته الشهيرة «إن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به». وكذلك ذم الإمام الناكثين في خطبته الثانية والعشرين، وهم كما نعلم من بايعوه على الخلافة ونكثوا، وقاتلهم في موقعة الجمل، وذمّ العرب قبل البعثة النبوية في الخطبة السادسة والعشرين، وهاجم الخوارج في خطبته الأربعين مردداً مقولته الشهيرة «كلمة حق يراد بها باطل» عندما قالوا لا حكم إلا لله، وهو سلام الله عليه ذم الدنيا كثيراً في خطب عديدة، وذم أصحابه أيضاً في الخطبة الثانية والستين، بل وذم أهل العراق في السبعين عندما اتهموه بالكذب (ولم يعرف ماذا يقصد الإمام بأهل العراق) وقال: قاتلكم الله، فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به.. الخ».

---

(١) عرف عن الخليفتين الأول والثاني إقرارهما بالكثير من الأخطاء في الإدارة، ونقل عنهما قبيل الوفاة أحاديث عن الندم والخوف من عقاب الله سبحانه (راجع: الغدير ج٨).

وأخيراً لا آخراً.. ذم النساء(**) في خطبته التاسعة والسبعين وقال ـ ما ذهب مثلاً حتى اليوم أثار الكثير من الجدل بعيد فراغه من قتال الناكثين بزعامة السيدة عائشة ـ.

«معاشر الناس إن النساء نواقص الإيمان، نواقص الحظوظ، نواقص العقول، فأما نقصان ايمانهم فقعودهن عن الصلاة والصيام في أيام حيضهن، وأما نقصان عقولهن فشهادة امرأتين منهن كشهادة الرجل الواحد، وأما نقصان حظوظهم فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال، فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على خذر ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر» فهل يمكن للإمام أن يكون قائل هذا الكلام؟

**يحلو لبعض مرجعيات مدرسة أهل البيت نفي نسبة بعض هذا الكلام** للإمام علي عليه السلام(*) وفي ذلك **الكثير من التعسف والخطأ والخطورة في آن،** فقد جهد القدماء منهم في إثبات مرجعية نهج البلاغة له، وحديثاً يمكننا الجزم بهذا الانتساب تبعاً للنظرية البنوية في دراستنا لبنية النصوص ومجتمعها

---

(**) في محاول تفسير حديث الإمام عليه السلام حول المرأة ومبرراته تعددت الآراء، فالشيخ محمد جواد مغنية يعيد قول الإمام إلى أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وآله مشابهة، ولا علاقة لحربه مع أم المؤمنين عائشة بذلك، أما الشيخ محمد عبده فيعتبر أن عقل المرأة محدود بسبب طبيعة علاقاتها التي كانت سائدة يومها، ويهاجم الشيخ البحراني المرأة وأن القوى الحيوانية غالبة عليهن، ويعتبر السيد فضل الله يمكن لها أن تتفوق على الرجل كآسيا امرأة فرعون وبلقيس وغيرهما.

راجع: مع المرأة في نهج البلاغة لـ: فتحية عطوي، الدار الإسلامية، بيروت، ص١٠١ والواقع أن النظرة إلى المرأة في الإسلام (قرآناً وسنة) حكمتها في ذاك الزمن ظروف مرحلية ولم يفارق الإمام على أية حال نظرة الإسلام في جوهره، وكان واقعياً في إطلاقه حكم القيمة ذاك، ناهيك عن الظلم الواقع عليه من أم المؤمنين في حربها له، ولم يرتكب بتقييمه هذا أمراً مجانباً للعصمة، وإن عبّر عن نزعته البشرية المتغلبة على مفهوم العصمة، وهو (أي بشريته) أمر يقر به معظم مفسري مفهوم العصمة في مدرسة أهل البيت.

(*) يوجد رأي كهذا للمرجع السيد محمد حسين فضل الله.

الداخلي، بما في ذلك صعوبة النحل والتقليد لكلام بليغ تتطابق التراكيب والصور فيه وتتشابه إلى درجة الإعجاز منسجمة مع شخصيته وأسلوبه في الكلام معاً.

لهذا يجدر بنا قبول النصوص على أنها تعبير عن حياة اتسمت بالغضب لله والنضال في سبيل الإسلام على امتداد حياة استمرت ثلاثة وستين عاماً، هذه الحياة تراوحت بين الحالات البشرية والعرفانية والرسالية، بين العصمة التي تتطابق مع مفهوم الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ والإجماع التقريري على أنها نزلت في من وضع عليهم **رسول الله الكساء في مقابلة وفد نصارى نجران**[1]، وكانوا خمسة «محمد ـ علي ـ فاطمة ـ الحسن ـ الحسين»، **وبين الضرورة الموضوعية في التعامل مع البشر، في أجواء صراع دموي** متصل حتى رحيله عن هذه الحياة شهيداً في مسجد الكوفة عام ٤٠هـ.

الإمام بين البشرية والمعصومية شخصيتان في التاريخ الإسلامي تحولتا إلى مصدر للإلهام البحثي ـ علمياً وأدبياً ـ لا ينضب، هما: رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب سلام الله عليه.

وفي المكتبة العالمية، ومنذ بدء عصر التدوين الإسلامي الرسمي، عام ٩٩هـ، نجد الآلاف من الأبحاث عنهما.

لم يتفق المسلمون على أحد كما اتفقوا على عظمة الإمام عليه السلام حتى أصبح من يحمل اسم (أبو علي) رمز النبل والشجاعة معاً في كل العالم الإسلامي. وأيضاً؛ لم يختلفوا حول مكانة وطبيعة أحد كما اختلفوا حوله، غلواً أم وضعاً في خانة العادي والسائد كمجرد واحد من الصحابة وحسب.

---

(١) سير الأئمة م.س ص٤٠.

وقد وصفه رسول الله بحديثه الشهير «يا علي يهلك فيك اثنان: محب غالٍ ومبغض قالٍ» كما كرره هو بنفسه في نهج البلاغة (الحكمة ٥٨).

الإمام في دائرة الضوء طوال تاريخه، فهو ليس شخصية عادية بإطلاق، وجاء صعود مكانته في الإسلام ليصبح في الطليعة منذ طفولته، فلم يرد اسم أحد من الصحابة في السنة النبوية تصعيداً للمكانة والفضائل كما ورد اسمه. والغريب في هذه المسألة بالذات أن معظم أحاديث فضائل الإمام علي عليه السلام أخرجتها السيدة عائشة أم المؤمنين[1] (وإن جاءت أيضاً من طرق أخرى بعد جمع السنة النبوية).

ويعتقد المؤرخون أن سبب ذلك يعود إلى نقمتها على معاوية بن أبي سفيان بعيد مقتل أخويها محمد وعبد الرحمٰن وأولهما اغتيل في مصر التي وليها من قبل الإمام علي، وترافق ذلك بإعدام معاوية للصحابي الشهير حجر بن عدي وأصحابه رغم وساطتها الشهيرة لمنع ذلك[2] في وقت لاحق كان الإمام علي بن أبي طالب بشراً بكل المقاييس، وقد وصل إلى مكانته السامقة تبعاً للجهود التي قدمها في سبيل الإسلام، قبل أن ينالها بسبب قرابته للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (أو بالنصوص المقدسة) ونضاله العظيم شهير ويعرفه أي مسلم لأنه مجمع عليه من قبل الجميع، ولكنه منح أيضاً العصمة من الأخطاء أو الذنوب، وبالتالي الولاية أو الإمامة (كما مُنحها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأسباب متفق عليها منطقياً؛ لاقتضاء الرسالة والعمل بين الناس لنشرها أن يكون معصوماً، وإلٰهياً بنصوص كثيرة في القرآن الكريم).

يمكن حصر مؤيدات العصمة للإمام بنصين، وأعتقد أنهما يكفيان بسبب

---

(١) مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة أدوار من حياتها، دار الزهراء، بيروت ١٩٩٢، ص٣٦٨.

(٢) معاوية في الميزان م.س.

حالة من شبه اجماع اسلامي على أنهما متخصصان بالإمام من جهة، ولأن باحثي السنة النبوية جميعاً اتفقوا على تفسيرهما بهذا الاتجاه.

**أولاً**: الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1] ويشير جميع المفسرين إلى تخصصها بأهل بيت النبي وليس أزواجه منهم.

**ثانياً**: تأييد السنة النبوية لذلك بحديث الغدير برواية زيد بن أرقم توفي ٦٨هـ، أخرجه مسلم في صحيحه (ج٢، ص٣٢٥، طبعة سنة ١٣٢٧هـ) تنص (ولو أنه لا يتفق مع النص الكامل المثير للجدل بين المسلمين) إنما يهم الباحث فيه تحديد مسألة تعريف من هم (أهل البيت):

«خطب النبيﷺ بماء يدعى خماً فقال: أنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، ورغب فيه، ثم قال: وأهل بيتي، أذكّركم الله أهل بيتي (ثلاثاً) فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: لا، لأن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته هم أصله وعقيبته الذين حرم عليهم الصدقة من بعده.

قال ومن هم؟ قال: آل عليّ، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال هؤلاء حرم الصدقة؟

قال: نعم».

هنا يأتي نصٌ يلخص موقفاً شخصياً وليس نصاً نبوياً، على لسان صحابي يعرّف هو مفهوم أهل البيت وليس النبيﷺ. أما الآية الكريمة السالفة فقد وردت في القرآن الكريم كما يلي ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ والالتباس الحاصل هو حول مفهوم أهل البيت حسمه القدماء (الصحابة) بأنهم ليسوا نساءه. وهكذا خرجت النساء (الزوجات) من المفهوم وبقي أبناء عبد المطلب جميعاً كما رأينا في الحديث الصحيح، فهل صدق الراوي فعلاً في تفسيره؟

آية المباهلة في آل عمران تقرب المسألة بشكل أوضح، من هم أهل البيت. تقول الآية: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

يقول المفسر الأشهر الفخر الرازي[1]: «أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران للنصارى» ونلخص عنه أنها جاءت في سياق حسم الخلاف بين المسلمين والنصارى في السنة العاشرة للهجرة، بعيد استقرار الدين الإسلامي في الجزيرة العربية وصعود نظريته في التوحيد المطلق مما يخالف العقيدة المسيحية في التثليث، وهي معروفة ولا مجال لشرحها، فدعا رسول الله الوفد المسيحي، وهم أصحاب كتاب، وبأمر من الله إلى الملاعنة بعد الابتهال إلى الله، وتقول كتب التاريخ إن الوفد رفض ذلك وعاد إلى بلاده دون الوصول إلى اتفاق، وأقروا دفع الجزية طبقاً لمعاهدة مكتوبة مع رسول الله ﷺ وأصروا على البقاء على مسيحيتهم، كما يشرح الرازي.

أهمية هذه الآية وتفسيرها المجمع عليه، أن هذا التفسير يحدد أهل بيت

---

(١) سير الأئمة م.س ص٢١١.

النبي بأولئك الذين دعاهم الرسول للمباهلة بطلب من الله سبحانه، وقد ثبت أنه دعا بالتحديد: علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ولم يدع غيرهم.

فالأربعة الذين كانوا مع رسول الله تتركز فيهم مقصودية أهل البيت في نظر غالبية الباحثين المسلمين، لأنهم حملوها وذريتهم حتى اليوم، مع الإقرار باختلاف المفسرين للقرآن ورواة الأحاديث في هذه المسألة شكلاً مع الاتفاق على الجوهر وهو أن أهل الكساء هم هؤلاء فقط. في زمننا يعتبر المنتسب إلى أهل البيت من جاء من نسل الحسن والحسين تحديداً، ولا يعرف أناس ينتسبون إلى العباس أو عقيل أو جعفر، ذلك أن الشرف الأسمى في حمل هذا الانتماء يعود إلى ابني فاطمة عليها السلام فقط، علماً أن الرواية تتحدث عن وضع رسول الله لكساء فوق الخمسة قائلاً: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ . . الآية﴾ نقلاً عن عائشة وأنه تم بعد المباهلة، ومن هنا جاء مصطلح (الكساء) الشهير.

لقد اخترت الحديث النبوي السالف الذكر بسبب إجماع أهل السنة والجماعة على صحته تبعاً لإجماعهم على صحة الأحاديث التي اخرجها الشيخان (مسلم، البخاري)، والواقع أن صحاحاً أخرى: الترمذي، ابن حنبل، الثعلبي في تفسيره، ابن المغازلي الشافعي في المناقب، الجمع بين الصحاح الستة، الحميدي في فضائل الصحابة، الحموئي، موفق بن أحمد الطبراني، ابن حجر في الصواعق وغيرهم، أخرجوا الحديث بنصوص مختلفة ذات تفاصيل أشد وضوحاً في الوصية للإمام علي بالولاية على المسلمين، وليس الذين حرموا الصدقة من بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

نص الحديث كما تعتمده مدرسة أهل البيت (ولأنه بالغ الأهمية في تحديد معصومية الإمام علي وولايته للمسلمين بعيداً عن تفسير معنى الولاية) هو كما يلي[1]:

---

(١) الغدير م. س، ج١.

الحمد لله نستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله وان محمداً عبده ورسوله أما بعد: أيها الناس قد نبأني اللطيف الخبير أنه لم يعمر نبي إلا نصف عمر الذي قبله وأني أُوشك أن أُدعى فأُجيب، وأني مسؤول وأنتم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً، قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن الموت حق وأن الساعة أتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهم اشهد. أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم، قال: فاني فرط على الحوض، وأنتم واردون على الحوض، وان عرضه ما بين صنعاء وبصرة، فيه اقداح عدد النجوم من فضة فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين. فنادى منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله، قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وان اللطيف الخبير أنبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فسألت ذلك لهما ربي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ثم أخذ بيد علي فرفعها حتى رؤي بياض أباطيهما، وعرفه القوم أجمعون فقال: أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن الله مولاي وأنا أولى وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه (يقولها ثلاث مرات) اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خزله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

هذا النص المعتمد ورد أيضاً بأشكال مختلفة وإن اتحدت بالجوهر، وقد اعتمده مسند ابن حنبل هكذا بإضافة أن الخليفتين الأول والثاني قدما التهنئة بعد ذلك للإمام علي عليه السلام على أنه أصبح مولى كل مؤمن ومؤمنة.

عند دراسة التقاطعات بين النصين يكتشف الباحث أن الصراع السياسي الذي حدث بعيد رحيل رسول الله إلى الرفيق الأعلى فعل فعله في ذاكرة رواة حديث الغدير، وأهمية حدث كهذا لا تنكر في إبراز أهمية الإمام علي في حياة المسلمين وصولاً إلى مرتبة الولاية. فإذا عدنا إلى نص زيد بن أرقم نجد أن الرسول، وهو ينذر المسلمين برحيله بعيد حجة الوداع التي أجمع الرواة على أن الخطاب في غدير خم جاء بعدها، يوصي باثنين فقط: القرآن الكريم وأهل بيته، قارناً الطرفين بحيث جعلهما بنفس الأهمية بالنسبة له، والواضح أن راوي الحديث الأول وسّع مصطلح أهل البيت بشمولية تتناقض تماماً مع السائد بين المسلمين من جهة ومع حادثة المباهلة المفسرة للآية الكريمة التي أطلق عليها هذا الاسم (المباهلة) من جهة أخرى كما اعتمدتها كتب التفسير جميعاً، لهذا يمكن الجزم بأن الفتنة أو الفتن[1] التي حذر منها رسول الله في الصحاح ومنها الصحيحان البخاري ومسلم، قد فعلت فعلها في نفوس المسلمين وحياتهم، وأن تعويم المصطلح (أهل البيت) وإنكار التصاقه بعلي وفاطمة والحسن والحسين أخذ دوره في المجتمع الإسلامي إلى درجة بعيدة ومثيرة للغرابة.

إن تحليلاً هادئاً للنصين يدفع أي باحث إلى الجزم بأن الرسول ما كان له أن يقف في قلب الصحراء وهو عائد من الحج إلى المدينة المنوّرة لكي يخطب الناس بجمل قليلة فقط «أنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله بأهل بيتي (ثلاثاً)». حديث رسول الله ﷺ البالغ الأهمية هذا جاء بإعادة إنتاج له من قبل الراوي بالكامل، وتلك مأساة منع تدوين حديث الرسول في صدر الإسلام وقسر الرواة على

(١) البخاري ومسلم باب الفتن.

الاعتماد على الذاكرة بديلاً عن التدوين. وبعيداً عن الخوض في جدلية المنع التي أنتجت كل هذا الخلاف على السنّة النبوية وصحة الأحاديث[1]، فإن الحديث الثاني عن الغدير يبدو أكثر منطقية ومصداقية لحديث نبوي يغطي خطاباً وداعياً لإنسان يبلغ أتباعه بقرب رحيله ويوصيهم بأعز ما لديه؛ كتاب الله وأهل بيته.

في النص الأول وردت كلمة (الثقلين) و(الثقل) يعني الشيء النفيس لغوياً وبهذا طغى على أحاديث الغدير توصيف حديث الثقلين، [والواقع أن صحيح البخاري لا يورد هذا الحديث تحديداً لأسباب يمكن استنتاجها من سياق دراما تدوين السنة النبوية وفعل الذاكرة والأهواء والسياسة وبالتالي الوضع والتزوير فيها]. ولأن رسول الله ﷺ كان يستشف ملامح المستقبل، وقد امتلأت أحاديثه بالكثير منها وقد صدقت جميعها، فقد وضع يده على بؤرة الحدث عندما أوصى بأهل بيته، وبالإمام علي تحديداً، فكيف يمكن حصر الوصية به بهذا الخطاب الوداعي، وتوصيفه من قبل رسول الله بجانب إلهي ينسجم مع ما ورد في القرآن الكريم عن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟ لقد كان الإمام عميد أهل بيت النبي بإجماع. وإذا عدنا إلى الروايات الموثوقة عن طلب العباس عم النبي منه أن يقبل مبايعته بالخلافة أمام الناس بحيث لا يختلف عليه اثنان (كما ظن العباس رحمه الله وهو أكبر أعمام النبي سناً وقدراً)، وكذلك عن طلب أبي سفيان زعيم بني أمية مبايعته أيضاً بعيد وفاة النبي ورفضه ذلك لعدم ثقته به وبمسعاه[2]، لأمكننا الجزم بأن الوصية تتجه تحديداً نحوه لأنه الأول.

---

(١) راجع الكتابين، السيد علي الشهرستاني، منع تدوين الحديث، مؤسسة الإمام علي، قم ١٤١٨هـ/ محمد رضا الجلالي، تدوين السنة الشريفة مكتب الإعلام الإسلامي، قم ١٩٥٢.

(٢) سير الأئمة م.س، ص٢٥٠.

خلاصة القول أن حادثة الغدير وخطاب النبي فيه متفق عليها من كل الأطراف الإسلامية، وما جرى فيها بصرف النظر عن الخلاف حوله، تؤكد منزلة الإمام من النبي، بالتقاطع مع العديد من أحاديث الفضائل للإمام والتي وردت في كل كتب الحديث، وكذلك في كتب التفسير لآية التطهير في جميعها. فهل يكفي ذلك لتأكيد الجانب الإلهي من الإمام علي بمعنى العصمة والتأييد والتسديد. ثم ألا يتناقض هذا مع مجريات حياة الإمام المترعة بالمأساة وهزيمة المشروع الإسلامي الأصيل وصعود النظام الملكي؟! لقد عاش الإمام الصراع بين جانبيه (البشري والإلهي) حتى رحل عن هذه الدنيا، وعانى عذاباً مريراً وصبر كأولي العزم وهو يرى المستقبل الشخصي له ولأولاده ولمشروعه الإسلامي في لجة من دم الأخوة، ولكنه بالمقابل علم أن تضحياته تلك سوف تثمر صعوداً لأمة وحضارة، وانتشاراً لدين ساهم هو (في الريادة) بتثبيت دعائمه، فلم يلق الحبل على الغارب ـ كما أشار في خطبته الشقشقية ـ ولم يتنحّ إلى الدنيا ـ فقد كان الجانب الإلهي فيه يدفعه إلى الانحياز للمستقبل، والعرفان، أما الجانب البشري فيه المتسم بالضرورة القاسية فقد دفعه إلى خوض المعارك والقتل والذم لمناوئيه وللدنيا ولأصدقائه... ودفعه أخيراً ليكون شهيد المشروع الإسلامي الأصولي الأول في التاريخ الإسلامي.

كان المستقبل بالنسبة للإمام هو الهدف، فقد رضي بنتائج الصراع ومارس في مجتمعه البدوي المتجه لتكوين امبراطورية كل ما أمكنته منه أدواته المتوفرة لبناء صرح علمي، أو غرس بذور صرح كهذا. فقد جلس يجمع القرآن الكريم ووضع تفسيره[1]، وهي عملية شاقة بكل المقاييس، ولو أنه لم ينل شرف ريادتها لدى المؤرخين والرأي العام الإسلامي حتى اليوم، ذلك أن

---

(١) ابن النديم، محمد بن اسحاق، الفهرست، تحقيق يوسف علي الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٦، ص٤٤.

هذه المهمة التصقت بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رحمه الله دون وجه حق، ولكن المهمة الثالثة الأشد مشقة كانت جمع ما استطاعه من الحديث النبوي ودوّنه في مخطوطة قيل إنه كان يعلقها في قرابة سيفه[1] [رمزاً للتحدي]، وتداولت كتب التاريخ نصوصاً عن مصحف فاطمة، وهو مجموعة من أحاديث رسول الله ﷺ مدوّنة ومحفوظة في بيت الزهراء سلام الله عليها، وتحدثت أيضاً عن كتاب (الجفر) للإمام علي نفسه، وهو حسب ما قيل مجموعة عن نصوص تتحدث عن المستقبل وأحداثه تحديداً، مما يدل على أن الإمام ـ حتى وإن تم التشكيك بالكتاب ومضمونه ـ بهذا البعد الزمني (المستقبل)، فلم يعط بالاً للماضي القريب وآلامه ومآسيه الشخصية، وأولى جل اهتماماته بالبناء بكل ما تحمل هذه الكلمة من مضمون.

في تلك الفترة قدّم الإمام أيضاً خدمتين مصيريتين للحضارة العربية: الأولى وضع أُسس النحو العربي[2] تلك المهمة التي قام بها تلميذه ومريده أبو الأسود الدؤلي، والثانية وضع أُسس الفلسفة العربية الإسلامية أو ما اصطلح عليه علم الكلام مرتبطاً بعلم الأصول الإسلامية التي يستند إليها الفقه الإسلامي برمته لأنه علم الفروع، وبذلك يكون الإمام بانياً لصرح شامخ حقاً من العلم (سوف نتناوله في الفصل الثاني) أنشىء على أساساته آلاف البحوث التي كونت جوهر الحضارة العربية الإسلامية.

ولكي ندرك المشقة التي واجهت الإمام في مسعاه للبناء العلمي هو ما قررته الخلافة من منع تدوين الأحاديث النبوية حتى لا تختلط بالقرآن ـ كما زعم يومها ـ لهذا كان الصراع على قضية التدوين للعلم، خاصة علم الحديث النبوي وتدوين التاريخ وغيرهما، من أشرس مظاهر الخلاف في مجتمع

---

(١) تذكرة الحفاظ: عن كتاب الإمام الصادق. م. س، ص٢٣.

(٢) ابن النديم، ص٦٢، م.س.

المدينة المنوّرة والحجاز عامة، مما كان له أكبر أثر في التشويش على السنة النبوية لا يمكن لأحد إنكاره، فقد تأخر التدوين تسعين سنة تقريباً، مما جعل من الحديث النبوي، علماً قائماً مثيراً للجدل، له أركانه وآلاف كتبه، وفي الآن ذاته أحيط بأمواج التشكيك بكل حديث نبوي حتى وإن كان متفقاً عليه وبالغ المصداقية والوثاقة. ولكن الجانب الإيجابي للمسألة يأتي من أن ذلك كان إيذاناً بدخول عصر العقلنة في دراسة الأحاديث النبوية وإقرارها أو رفضها، مما استتبع بزوغ الفلسفة العقلية في الحضارة الإسلامية، إن في تفسير القرآن في البدايات، أو في دراسة وقوننة الظواهر الطبيعية وصولاً إلى اكتناه سر الخلق والمصير، أو في قبول أحاديث نبوية ورفضها مروراً بدراسة رجال الحديث (الرواة) وطرف الرواية وغير ذلك. وبالقطع كان الإمام علي بن أبي طالب الرائد في كل ذلك باعتراف الجميع، (وهذا ما سنناقشه في الفصل التالي)، وهو ما يؤكد الجانب الإلهي فيه بالتوافق مع النصوص القرآنية والنبوية، إجابة للشق الأول من السؤال.

## الإمام والمشاركة في السلطة

هذه الناحية من حياة الإمام يمكن لها أن تجيب عن الشق الثاني للسؤال الهام: تناقض مجريات حياته ومصيره الأخير مع عصمته والسداد الإلهي له وأخيراً هزيمة مشروعه في حكومة اسلامية تضع الناس على المحجة البيضاء، كما وُصّف الإمام علي بأنه سيقوم بذلك لو تولى الخلافة طبقاً لقول الخليفة الثاني عندما كوّن اللجنة السداسية الشهيرة[1] بعيد اغتياله.

لم يكن الإمام سلبياً في حياته قبيل توليه الخلافة وإمارة المؤمنين عام ٣٥

---

(١) ذكرتها كل كتب التاريخ المعتمدة، الطبري، اليعقوبي، ابن قتيبة ابن الأثير، والصحابة هم: الزبير بن العوام، عبد الرحمن بن عوف، عثمان بن عفان، سعد بن أبي وقاص، وطلحة، والإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

للهجرة، وتلك مرحلة عمرها ربع قرن تقريباً منذ وفاة رسول الله.

لقد تعاون الإمام عليه السلام مع الخلفاء الثلاثة الأول بكل اشكال التعاون بما في ذلك المصاهرة وباتفاق الجميع، ومن البديهي أن مصادر شككت في هذه النقطة بالذات (المصاهرة) كما شككت في زواج عثمان بن عفان رحمه الله بابنتي الرسول وتسميته ذو النورين، من قبل. ولكن التعاون والإيجابية ـ وهما سمتان للإمام لم تفارقاه ـ انصبتا على نظام الخلافة الراشدة منذ بدايتها، ويمكن الجزم هنا بأن الإمام بايع الخليفة الأول ولو متأخراً، مقدماً المصلحة العامة للدولة والإسلام على عواطفه الشخصية، وتعاون بالقطع مع الخليفة الثاني طيلة ثماني سنوات (توفي ٢٣هـ)، ومع الخليفة الثالث حتى قامت الفتنة ضده التي اعتزلها وابتعد عن المدينة حتى وفاة عثمان (٣٥هـ).

لقد أراد علي عليه السلام أن يكون وزيراً بمطلق إرادته، لهذا تجاهل كل مآخذه على طريقة تشكل الخلافة الراشدة، هذا التجاهل يسجل في صالحه، وفي الآن ذاته لا يعني رضاه عما جرى أو يجري، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً في كتب السيرة (خاصة في عهدي الخليفتين الثاني والثالث).

زوج الإمام ابنته أم كلثوم للخليفة الثاني، وهي تسمى زينب الكبرى، وتوفيت بالمدينة وليست ابنة السيدة فاطمة الزهراء[1]، وهذا بحد ذاته مؤشر بالغ الدلالة على التعاون والإيجابية. قام بممارسة القضاء وتقديم المشورة للخليفتين، وربما كانت أكبر مشوراته ما أوردته النصوص عن ضرورة وضع بداية للتأريخ الإسلامي منذ بدء هجرة الرسول، وهو ما سمي التأريخ الهجري القمري[2]، والمتداول بين الناس أن اختيار الهجرة النبوية بدءاً للتاريخ تمّ بأمر

---

(١) سير الأئمة م.س، ص١٤٠.

(٢) نفس المصدر السابق.

من الخليفة الثاني دون الإشارة إلى المشير بذلك، رغم شهرته. وجاءت شورته الثانية للخليفة بالبقاء في مركز حكمه المتوسط للدولة الإسلامية عندما أشار عليه آخرون بقيادة الجيوش لصد هجوم محتمل للفرس تبعاً لمعلومات وصلت المدينة حول هذا الأمر. ساهم وأولاده في الدفاع عن الخليفة الثالث[1] عندما نشبت فتنة المدينة المنورة احتجاجاً من بعض الجيش الإسلامي والكثير من الصحابة على تصرفاته وحصار بيته ثم قتله، ولكن الإمام اعتزل وابتعد لأن مشورته له في شؤون إدارة الدولة لم تكن تلقى أُذناً صاغية، خاصة في موضوع مروان بن الحكم، وذلك كله معروف ومشهور. ولعل أكبر دليل على دفاعه ذاك عن حياة عثمان أنه رفض بجلاء قبول المبايعة بعد مقتله إلا مكرهاً (كما أشرنا)، وعندما قبل ذلك جاء للمصلحة الإسلامية العليا بإجماع المؤرخين، فلم يكن لأحد أن يتجرأ على المطالبة بالإمارة بوجوده وغياب الصحابة الثلاثة الكبار (أبو بكر وعمر وعثمان) رحمهم الله، وما كان للدولة أن تعاني من فراغ السلطة بأي حال من الأحوال في ظل الظروف السائدة.

عن الخليفة الثاني الموصوف بالإنصاف قوله الشهير «لولا ابن أبي طالب لهلك عمر»[2] وذلك لما كان لمساهماته الفقهية في حل الكثير من القضايا الشائكة التي اعترضت مسار الإدارة وحل مشكلات الناس في امبراطورية مترامية الأطراف، ولعلّ ما نقلته لنا المصادر عن تلك الحلول هو مجرد غيض من فيض، ويرجع إليها في مصادرها الكثيرة.

في معجم البلدان للبلاذري اخترنا هذه القصة للتدليل على أمرين اثنين: أولهما أنه كان بالفعل عميد المسلمين في مدينة الرسول عاصمة

---

(١) الطبري م.س. أحداث سنة ٢٣.

(٢) سير الأئمة م.س، ص٦٢.

الخلافة، والثاني علمه الواسع مما اعترف به الجميع[1] عن الأصبغ بن نباتة قال:

إنا لجلوس عند علي بن أبي طالب في خلافة أبي بكر إذ أقبل رجل من حضرموت لم أر قط رجلاً أنكر منه، فاستشرفه الناس وراعهم منظره وأقبل مسرعاً حتى وقف علينا وسلم وجثا وكلم أدنى القوم منه مجلساً وقال من عميدكم فأشاروا إلى علي وقالوا هذا ابن عم رسول الله ﷺ وعالم الناس والمأخوذ عنه فقام وقال:

اسمع كلامي هداك الله من هاد ... وافرج بعلمك عن ذي غلة صاد
جاب النتائف من وادي سكان إلى ... ذات الأماحل في بطحاء اجياد

إلى آخر عشرة أبيات ( يعتقد أنها منحولة لتناقضها مع بنية الشعر الجاهلي المتداول) فأعجب علياً والجلساء شعره، وقال له: لله درك ما أرصن شعرك، ممن أنت قال: من حضرموت. فسر به علي وشرح له الإسلام، وسأله ذات يوم ونحن مجتمعون للحديث: أعالم أنت بحضرموت، قال: إذا جهلتها لم أعرف غيرها، قال: أتعرف الأحقاف، قال كأنك تسأل عن قبر هود عليه السلام، قال لله درك ما أخطأت، قال: نعم، خرجت في عنفوان شيبتي أغيلمة من الحي نريد قبره فسرنا في بلاد الأحقاف أياماً ومعنا رجل قد عرف الموضع، فانتهينا إلى كثيب أحمر (..)] إلى أن قال إنه رأى هوداً في قبره وعند رأسه كتاب بالعربية: أنا هود النبي الذي أسفت عليه عاد بكفرها، وما كان لأمر الله من مرد، فقال لنا علي بن أبي طالب كذلك سمعته من أبي القاسم رسول الله ﷺ.

يمكننا قبول القصة بحذر شديد ومن أجل ما ذكرت وحسب، ذلك أن الاعتماد على الذاكرة وبعد الزمن جعل من الصياغة ملتزمة لغة العصر الذي

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، حرف الألف (الأحقاف).

صيغت به، أما مكانة الإمام وعلمه ومرجعيته فلم يشكك بهما أحد، فقد كان الأول في عاصمة الخلافة بلا منازع رغم وجود الخلفاء، لقد كان الوزير الأول وصاحب المشورة بالمطلق. ومما يجدر ذكره حول دوره في تلك الفترة أنه حاول بالفعل إصلاح ذات البين بين السيدة فاطمة عليها السلام والشيخين ولكنها رفضت ذلك بشدة، كما تشير المصادر، وإذا عدنا إلى تاريخ الطبري وهو المصدر الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه لاتفاق شبه ممتلك للغالبية بين الباحثين، نجد أن الإمام لم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاة فاطمة، فقد ظلت ترفض لقاءهما وأصرت على أن تدفن دون علمهما ليلاً، وذلك أنها سلام الله عليها (وبإجماع المصادر) لم تغفر الظلم الواقع عليها وعلى زوجها حتى رحلت إلى جوار أبيها صلى الله عليه وآله.

الجانب البشري في الإمام كان طاغياً زمن تسلمه لإمارة المؤمنين، وكما هو معهود عنه فقد بذل جهده لحقن الدماء (كما أشرنا) ولكنه كان مقاتلاً صلباً في كهولته، لم يخش في الحق لومة لائم، هذا الحق الذي لم يترك له صاحباً أو . . نصيراً، فهل أخطأ الإمام في ذلك مع علمه باستلزام السياسة للذرائعية في كثير من الأحيان؟

سؤال تتسم الإجابة عليه بانعدام اليقين والجزم رغم محاولة العديد من الباحثين الإجابة، إمّا تبريراً أو اتهاماً للإمام بالعجز. وفي كل الأحوال تبقى تلك مجرد وجهات نظر، منبعها المحبة أو الغلو أو تبرئة المرحلة من الأخطار أو الدفاع عن الصحابة أو تحميل القدر الإلهي المسؤولية، وفي الحدود الدنيا هي محاولات توفيقية وصولاً إلى رفض الإجابة عند الكثيرين حتى يجنبوا أنفسهم تحمل مسؤولية إطلاق حكم قيمة على مرحلة سفك فيها للمسلمين دم كثير بأيديهم[1].

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص١٧٢، دار العودة بيروت: في تقويمه للمرحلة الراشدية.

أما الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كبشر فقد التزم التقوى في كل تصرفاته، إن في الفصل بين الناس أو في تقسيم بيت المال، أو في خوض الحرب الأهلية. لقد علم الإمام أن إنفاق المال هو السبيل الوحيد لكسب القلوب، وقام خصومه بهذه المهمة (صرف المال لكسب الأنصار) أبرع قيام، خاصة معاوية بن أبي سفيان، أما هو فقد عمل على ترسيخ نظرية (الحق) المطلق بمعنى التزام الإسلام والسنة النبوية كما تعلمها من رسول الله، لهذا نرى نهج البلاغة يحفل بآرائه حول موضوع التصرف بمال (بيت مال المسلمين) مما يعتبر من أخطر ما قدّمه للمستقبل. يقول في الخطبة ١٢٦: أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه والله ما أطور به ما سمر سمير، وما أم نجم في السماء نجما، ولو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله، ألا وإن اعطاء المال في غير حقه تبذير واسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله، ولم يضع امرؤ ماله في غير حقه وعند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودّهم، فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشرّ خليل وألأم خدين».

على ضوء هذا الكلام، الذي قيل في زمن خلافته وذروة اشتعال الفتن وحاجته الماسة لإنفاق المال لتأليف القلوب المتجهة إلى خصومه، هل يمكننا قبول حكم القيمة على تصرف كهذا بأنه مناف لجوهر الإدارة والسياسة؟

في هذه النقطة بالذات (إدارة الدولة) يجانب الإمام علي عليه السلام البشرية صاعداً إلى سدة الحالة الرسالية والمعصومة، فهل أخطأ أم أصاب؟

يصعب على الباحث أن يقيم رجلاً في قامة الإمام الشامخة، ولكنه أمام خطبة تتصف بالصرامة المطلقة كهذه لا يجد فكاكاً من القول إنها تتناقض مع ما يعلمه الإمام يقيناً والمرونة التي تستلزمها الظروف الموضوعية وخدعة الحرب، وبما أن الإمام يتعامل مع مسلمين وليس في ظروف كالتي كان بها

رسول الله ﷺ عندما وزع الغنائم بعد غزوة حنين فاحتج الأنصار على غبنهم فخاطبهم بكلمته الشهيرة «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون أنتم برسول الله»(*) نجد الإمام هنا أيضاً يعمل للمستقبل والمشروع الإسلامي الإستراتيجي، وليس لتثبيت دعائم حكمه الراهن، قبلنا هذا التفسير أم رفضناه.

هو يطلب النصر بالعدل والحق إذن ويرفض الذرائعية بالمطلق وسيلة للوصول إلى غاياته المتصفة بالعدالة واحقاق الحق، الإمام لا يفصل بين الأهداف والوسائل التي تؤدي للوصول إليها ، فالحق لا ينفصل عن الوسيلة التي تؤدي إليه، كلاهما يجب أن يتسم بالعدالة، فالغاية لا تبرر الوسيلة. وكما رأينا فلم يكن هذا السلوك ملائماً لتحقيق النصر النهائي، من هنا جاء حكم القيمة الذي أطلقه عليه غالبية المؤرخين الذين لم يدركوا أهداف الإمام النهائية، أو يتعمقوا في تحديد التخوم التي تفصل بين بشريته ومعصوميته، وظلموه بحكمهم هذا. ويجدر بنا أن نذكر أن علياً أجاب على حكمهم وقد سمعه في حياته من أصحابه وخصومه معاً (إلا القليل الذين آمنوا به وسنأتي على ذكرهم لاحقاً) حين قال في خطبته الشقشقية «نكثت طائفة ومرقت أُخرى وفسق آخرون» وكلهم من بايعه أصلاً «ولكنهم حلت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها» أما هو فقد أصرّ على سلوكه الرسالي «وما أخذ الله على العلماء أن لا يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم» لقد وطن نفسه إذن، وهو في السلطة، أن يتصرف كعالم ومؤمن مهما كانت النتائج، لأنه يعمل من أجل الآخرة.. المستقبل.. الرسالة، وبهذا تم اختياره لما أهله الله له.

ولكننا ونحن نعود إلى كلمات الإمام الشهيرة التي أصبحت أمثلة على ألسنة المسلمين نكتشف أنه، وهو يذم الدنيا، هو القائل: إعمل لدنياك كأنك

---

(*) الطبري م.س أحداث السنة العاشرة.

تعيش أبداً. . واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً (المختار من حكمه) وقد عمل الإمام لدنياه بكل تأكيد، وظل بذلك بشراً كغيره؛ تزوج وتسرّى، واتخذ الموالي، وكل ذلك موجود في كتب السيرة والتاريخ.

تزوج بعد السيدة الزهراء عليها السلام تسع نساء، وله من النسل ثلاثة وثلاثون بين ذكر وانثى أكبرهم الحسن وأصغرهم نفسه[1]، ومع ذلك فقد عرف عنه ذمه للدنيا التي عمل لها كأنّه يعيش أبداً، ما نقله عنه مريدوه المتصوفة خاصة ضرار بن ضمرة: «لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه ثم يقول: يا دنيا غري غيري إليَّ تعرضت أم إليَّ تشوفت، هيهات هيهات قد بتتّك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير وخطرك كبير وعيشك حقير آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق» وتحدد الرواية أن ذلك تم أمام معاوية وأنّه بكى ووكفت دموعه على لحيته. . . »[2].

والواقع أن مريديه وخصومه يتفقون حين يتحدثون عنه على اجتماع الأضداد في صفاته، أو كما وصفه الشاعر الصفي الحلي وهو من أبرز شعراء مؤسسة أهل البيت[3]:

جُمعت في صفاتك الأضداد ... فلهذا عزت لك الأنداد

زاهد حاكم حليم شجاع ... ناسك فاتك نفير جواد

فمحبوه يعتقدون أن هذا الاجتماع للأضداد فيه يعزز القول بمعصوميته أو

---

(١) سير الأئمة م.س ص١٢.

(٢) أحمد بن عبد الله الأصفهاني (أبو نعيم) ٤٣٠هـ، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر بيروت، باب الإمام علي.

(٣) سعيد السامرائي، اعداد حجج النهج، المختار من نهج البلاغة، مؤسسة الفجر، بيروت.

الجانب الإلهي فيه، بينما يجدها خصومه أو من يدعي الحياد من الباحثين الجدد والمستشرقون وغيرهم **بمرتبة النقائص لشخصه وذلك لعدم إيمانهم بامتلاكه للعصمة** أو للتسديد الإلهي. وقد أجاب الإمام على بعض تلك الإشكاليات قديماً في جدله مع الخوارج (الخطبة ١٢٧) حين قال (متمثلاً مضمون حديث رسول الله) «سيهلك فيّ صنفان محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس فيّ حالاً النمط الأوسط» فأين يمكن أن نجد هذه الفئة الوسط؟

وذكر في خطبة له (الخطبة ٢٧): «قالت قريش إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب لله أبوهم، وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟» فهو يعاتب قبيلته قريش التي خذلته في البداية ورفضت تأميره عليها كخليفة، ثم هاجمته باتهامه بعدم المقدرة على إدارة الدولة (لا علم له بالحرب، والأعلم بالحرب في عرف العرب القدماء هو الأجدر بالقيادة السياسية) لقد منحوه فضيلة الشجاعة ونزعوا عنه الأحقية بالقيادة لعدم علمه بفنونها وحيلها، وهو توصيف يرفضه الإمام بشدة رافضاً أن يقارن بأحد منهم في هذا الشأن.

لقد أراد الإمام أن يكون أنصاره وسطاً بين فئتين، وكان هو يعلم سلام الله عليه بصعوبة تحقيق الأغلبية لفئة كهذه بين المسلمين، الفئة التي تنصفه وتؤمن ببشريته ومعصوميته معاً، فلا تحبه إلى درجة الغلو والقول بألوهيته أو الأول قبل النبي محمد؛ ولا تضعه أيضاً في مرتبه العادي الذي لا يتمتع من الصفات إلا بالشجاعة، وكم كان حزنه كبيراً عندما فجع بالأغلبية وهي تحتشد في الجناحين؛ (الغلو بالحب والغلو بالكره) في حياته على أقل تقدير.

ومن خلال البحث في تراث الإمام، وهو كبير نكتشف، إنساناً بشراً يتمتع بالسداد الإلهي، يفهم الناس ويحاورهم ويستشف المستقبل ويتحدث عنه ويعمل من أجله، وهو في كل حالاته أقرب إلى المعصومية أو الجانب

الإلهي، منه إلى البشرية، ما دام قد وطن نفسه على العمل بعكس السنن التي تقوده شخصياً إلى ترسيخ دعائم حكمه وأولاده الأئمة من بعده، العمل بعكس قوانين الحياة الدنيا التي تفرض البراجماتية وتقسر الحاكم عليها وتحرفه عن العدالة ولو لفترة من سني حكمه، العمل ضد السائد والظالم حتى لو اضطر إلى مواجهة قبيلته قريش، العمل في سبيل الحق الذي لم يترك له (باعترافه الصريح) نصيراً إلا أقل القليل.

فما هي العصمة في مفهوم الإمام(***): يعرف الإمام العصمة في النهج بأنها «من العصمة تعذر المعاصي» ولكن.. لا يوجد مفهوم اختلف المسلمون في تحديده وتعريفه كهذا في كل فئاتهم. وما داموا قد اختلفوا

---

(***) العصمة في نظر مجتهدين من كبار منظري مدرسة أهل البيت هي كما يلي:

قال نصير الدين الطوسي في كتاب التجريد صفحة ٢٢٨: المعصوم قادر على فعل المعصية وإلا لم يستحق المدح على تركها ولا الثواب، ولبطل الثواب والعقاب في حقه فكان خارجاً على التكليف وذلك باطل بالاجماع والنقل» توفي الطوسي عام ٦٧٢هـ.

وقال الشيخ المفيد: ليست العصمة مانعة من القدرة على القبيح، ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا يلجئه إليه، وعلى هذا يكون معنى العصمة عند الإمامية أن المعصوم يفعل الواجب مع قدرته على تركه، ويترك المحرم مع قدرته على فعله ولكنه مع ذلك لم يترك واجباً، ولم يفعل محرماً». المفيد شيخ مشايخ الإمامية توفي ٤١٣هـ. [راجع، الشيعة في القرآن، محمد جواد مغنية، دار التعارف بيروت].

ويضيف الشيخ مغنية في الكتاب ص٢٧٢: أما جواز السهو على المعصوم فقال صاحب مجمع البيان في تفسير الآية ٦٨ من سورة الأنعام «إن الإمامية لم يجيزوا السهو والنسيان على أئمتهم فيما يؤدونه عن الله، فأما ما سواه فقد جوزوا عليهم أن ينسوه أو يسهوا عنه ما لم يؤد ذلك إلى إخلال العقل وكيف لا يكون ذلك وقد جوزوا عليهم النوم والاغماء وهما من قبيل السهو ومن نسب غير هذا إلى الإمامية فقد ظن ظناً فاسداً» إنتهى.

ويضيف المؤلف: أن السيد فضل الله يميل إلى هذا الرأي أيضاً رغم أن بعضهم يخالفه بحيث تصبح العصمة تكوينية ويبتعد المعصوم عن أن يكون بشراً. والواقع أن الاجتهاد في هذا المجال مستمر ولن يؤدي إلى نتيجة يقينية. ونحن نميل إلى بشرية الإمام علي عليه السلام وأنه يغضب أحياناً لله ويطلق أحكام قيمة قابلة للنقاش! وإن لم تجانب الحق.

حول ماهية عصمة النبي؛ أهي في التبليغ أم في كل تصرفاته مما يجنبه أي خطأ كان مهما كان فبالأحرى أن يختلفوا حول عصمة الإمام علي عليه السلام قبولاً بالمطلق أو بالنسبية أو رفضاً بالمطلق أو بالنسبية كونه على الأقل أحد الصحابة الذين (رضي الله عنهم ورضوا عنه) تبعاً لتعليل الآية الكريمة، والمرضي عنه لا يمكن له أن يرتكب الذنوب الكبيرة بهذا الاعتبار.

الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ . . . .﴾ تتحدث عن التطهير من الرجس مما يبعد عن ارتكاب الذنوب، وهذا يثير اشكالية ما الذي يدخل في مفهوم الذنوب أو يخرج عن هذا المفهوم؛ وبما أن الله قد رفع عن أمة محمد الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، طبقاً للحديث الشريف، فإن ما ينتج عن هذه يخرج من خانة الذنوب إذن، ناهيك عن قائمة طويلة من السلوك الإنساني الخاطىء أو غير الملائم نسبياً، ويتساوى في ذلك الجميع فكيف بالذين طهرهم الله تطهيراً في الآية.

أما الإمام علي بن أبي طالب فقد حدد لمفهوم كهذا بانطباقه عليه عاملان رئيسيان، وهو بالتأكيد يطالب أنصاره ومحبيه بأن يكونوا على مثاله:

**الأول**: الصدق المطلق والصواب المطلق.

**الثاني**: التزام جادة الحق مهما كان الثمن.

هذا ما يمكن أن نستنتجه من تحليله لسلوكه الشخصي وتعاملاته مع الناس، إن في تيار النضال في سبيل الإسلام، أو عندما كان على سدة الإمارة، وذلك يعطي حياته بكاملها إذا أخذنا بالاعتبار أنه دخل الإسلام في التاسعة من عمره، وهو خلاصة أي بحث قرأته في نهج البلاغة. الإمام كما وصف نفسه في (الخطبة الرابعة والعاشرة و١٨٨ و٢٢ و١٧٤ و٢٣٤ و٥٧، والحكمة ١٧٦) عبر مجموعة من الأقوال تختصر: بأنه: ما كذبت ولا كذب عَلَيّ ولا ضللت ولا ضل بي ـ فوالذي لا إله إلا هو إني لعلى جادة الحق ـ وما شككت في الحق مذ رأيته ـ وأن سلوكه مطابق لاعتقاده فلا ينهى أو يأمر

إلا وقد طبق ذلك أولاً على نفسه وأنه أخيراً: «وإني لعلى يقين من ربي وغير شبهة من ديني».

وبما أن العامل الثاني وهو مفهوم الحق باختياره للزهد في الدنيا، سيكون له بحث مفصل فيما بعد فإن اختزال هذا المفهوم لدى الإمام عبر أحاديثه يتركز على التزامه المطلق بالإسلام كما أخذه عن رسول الله ﷺ قرآنا وسنّة نبوية.

ولأننا نجد مصداقية تعريفه للعصمة في تطابق ذلك مع سلوكه طوال حياته، ولأنه صرح بأنه لو أراد سلوك الخديعة في الإدارة والسياسة لبز معاوية بن أبي سفيان في الصراع الدائر بينهما(**) الخطبة (٢٣٧) فيمكن استنتاج تعريف للعصمة بأنه الامتناع عن المعاصي رغم المقدرة على ذلك، وهو ما يرفع من قيمة الإمام إلى مرتبة أولي العزم. وإذا أوردنا تعريفاً آخر يقول[١]: إن العصمة هي عدم المقدرة على ارتكاب المعاصي لأنها منحة إلهية بحد ذاتها فتوضع في إرادة الإنسان فتمنحه القوة على الكف أو التراجع عن ارتكابها رغم كل المغريات الإنسانية، نجد أننا ننساق إلى موقف توفيقي بين الحالتين بأن تلك المقدرة بارتباطها بالتسديد الرباني يتساوى فيها الأمران عدم المقدرة أو المقدرة والامتناع، فالنتيجة النهائية في التطبيق في السلوك تعطي القيمة ذاتها.

## جدلية الإمام في السلطة مجدداً

الحياة تؤكد أن الواقع يناقض المثال أحياناً، ولأنهم يقولون بأن السياسة هي فن الممكن، فهل نندفع إلى القول بأن الإمام كان يطالب أتباعه بالمثال،

---

(**) يقول الإمام «والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس(. .) والله ما استغفل بالمكيدة ولا استغمز بالشديدة».

(١) علي سامي النشار نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٢، ط٧، ١٩٧٧ دار المعارف بمصر ص٣١.

أو أن الإسلام بحد ذاته هو المثال البعيد عن التطبيق بحذافيره؟

ولأن الإمام كان يعلم ذلك هل امتنع عن السعي إلى السلطة (رغم وصية الرسولﷺ به) وعندما أجبر عليها بعيد وفاة عثمان حاول تطبيق المثال مما أدى إلى افتضاض الأتباع، وهلك فيه الغالبية العظمى إلا الصفوة أو النخبة من الأتباع وهم القليل من مجموع المسلمين؟؟

ولكن.. الإسلام دين واقعي ينطلق من الفطرة أي الواقع الموضوعي المتلائم مع التركيب الذاتي للإنسان كما خلقه الله سبحانه: الدين يسر وما حاج الدين أحد إلا غلبه، كما عبر رسول الله، فهل كان المثال الذي أراده الإمام عبر العصمة وتطبيقاتها في السلوك بهذه الصعوبة؟

ولماذا فشل الإمام من حيث نجح رسول الله وبالشرط الموضوعي ذاته في جموع أصحابه وأنصاره على أقل تقدير؟

أسئلة مؤرقة جهد الكثيرون في الإجابة عليها بين غال وناصب ووسط أو من يظن أنه الوسط، والمرجح أن الإمام عندما طالب الذين يريدون اطلاق حكم قيمة عليه أو أتباعه بالوسطية كان يطلب أمراً شاقاً حقاً، ذلك أنك عندما تبحث في الإنسان فأنت مقسور على عاطفتين لا ثالث لهما الحب أو الرفض، ولا حيادية في هذه المسألة بالذات لأنها ليست بحثاً في علم الرياضيات أو اشتقاقه.

الإمام حاول دفع أصحابه إلى عدم الغلو في الحب وحسب، وعندما يبتعد الإنسان عن الغلو يقترب من العدالة والانصاف. خطوات، ويظل العقل الإنساني فيصلاً، وكم كان سلام الله عليه منحازاً إلى هذا المخلوق السامي الشبيه بالذات الإلهية (العقل).

هنا أعود إلى الرأي الذي ساقه عباس محمود العقاد وآخرون حول اختلاف الشرط الموضوعي كأحد أسباب فشل المشروع الإسلامي الأصيل

الذي مثله الإمام علي كآخر الخلفاء الراشدين.

ولكن وللإنصاف يجدر بنا دمج ذلك برأي يستخلص مما ورد للإمام في خطبته الشقشقية[1] بأنه ورث تركة ثقيلة من أخطاء الثلاثة الذين سبقوه (رحمهم الله) ومن الظلم أن يعزى الفشل الحالي إليه أو إلى الإسلام الأصيل في صعوبة تطبيقه في شرط موضوعي كالراهن (عام ٣٥هـ).

كان الإسلام أو الدولة الإسلامية تتوسع بشكل مذهل من مصر حتى فارس شاملة ساحة ما يطلق عليه اليوم الشرق الأوسط، وجاء نظام توزيع الغنائم بين أفراد الجيش، وعدم وجود بيت مال منظم أو عملة محلية ليرفع من عدد الأغنياء فمن خرجوا من الجزيرة العربية هم في فقر مدقع. في هذه الظروف حدثت هجرة قبلية عربية أخيرة من الجنوب القاحل نحو الشمال الزراعي والغني، واختلطت بأهل البلاد الذين كان جلهم، خاصة في بلاد الشام، وغرب العراق ينتمون إلى قبائل عربية، واستمرت بلاد الفرس على خصوصيتها حتى وهي تدخل الدين الجديد، وكانت قد بلغت حداً كبيراً من الحضارة والتمدن والنظام المدني (وهو ما أهلها للسيطرة على الجزء الشرقي من بلاد الإسلام بعد مئة عام فقط ثم على الإمبراطورية كلها عبر العباسيين).

هذا الظرف الموضوعي الجديد يختلف بالتأكيد عما كان في عهد رسول الله، وله مستلزماته وأسلوبه في الإدارة، ويذكر في هذا المجال قصة شهيرة عن انتقاد الخليفة الثاني للوالي معاوية بن أبي سفيان حول مظاهر البذخ الإداري في مقر حكمه في دمشق عندما زاره فيها بعيد فتح بيت المقدس عام ٢٠هـ، ويذكر أنه قبل تفسير الوالي بأن قربه من بلاد الروم تقسره على اتخاذ اجراءات كهذه في مظاهر السلطة لردع العدو في الشمال[2].

---

(١) هذا النص في الخطبة سيتم تحليله لاحقاً في البحث.

(٢) الطبري م. س، أحداث السنة ١٦هـ.

غادر الإمام عليه السلام إلى الكوفة بعيد توليه الخلافة مروراً بالبصرة وهزيمة أول الخارجين عليه (أصحاب الجمل) بقيادة السيدة عائشة، ويعتقد الكثير من المؤرخين والباحثين حديثاً أن الإمام أراد أن يكون؛ قريباً من الشام، وبين أنصاره، وظهره مستند إلى شيعته في فارس، والواقع أن قبولها جميعاً فيه الكثير من التأثر بمرحلة ما بعد رحيل الإمام وليس مرحلته ذاتها، ذلك أننا لا نستطيع قبول نظرية قربه من الشام لأن المدينة المنوّرة تتساوى المسافة بينها وبين دمشق وهذه الأخيرة والكوفة تقريباً، وأن تحديد التخوم بين الأنصار والأعداء فيه الكثير من الصعوبة وعدم الدقة، خاصة وأن الحرب الأهلية ميّعت الحدود وجعلت من الموالاة أو الانحياز للخصم أمراً بالغ النسبية وهو ما أكدته أحداث السنوات الخمس لولاية الإمام، أما مسألة تشيع الفرس في تلك الفترة للإمام، فهي تقترب من مرتبة الخرافة والتجني على التاريخ، لأن الوقائع أثبتت أن الشيعة في زمن الإمام كانوا عرباً أقحاحاً في غالبيتهم الساحقة[1]، نخباً ومقاتلين، أما فارس وزحف الفرس نحو الغرب ومشاركتهم في الصراع ضد السلطة الأموية فجاءت لأسباب كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

كان تقدم الإمام إلى العراق متعلقاً باستراتيجيته العسكرية لترويض المتمردين على بيعته بالخلافة خاصة في الشام، وأكبر دليل على ذلك هو خط سيره العسكري الذي أخذ شكل قوس ليأتي دمشق من شمالها وليس من جنوبها مواكباً لمصادر المياه وأوساط القبائل الموالية أو التي أراد كسب ولائها بإقناعها بأحقيته بالخلافة أساساً، وكانت معركته الشهيرة (صفين) ضد جيوش معاوية، على نهر الفرات قرب مدينة الرقة شمال بلاد الشام[2].

---

(١) د. أحمد الوائلي، هوية التشيع.

(٢) راجع سير الأئمة ـ مرجع سابق ـ الجزء الأول.

لكل هذا كان الوضع العسكري للإمام عليه السلام بالغ الصعوبة والحرج أصلاً، إن من حيث جمع المقاتلين أو من حيث ضعف الموارد المالية، أو (وهو الأمر البالغ الأهمية) تميع الوحدة الداخلية لجيشه كما يجمع المؤرخون، وأخيراً يعترف الإمام بأن (لا رأي لمن لا يطاع) فقد تمرد الأتباع وعلى من.. على علي بن أبي طالب عليه السلام أكبر مناضل في سبيل الإسلام والله على مر العصور وليّ كل مسلم ومسلمة بنص القرآن والسنة معاً، بل والأشد نكاية أنّه وهو على سدة الإمارة كان يشتم على منابر الصلاة في خطبة الجمعة في كثير من منابر المسلمين وبأمر من خصمه اللدود معاوية.

لقد عملت (الأجهزة الإعلامية للسلطة الأموية) في زمنه بطريقة (علمية بالغة التقدم) وهو ما يثير الاستغراب فعلاً، فقد نُشرت في بلاد الشام مجموعة من الأمثال الشعبية لا زالت مستمرة حتى اليوم، فأصبحت كلمات مثل ( أبو حسن) تحولت إلى (بابا حسن) شتائم يتداولها الناس دون أن يدركوا مرجعيتها إلى الإمام علي عليه السلام. وهكذا اتسعت جبهة خصوم الإمام إلى درجة مذهلة.

هنا يجد الباحث نفسه مقسوراً على طرح العديد من الأسئلة حول تغير الشرط الموضوعي، وهي أسئلة تملأ كتب التاريخ والبحث التاريخي: هل كان المال المرافق للفتوحات وانسكابه على نخب الفاتحين من صحابة رسول الله، وإصرار الإمام على عدالة التوزيع، وحرصه الشديد على المال سبباً لذلك؟ هل هو ضعف الإيمان لدى الكثيرين منهم، أم هو الحسد كما يعتقد السيد محسن الأمين رحمه الله[1]؟. هل هو اختلافهم في الاجتهاد وفيهم الإمام وهو من هو من حيث العلم بالقرآن والسنة؟ هل هي النزعة نحو الحكم الملكي ومستلزمات مظاهر حكم كهذا من حيث الفخامة والبلاط والنزوع الارستقراطي لنخب الفاتحين كما يعتقد عباس العقاد؟ هل هو العامل القبلي

---

(١) راجع سير الأئمة مرجع سابق الجزء الأول.

كالحقد والثأر من رمز النضال (علي) وقد قام بقتل رؤوس القبائل أيام الشرك في سبيل ترسيخ الإسلام، في حروب المسلمين الكثيرة التي خاضها؟ هل هي مجرد إرادة الله سبحانه بذلك في شرط قدري غير قابل للفهم الإنساني تبعاً لحديث رسول الله في وجود العباس وعلي قبيل رحيله عن هذه الدنيا حين قال «أنتم المستضعفون من بعدي» إذا صح حديث كهذا؟ وهل نقبل لتأكيد هذه الإرادة الإلهية حديث رسول الله ﷺ إلى علي «ستقاتل الناكثين والمارقين والقاسطين» ومعه حديث الرسول ﷺ إلى عائشة «ستخرجين على علي وأنت له ظالمة» وأيضاً حديثه «بشر قاتل ابن صفية النار» وهو كما نعلم الزبير بن العوام وكان من أشد أنصار الإمام وبايعه بالخلافة ثم نكث البيعة وقتل من قبل أحد أنصار الإمام في حرب الجمل بعد تركه جيش عائشة، وعندما أبلغ القاتل الإمام بشراً بذلك واجهه بهذا الحديث، مما دفع بالرجل إلى الخروج عن الإمام ذاته فيما بعد[1]؟؟

هل كان اختلاف الشرط الموضوعي إلى درجة دفعت ابن عباس نفسه لمفارقة الإمام فيما بعد وكان من أشد أنصاره وأحبهم إليه لأسباب مثيرة للجدل وغامضة؟

لقد تغيرت الشروط الموضوعية ما في ذلك شك ولكن هل يمكن قبول أن تأخير هذا التغير في نفوس المسلمين ونخبهم ـ وهم من كبار أصحاب النبي ـ إلى درجة أن يشنوا الحروب الأهلية التي استنزفت الجسم الإسلامي متناسين حديث رسول الله ﷺ : ما التقى مسلمان بسيفيهما إلا كان القاتل والقتيل في النار، قالوا: ذاك القاتل فما ذنب القتيل؟ قال: كان يسعى إلى القتل؟»؟

---

(١) راجع حرب الجمل وصفين للسيد محسن الأمين، دار الفكر للجميع، دمشق ١٩٦٩، ص١٨٤.

تلك المرحلة المضطربة التي وسمت خلافة الإمام علي بن أبي طالب، وجعلت منه سلام الله عليه هدفاً لتهمة عجزه عن إدارة الأزمة ورفعت خصمه الأبرز معاوية إلى مستوى الأقدر على ذلك، ذاتياً وموضوعياً من قبل الكثير من الباحثين حديثاً، تلك المرحلة وشحت الخليفة الرابع بمظلومية تاريخية لم يُشهد لها مثل. أما الجانب الإيجابي لكل ذلك فقد كان بزوغ مدرسة أهل البيت بزعامته كقمة لها لتصبح في مقابل مدرسة أخرى نشأت فيما بعد هي «أهل السنة والجماعة» أو مدرسة الخلافة كما يحلو لبعضهم تسميتها، والأمر الآخر، وهو بالغ الأهمية بما لا يقاس، وأعني به بعث حضارة عربية إسلامية في الفكر والعلم قل نظيرهما، هذه الحضارة أصبحت اليوم وبإنصاف جسراً تاريخياً لولاه لتأخر انبعاث الحضارة العالمية التي تقودها أوروبا إلى آفاق مستقبلية بعيدة وغامضة.

لم تخلف مرحلة في التاريخ من الجدل في علم التاريخ والكلام ما تركته تلك السنوات الحاسمة التي تولى فيها علي السلطة (٣٥ ـ ٤٠هـ)، ولعل من أطرف ما أخذت به الأطراف المتصارعة من تبريرات هو تأويلها للآية الكريمة ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ والأشد طرافة هو ما قدمه خصوم الإمام علي من تبرير عندما قتل عمار بن ياسر في معركة صفين، في ظل تواتر حديث شهير للرسول قاله عندما كان المسلمون يحفرون الخندق «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»[1]، أن الذي قتله هو من أخرجه للقتال يعني الإمام علي وتحميله تهمة البغي، وكان عمار رحمه الله في التسعين من العمر ومن أشد الذين توحدوا بالإمام في كل سيرة حياته (وهو ما سنعالجه في الفصل الثالث).

---

(١) نفس المرجع السابق ص١٨٥ ـ ١٨٦.

أما الشريحة الثالثة فهي أولئك الذين وقفوا على الحياد من الصحابة فهم كثر يمكن أن نذكر منهم زعيمهم عبد الله بن عمر وكذلك أبا هريرة الدوسي الراوي الأشهر للحديث، عندما جلس على التل في المنطقة التي أصبحت تحمل اسمه قرب مدينة الرقة السورية وغمرها اليوم سد الفرات، وقد اعتاد أن يصلي خلف علي ويأكل عند معاوية مبرراً ذلك بقولته الشهيرة: «الصلاة وراء علي أبرك والأكل عند معاوية أدسم والجلوس على التل أسلم» ثم تولى إمارة المدينة المنورة عندما انحاز للأمويين. ولعل أبرز معالم الانقسام بين النخب الإسلامية في مسألة الاصطفاف في الموالاة أو الخصومة أو الحياد ما تردد على ألسنة بعض التابعين الكبار مثل الشعبي حين قال: «ما ندري ما نصنع بعلي بن أبي طالب إن أحببناه افتقرنا وإن أبغضناه كفرنا[1]» فهذه الكلمات تلخص تلك المرحلة بكاملها على لسان مثقف شهير، وهي أيضاً تعبير عن أزمة النخب المثقفة التي تؤثر في الرأي العام الإسلامي بانحيازها لهذا الطرف أو ذاك. وظل الحياد سمة سلبية في كل الأحوال رغم أنه أهون الشرور، برغم أن المؤرخين العرب ممن أرادوا الامتناع عن إصدار حكم قيمة على الأحداث، مدحوا هؤلاء ومنحوهم درجة رفيعة من المصداقية، وهكذا احتل **أبو هريرة ذروة الوثاقة** في رواية الحديث تبعاً لذلك، بوجود كل تلك السلبيات التي لحقت بالصحابة المحايدين. ذلك أن الحياد في صراع كالذي كان يجدر بمن يصدر حكم قيمة عليه أن يضع أصحابه في مرتبة أدنى من مرتبة خصوم الإمام علي عليه السلام منطقياً، فأقل مما يوصف به أولئك ما اصطلح عليه اليوم من مفهوم (الانتهازية)، فهم رحمهم الله كانوا إلى معاوية بن أبي سفيان أقرب وأكثر تعاطفاً، فقد كان يغمرهم بأعطياته بمن في ذلك ابن عباس رحمه الله وقد قبلت السلطة استمراريته على الولاء للإمام في كل ما يحدّث به

---

(١) الشعبي أحد رواة الحديث المشهورين وهو تابعي. راجع:

حسين مروّة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، الجزء الثاني: بحث التصوّف.

في أخريات عمره كشر لا بد منه.

والواقع الذي يجدر بمن تابع تلك المرحلة أن يعترف به أن ذاك الجيل من النخب الإسلامية والأجيال التي تلت حتى نهاية الدولة الأموية عام ١٣٢هـ وقفت بعواطفها إلى جانب الإمام عليّ بالمطلق، ونورد دليلين هامين:

الأول: ما جاء في التاريخ أن شعراء الدولة الأموية الكبار: جرير ـ الفرزدق ـ الكميت[١] وغيرهم كانوا بغالبيتهم الساحقة عند بروزهم مع قضية الإمام علي قبل أن (يجبروا) على الانحياز للسلطة، حتى وان ذكرنا أن الشاعر حسان بن ثابت لم يكن مع الإمام كما نقل، أما الشاعر الأخطل فقد والى السلطة كعادة النخب المسيحية والأقليات التي لا تفارق السلطة، وهو أمر منطقي وله أسبابه.

الثاني: أن الحروب الأهلية والانتفاضات ضد الدولة لم تهدأ لحظة، وكذلك فإن العمل المنظم لاسقاط الدولة تصاعد إلى درجة أنّه اتخذ شعاراً شهيراً هو الرضا من آل محمد أو أهل البيت بالثأر لهم، خاصة بعيد وقوع حادثة مأساوية حفرت عميقاً في الوجدان الإسلامي وأعني بها مجزرة كربلاء، فلم تستمر الدولة منذ تأسيسها إلا أقل من قرن من الزمن (٤٠ ـ ١٣٢هـ). لقد أصبح الإمام علي بن أبي طالب جزءاً من الوجدان الشعبي للأمة رغم هزيمة مشروعه. صار عنواناً ورمزاً لحركة المستضعفين المسلمين وغير المسلمين في الإمبراطورية الإسلامية في سعيهم للوصول إلى حقوقهم[٢]. أصبح عليٌّ رمزاً للحق والمصداقية بالمطلق وحتى اليوم.

---

(١) راجع حياة كل من هؤلاء في الأغاني وهو أشمل مرجع للشعر والشعراء في تلك المرحلة.

(٢) راجع محمد علي التسخيري، من حياة أهل البيت عليهم السلام المجمع العالمي لأهل البيت، ١٤١٦هـ.

## الإمام في السلطة وأزمة المعارضة

إن من الإنصاف للإمام علي بن أبي طالب أن نجزم أنّه ظل حريصاً على صحابة رسول الله الذين عارضوه ومنعهم من الانحراف عن جادة الصواب حتى نهاية عمره، ومن أجل تحقيق هذا الهدف تجاهل الإمام عليه السلام ذاته طوال حياته ورضي أن يكون في الصف الثاني، ولكنه وقد تسلم القيادة واجه من المعارضة فور تسلمه السلطة ما لم يحدث للخلفاء الثلاثة الذين سبقوه مما دفعه مكرهاً إلى الحرب الأهلية بعد توليه الخلافة مباشرة وقبلها ظل بعيداً عن الرضا عن مسار من سبقوه إليها رغم إيجابيته المشهود له بها معهم، ومع ذلك . . لم يصدر حكماً بتكفير أحد منهم، سابقين ولاحقين حتى وهو يذمهم ويشتكي منهم ويصبر كأولي العزم كما قال (يكدح فيها واحد حتى يلقى ربه).

من دروس سيرته في السنوات الخمس من خلافته أنّه ابتعد عن منطق التكفير مقارباً منطق الحوار المرير حتى في البديهيات. ولكي ندرك مرارة حوار كذاك أن نتصور إنساناً يمثل باب مدينة علم رسول الله وهو يحاور خصومه المتسمين بالجهل في أبسط قواعد تأويل القرآن والسنة النبوية من أهل البداوة كالخوارج على سبيل المثال، أما أهل المدينة من صحابة رسول الله . . أنصاراً ومهاجرين فقد كان حواره معهم أشد مرارة، خاصة عندما واجه تهمة مشاركته في اغتيال الخليفة الثالث، واشتعال الحرب القبلية التي ليس للعقل والإيمان فيها أي دور على الإطلاق.

لقد جهد الباحثون منذ القرن الثاني الهجري (ازدهار عصر تدوين العلم) على العمل لتبرئة المرحلة برمتها من الأخطاء، خاصة تلك الفترة المثيرة للجدل والأسئلة المؤرقة . . خلافة الإمام علي تحديداً وصولاً إلى كربلاء عام ٦١هـ واستشهاد الإمام الحسين عليه السلام . يلخص ابن خلدون المسألة هكذا[1]

---

(١) ابن خلدون، مرجع سابق ص١٧٢.

«هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين، فهم خيار الأمة، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يخص بالعدالة؟ والنبيﷺ يقول: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثاً ثم يفشو الكذب (. .) فإياك أن تعوّد نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم، ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه».

ويقول الشيخ أبو زهرة من المحدثين على نفس الطريقة[1] وهو رأي اقتبسه من ابن أبي الحديد المعتزلي «فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله (الإمام علي) فلو أنكر أحد إمامتهم وغضب عليهم وسخط فعلهم فضلاً عن أن يشهر عليهم السيف أو يدعو إلى نفسه لقلنا إنه من الهالكين، لكنا رأينا علياً رضى إمامتهم وبايعهم وصلى خلفهم وأنكحهم وأكل فيئهم فلم يكن لنا أن نتعدى فعله. .».

هذان الرأيان يحاولان الإجابة على الأسئلة في سعي لحل جدلية متعبة وذلك بالهروب إلى الأمام وتمثل سيرة الإمام علي ذاته من جهة، أم باتخاذ موقف السلب المطلق والتوقف عن الخوض في المسألة برمتها من زاوية إطلاق الأحكام، بل واللجوء إلى منطق التبرير الإيجابي بأن كل ما جرى هو مجرد خلاف في وجهات النظر، وليس صراعاً بين حقين، من جهة أخرى. هذه الآراء رغم اتخاذها الوسطية سبيلاً إلا أنها لم تجد سبيلها إلى الواقع البحثي التاريخي لاستحالة ذلك بإطلاقه، فهي عصية على التطبيق وحتى العقلانية، فليس في العلم حيادية، فهو رهن بالمعطيات المتسمة ببرودة الحقيقة ذاتها رغم حرارة العواطف وحتمية الانحياز لهذا الطرف أو ذاك، حتى في أبحاث العلوم البحتة.

---

(١) محرر أبو زهرة الإمام الصادق حياته وعصره وفقهه، مطبعة مخيمر، القاهرة ص٢٠٩.

التوحد بالإمام في سيرة حياته أمر مهم من أجل التوفيق بين المواقف، ولكن منطق البحث يقسر الباحث على تحليل الأحداث والأقوال للوصول إلى الحقيقة مهما كانت مزعجة أو لا ترضي عاطفة الحب والإعجاب بأشخاص مرحلة صدر الإسلام حول رسول الله ﷺ، ومن الظلم لعليّ أن تفسير إيجابيته تجاه النظام الراشدي، بقبول رأي التوقف عن العلمية التاريخية أو تأويل الوثائق والنصوص، وحتى القرآن الكريم أو السنة النبوية لمصلحة تصوير المرحلة الراشدية بأنها الجمهورية الفاضلة أو المثال، وأن شخوصها أناس فوق البشرية، مع إقرار الجميع بأنهم مجتهدون يصيبون ويخطئون.

إن الوحيد في كل هؤلاء الصحابة ممن استحق أن يمنح سمواً متميزاً فوق الجميع هو ذلك الذي أنكر ذاته في سبيل العقيدة، وتحمل من أجلها كل ذلك الألم والمرارة، وصبر والحزن ينخر كبده (رغم كل ما عومل به من ظلامة ومحاربة ومقاطعة قبيل وبعيد تسلمه الخلافة) حتى يحفظ وحدة الأمة والإسلام، وكرس نفسه وأولاده الذين كرّسوا ذواتهم وتلامذتهم بعده من أجل نشر الإسلام وجعل علومه في مصاف استحقاق مرتبة العلم.

حكم القيمة هذا يقتضي الإنصاف وليس العاطفة، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وهو أقل تقدير لتلك الشخصية التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، ومع ذلك فلا بد من إقرار أن مجتمع المدينة المنوّرة هو الذي بدأ الهجوم على الإمام ولم يترك وشيعته القلائل وشأنهم حتى وهم يقومون بمجرد المعارضة السلمية حصراً، والحقيقة أن الصحابة وبالإجماع عرفوا أهمية موافقة الإمام على النظام الجديد قاعدة لاستمراريته، وليس صحيحاً بإطلاق الرأي الذي يقول إن الإمام بايع الخليفة الأول بسبب المقاطعة التي واجهها في المدينة المنوَّرة بعيد وفاة فاطمة عليها السلام[1]، فهو ليس

---

(١) راجع الطبري أحداث سنة ١١هـ.

من أولئك الذين يرضخون لأسباب شخصية، وإلا لكان أعلن التمرد منذ مؤتمر السقيفة على سبيل المثال بعيد رحيل رسول الله ﷺ. وهنا لا يجد أي باحث فكاكاً من القبول ولو بحذر الآراء التي ترددت حول أن تأجيل الإمام لبيعته الأولى كانت حتى يضع أمام المجتمع الإسلامي كله موقفاً يسجل فهمه للقرآن والسنة النبوية بأنّه الوصي، وأن الوصية تعني تولي السلطة وليس لها من تفسير آخر، وأن الاجتهادات المثارة حول تلك المسألة في تفسير الحديث النبوي. لا مصداقية لها، وأنّه في المحصلة النهائية الأعلم بتأويل القرآن والأحفظ لأحاديث الرسول وأن سلوكه في الحياة مجرد مصداقية لما يعلم منهما وما أخذه من الرسول مباشرة، وأن ما يخالفه في الرأي هو اجتهاد خاطىء حسابه على الله سبحانه، فهو كبشر وصاحب رسالة يتجه نحو دعم المصلحة العليا للأمة حتى وهي تخطىء من خلال النخب الأساسية (الصحابة مهاجرين وأنصار) في تفسير السنة أو القرآن وتنساق باتجاه تعزيز الاتجاهات القبلية والعشائرية في مسألة إقرار مبدأ تداول السلطة.

الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وباجماع المؤرخين أعلن أنّه الأحقّ بتولي خلافة الرسول ﷺ، وباجماعهم أيضاً جاء قرار مجتمع المدينة المنوّرة مخالفاً لرأيه، هكذا ارتضت قريش لنفسها كما صرح بذلك الخليفة الثاني في حوار له مع ابن عباس[1].

الوقائع المتوفرة لأي مؤرخ تؤكد أن مجتمع المدينة لم يفسر حديث الوصية (الغدير) بما فسّره به الإمام علي، وبصرف النظر عن أحداث السقيفة الشهيرة التي أقرت شكل نظام الحكم الذي سمي بالراشدي، فإن ما يشبه

---

(١) هذا الحوار الطويل ورد في مصادر كثيرة منها شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج١٢ ص٥٦) وتجد نصه في هامش الفصل الثالث، الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري، وتاريخ اليعقوبي وغيرهما.

الأغلبية الساحقة منه وافقت على ريادة الخليفة الأول وأقرت له بالخلافة من بين مجموعة من الصحابة الذين تم تداول أسمائهم: عمر بن الخطاب، أبو عبيدة الجراح تحديداً. هكذا أرادت قريش ومعها الأوس والخزرج أخيراً (وهم الذين أرادوا الخلافة لواحد منهم)، فهل يمكن قبول نظرية هلاك، أو الخروج من الإسلام، لكل من وافق على ذلك النهج؟؟

إن الإجابة عن هذا السؤال بالقبول أو بالنفي هي جوهر نظرية الإسلام أو الإسلام السياسي، بين فصل الدين عن السياسة أو بين دمجها معه، وهي ما أكّد الشرخ الواقع في الأمة منذ أربعة عشر قرناً، وهو الشرخ الذي أراده الله سبحانه تمهيداً لبزوغ الحضارة الإسلامية التي حكمت العالم القديم بأكمله زمناً طويلاً. ولأن الباحث لا يسعى لمجرد إصدار أحكام الإدانة، ولأن شخصية الإمام علي عليه السلام تحمل من الإشراق ما يجعل أياً لا يملك ذاته من الانحياز إليه فإن الوسطية التي أرادها الإمام ذاته تفرض أو تقسر الباحث على السعي لإيجاد المبررات لأولئك الصحابة الذين تولوا قيادة الأمة وأبعدوا أمير المؤمنين عليه السلام عنها ما يزيد عن الثلاثين عاماً.

بالنسبة للباحث المؤمن من الطرفين فهو أمام الوثائق المتوفرة لا يملك فكاكاً من التبرير وإيجاد الأعذار المختلفة حتى لا يحكم بالهلاك على أولئك السلف الذين وضعوا أسس البناء لصرح مبهر من حضارة قادتها أيديولوجيا التوحيد المطلق التي مثلها الإسلام. أما غير المؤمنين بالرسول والإسلام فهم رغم إعجابهم بالإمام فقد حكموا عليه بأنه ليس رجل دولة لأن الدول لا تقوم على الثوابت الجوهرية للأيديولوجيا في عالم متغير يتطوّر باستمرار ويحتاج من الحاكم (حتى العادل) أن يكون براجماتياً، لأن الرسول ذاته أكد ضرورة ذلك في حديثه الشهير في معركة الخندق (الحرب خدعة).

ولأن التاريخ لا يصدر أحكام الإدانة لأحد فقد تركت القرارات المختلفة لهذه الأحداث ( في العصر الراشدي تحديداً) الناس ينقسمون

قديماً وحديثاً إلى مسارب توافق قناعاتهم التي ولدتها القراءة وهو أمر بديهي، وقد يؤدي ببعضهم إلى الهلاك والخروج عن الإسلام ذاته إن في الحب أو البغض المتسامي بالغلو الشديد وهو ما أكده الإمام علي ذاته (كما أسلفنا).

ولكن مجمل ما أفرزته تراجيديا الصدر الأول هو التأكيد المطلق على مكانة الإمام عليّ في الإسلام. فكما رأينا.. كان الخلاف معه وفيه وحوله، حتى أنّه صعد إلى سدة أن يصبح المصدر والمنبع بعد رسول الله ﷺ لكل شيء.. نجاةً وهلاكاً وحيادية، لقد أصبح أداة القياس الأساسية لكل سلوك، وهذا يكفيه، بعد ذلك أنه أعلى مكانه من أن يكون طرفاً في أي خلاف مع الآخر مهما كان هذا الآخر، ولعله عبّر عن ذلك بدقة مذهلة من خطبته الشقشقية في النص التالي (وهو ما أمسكنا عن تحليله عند الحديث عنها) حين قال:

أما والله لقد تقمصها فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى(...) فيا عجباً بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته ـ لشدّ ما تشطرا ضرعيها فصيراها في حوزة خشناء(..) حتى إذا مضى إلى سبيله جعلها في جماعة زعم أني أحدهم فيا لله والشورى... متى اعترض الريب فيّ مع الأول منهم؟ حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر(..) إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضنيه بين نثيله ومعتلفه وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع إلى أن انتكست عليه فتله وكبت به بطنه».

الإمام ببساطة يرفض أن يقرن أو يقارن بالجميع وهذا حقه، ولكنه وهو يرفض ذكر الأسماء ملتزماً بأدب النقد السياسي، أجاب على الأسئلة التي توضح طبيعة المرحلة الراهنة والمقبلة متنصلاً من المسؤولية معدداً الأخطاء التي أدت إليها ممارسات من سبقوه، وهو حقه وواجبه معاً أمام الناس والتاريخ والإسلام. لقد أكد الإمام علي نفي العصمة عن أبرز صحابة رسول

الله وقيّمهم كأشخاص في السلطة، ولم يشكك في دينهم ولم يقرر هلاكهم أو خروجهم عن الدين، فجاء تحليله سياسياً محضاً لأناس كبار تولوا السلطة كبشر ورحلوا منها جميعاً كبشر يحملون حسناتهم وأخطاءهم، لقد وضعهم ونفسه حيث يجب أن يكونوا.

**حكم القيمة الذي يصدره الإمام على الخلفاء الثلاثة الذين سبقوه، وتحديداً** الاثنين الأولين، أنهما **خالفا ما علماه عن محله منها (الخلافة) ولذا (تقمصاها)** معترفاً بأجلى ما يكون عن موافقة الأغلبية الساحقة على ذلك التقمص ورفضها له هو لسبب لا يذكره في تلك الخطبة الوثيقة التي لم يشكك بنسبتها إليه إلا القليل وعلى استحياء، يحدد بدقة مكانته الجماهيرية (أن أصول بيد جذّاء) بما يعني بالوضوح الكامل قلّة الأنصار، لذا لم يحكم بأي شيء آخر.

لقد ترك الإمام الحكم على سبب انصراف الجماهير عنه للتاريخ، ولم يحمّله للنخبة التي تولت السلطة قبله، وهو عندما تحدث عن عثمان بن عفان رحمه الله أبرز خطأ يتركز حول السياسة المالية للدولة وتسلط الأقارب الفاسدين، مما لم يختلف عليه اثنان ممن درسوا تلك المرحلة قدماء ومحدثين فأصدر حكماً سياسياً بالغ الدقة للأجيال القادمة (أجهز عليه عمله) محملاً إياه المسؤولية الشخصية كإنسان حاكم لا يجوز أن يرقى إلى مستوى العصمة من جهة ، ولا يجوز أن تحمّل الجماهير الثائرة تلك المسؤولية التي تستحقها رغم صحبته للرسول ومصاهرته له من جهة أخرى حتى وإن استحق الجنة ورضا الله كما يتفق المحللون من المؤمنين على إسباغها على النخبة المجاهدة من السابقين من الصحابة.

الإمام سلام الله عليه أجبر على تولي السلطة في الظروف التي لا تخفى، وحملها في مواجهة معارضة شرسة من أولئك الذين أبعدوه عنها سابقاً، لهذا كان ـ وتلك أبرز مفارقات التاريخ الإسلامي ـ معارضاً في سدة إمارة

المؤمنين. ومن أجل ذلك يحق له ذاتياً وموضوعياً أن يكون الحكم العادل على طبيعة تلك المرحلة ورموزها، وإذا جاز للبعض أن ينفوا عنه معارضته أو انتقاداته لمن صنّفوهم دون حق في مرتبة العصمة، بما في ذلك نفي نسبة كلامه السابق إليه عنهم، فإنهم يدمرون نظرية الخلافة الراشدة أو ما يسمونه بالديمقراطية أو الشورى، فالشورى تستوجب النقد والنقد الذاتي، وقد مارسهما الإمام معاً مع النخب الإسلامية المحيطة به، أصحابه وخصومه، وتلك مهمة وواجب المسلم بعامة، ناهيك عن إنسان في موقع المسؤولية والمستشارية كعلي في مكانته السامقة التي أوكلها الله والرسول إليه، كولي للمسلمين، اعترفنا بذلك أم أبينا.

هذا الإنسان الذي وصفه الرسول بـ(الإيمان كله) والذي لم يترك له الحق صاحباً، ظل معارضاً من الطراز الأول، فكان في الإمارة ممثلاً للمعارضة التي غالباً ما تكون مجموع الجماهير المسلمة الفقيرة، وهي الغالبية الساحقة، لهذا عاملته النخب الإسلامية المعروفة كمعارض وحسب ولم تمنحه الولاء وشنت عليه الحروب حتى دمّرت مشروعه الإسلامي الذي اعترف هو في خطبته تلك بأسباب فشله.

تعامل الإمام مع الصحابة وهو في أوضاعه المعترضة تلك على أساس حديثه الشهير (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[1] وقد أبرز الإمام رأيه في المخلوقين الذين تولوا السلطة بما يتفق مع فهمه للإسلام وأوامر الله، ولأن السلطة محرقة للبشر فقد عمل الإمام على منعهم من الاحتراق مؤدياً واجبه الإلهي نحوهم، ولذلك لم يتول الإمام السلطة حتى وهو في سدتها معترفاً بأنه لا يطاع (ولكن لا رأي لمن لا يطاع) (الخطبة ٢٧)، فهو بين الصحابة عملياً أمير لا يطاع فهل أعجب من تلك المفارقة على امتداد تاريخ

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ١٥٦.

البشرية، وهل أبرز منها في إثبات مكانة هذا الإنسان الذي هلك فيه المغالون في الحب والمبغضون جميعاً، وهم قلائل في تاريخ الإسلام ومن مجرد نخب معدودة على أية حال.. أما الجماهير والبسطاء فقد منحته محبتها الخالصة ولا تزال.

وفي الجوهر يجدر بنا الإقرار أن الإمام لم تسجل عليه أخطاء السلطان لأنه لم يكن على سدته حتى وهو أمير المؤمنين ولم يسع إليه حتى وهو يتحدث عن حقه فيه استناداً إلى السنة النبوية والأهلية معاً، بينما تولى بعض الصحابة الإمارة وسعى أو طمح إليها آخرون، مهاجرون وأنصار، ولذلك ارتكبوا أخطاء السلطة والطموح أو السعي إليها معاً. لهذا سجل التاريخ الإسلامي احتجاب علي عليه السلام عن هذا النوع من الخطأ كمحصلة منطقية لمجريات الأحداث (ولا نتحدث عن القدر الإلهي)، وفي النتيجة ظل الإمام رمز القياس لتلك المرحلة، إن شئنا إضافة ميزة أخرى لمجموع فضائله التي لا تحصى.

هنا لا بأس من إضافة أمثلة لبعض ما أبرزه الظرف الموضوعي والذاتي من نواقص شابت صحابة رسول الله لمجرد توصيف الواقع الذي أحاط بالإمام لا غير.

توفيقية التيار البحثي المصري سجلت مجموعة من المواقف المستقاة من وثائق المرحلة تختص بغلبة الدنيا التي أقبلت بعد الفتوحات على مجتمع المدينة. «فقد فتن (بعض) المهاجرين بالدنيا فتوناً[1]»، الأموال تتدفق من البلاد المفتوحة، والسبايا الفاتنات يوزعن عليهم أو يعرضن للبيع في أسواق الرقيق» «يعيشون حياة باهرة من البطالة والفتوة والثراء والمتاع... أموال

(١) عبد الرحمن الشرقاوي، علي إمام المتقين، دار الزهراء، بيروت، الصفحات ٩٢ وما بعد.

وضياع ونساء والشراب أيضاً!!

ثم إن الولع بالغناء شاع في ذاك العصر.. الخ..».

ويتفق الجميع على أن موقف الإمام علي عليه السلام كان الإلحاح على الدعوة للورع والتقوى والزهد، ومعه القلائل من شيعته الخلص، مع بقائه مرجعاً جماهيرياً للمجتمع المدني الذي أصبح هذه سمته الغالبة من الإقبال على المعطيات المستجدة بعد الفقر المدقع، ولكن النتيجة المتوقعة للمرجعية الأصيلة التي مثلها أنها بدأت تتحول إلى جزء من الماضي الجميل القريب. ورغم كل ذلك فلا يمكن قبول رأي أحد المعاصرين للإمام والوحيد الذي سجل مذكراته عن المرحلة وأعني به (سليم بن قيس)[1] عندما قرر هلاك الكثير من الصحابة بسبب ذلك، فهؤلاء هم الذين أسسوا الإمبراطورية الإسلامية، وصنعوا العهد الجديد على هذه الأرض وهو عهد ثوري فعلاً بكل المقاييس ويتسم (لذلك) بالعدالة الاجتماعية حتى باعتراف (كارل ماركس)[2] فيلسوف الثورة المعاصر.

هذا الصراع الذي اعترف به الجميع ووسم مرحلة ما بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله أدخل في المجتمع الإسلامي حالة من الإحباط الشامل عندما اهتز المثال الذي كان عليه عهد رسول الله، والذي اعتبر أساس القياس للصحيح من الخطأ في السلوك الإسلامي. والواقع أن كثيراً من **أحكام القيمة التي** تطلق على العهد الجديد تمثل حالة من التعسف العلمي، لأن حركة الزمن والتطور لا يمكن إيقافهما، وظل الإمام علي عليه السلام أعدل الصحابة في التقويم وفهم حركية الزمن من موقعه في المعارضة والاستشارية معاً، حتى أنه عندما كان

---

(١) سليم بن قيس الهلالي ت٩٠هـ، تحقيق علاء الدين الموسوي، مؤسسة البعثة بيروت.
(٢) زهير غزاوي، نمو القيم والاتجاهات عند طفل ما قبل المدرسة، دار المبتدأ بيروت (المقارنة الإسلامية في التربية).

يخاطب جنده الذين خذلوه اعتاد أن يمدح أصحاب رسول الله ﷺ قائلاً (الخطبة ٩٦): لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى أحداً منكم يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً وقد باتوا سجداً وقياماً، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم رُكَبُ المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف، خوفاً من العقاب ورجاء للثواب» وهو قد مدح الأنصار بالتحديد أيضاً وهم الصحابة أيضاً بأشد من ذلك مذكراً بوصية الرسول بهم عندما أرادوا الإمارة في حادثة السقيفة الشهيرة (الخطبة ٦٦): «فهلا احتججتم عليهم بأن رسول الله ﷺ أوصى بأن يحسن إلى محسنهم ويتجاوز عن سيئهم».

أخطاء الصحابة الذين تولوا السلطة (الخلافة) كثيرة، وهم جميعاً ممن اتّسموا بالسلوك الصالح في حياتهم وإسلامهم، رحمهم الله، كنا أشرنا إلى النقد السياسي الموجه لهم من قبل الإمام، ولكن أكبر أخطاء الخلفاء الثلاثة الإدارية (ولنعتبرها كذلك ما دمنا لا نريد الخوض في جذر القضايا الخلافية الأخرى) هي ولاية الشام وإقرار معاوية بن أبي سفيان عليها وتركه دون محاسبة أو تغيير، مما جعل من هذا الأمر جذراً للشرخ العميق الذي كونته الأسرة الأموية في البنيان الإسلامي عندما حولت الخلافة (بإقرار الجميع بلا استثناء) إلى ملك عقيم.

صحيح أن حرب الجمل مع جزء من الصحابة أصابت القوّة العسكرية الشرعية للخلافة في الصميم، ولكنها لم تكن ـ بالقوى المتشكلة من قادتها ـ يمكن أن تسعى إلى تغيير جذري كالذي جرى فيما بعد، هذا الاستنزاف الذي واجه الشرعية المتمثلة بأمير المؤمنين عليه السلام أدى إلى إضعاف القوى الرئيسية للمرحلة الراشدية، وتحولت المراحل اللاحقة للدولة الإسلامية باتجاه صعود هيمنة القبلية والارستقراطية الأسرية على الدولة، وهي عندما تقدمت حضارياً

بفعل عوامل التطور القسري والتلاقح الحضاري مع الجوار، بدأت تنحدر عدالة بين الناس وتبتعد عن أن تكون دولة إسلامية بالمعنى الدقيق للكلمة، رغم ظاهر الإسلام في ملوكها وفتوحاتهم لنشر الإسلام.

## أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعاوية

ارتبط الاسمان في أذهان الغالبية الساحقة من المسلمين (وافقنا على ذلك أم تحفظنا عليه) إلى رمز تاريخي للصراع بين الحق والباطل، ولن تجد في أية مرحلة تاريخية تالية في من أرخوا لذاك الصراع من يقف إلى جانب معاوية بن أبي سفيان بإطلاق.

والحقيقة أن الإمام عليه السلام ورغم كل ما واجهه من صعوبات في زمن الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين، خاصة ما لقيه بعض أصحابه من اضطهاد كبلال وأبي ذر رحمهما الله، وما سلب من حق فاطمة الزهراء عليها السلام في فدك وغير ذلك، بقيت مكانته العالية في الدولة الإسلامية لم تمس ولم ينظر إليه في ما ذكره المؤرخون (الطبري، اليعقوبي، ابن قتيبة الدينوري) وغيرهم، إلا كمرجعية بالغة الاحترام، والمستشار والضمير الحي للدولة.

أما في زمن معاوية والخوارج.. صراعاً أو تعاملاً مع أبنائه وتراثه، فقد سعى الأول إلى سحق سمعة وفكر الإمام ومدرسته ناهيك عن قتاله، أما الآخرون فقد تآمروا على قتله وتمكنوا من ذلك فعلاً.

معاوية بن أبي سفيان صحابي، نسب إليه مساهمته في كتابة الوحي، من أسرة مرموقة عرف عنها منافسة بني هاشم في زعامة قريش، أبوه من كبار أغنيائها، أخته حبيبة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله، أخوه أحد قادة الفتح الإسلامي الكبار، هذه المكانة أهلته لتولي أهم الولايات الإسلامية الحديثة الشام منذ فتحها، ثم الخلافة والملك حتى موته ليدفن في دمشق عام ٥٨هـ، هي إذن خمسة عقود من الزمن جعلت من بعض المستشرقين، ومن مذاهب إسلامية

(كالوهابيين)، وممن يقولون بعصمة الصحابة في المذاهب الأربعة، يتفقون تجاهه على مواقف أدناها، مخاطبته بكلمة (رضي الله عنه) لدى المذاهب مع الإقرار بأحقية (علي) ويعتبرونه حامياً للإسلام وإماماً عند الوهابيين، ويمنحونه الأفضلية في الذكاء والإدارة للإمبراطورية على الإمام (علي) لدى المستشرقين.

يقرن اسم هذا الرجل بعلي سلام الله عليه كنقيضين، وربما لولا هذا الاقتران لم يكن لاسمه أن يبرز في التاريخ الإسلامي بهذا الصخب والرنين والإجماع على تمثيله للباطل.

هو إذن ليس شخصاً عادياً، عدّه بعضهم من دهاة العرب مع عمرو بن العاص (حليفه)، وقيمه آخرون بأنه أفضل من تمكن من تطويع المال لخدمته في سبيل تطويع الرجال، كالعقاد وغيره، أما الإمام عليّ فقد تحدث عنه في نهج البلاغة كخصم قدير ومتمكن من اقناع أتباعه بباطله، ودفعهم للقتال حتى تفوقوا على أصحابه هو يقول: «ألا وإن معاوية قاد لمّة من الغواة وعمَّس عليهم الخبر حتى جعلوا نحورهم أغراض المنية» (الخطبة ٥١). وكان هذا النص يوم تمكن معاوية من منع جيش الإمام من ماء الفرات بصفين.

هذا الخصم أدخل في الأمثال العربية حتى اليوم ما عرف (بقميص عثمان)، وهذا المثل يضرب لمن غطى باطله برداء الحق، عندما اتخذ من طلب ولاية الدم لقتل عثمان سبيلاً للوصول إلى سدة السلطة، وتمكن من ذلك فعلاً. وهو في المحصلة الأخيرة نموذج الأبعد ما يكون عن الأيديولوجيا الإسلامية عندما أدخل البراجماتية في الإسلام، بالغاية التي تبرر الوسيلة، وهو ما جعله ميكيافللي سمة السلطان الأساسية فيما بعد[1]، وكان ذلك مناقضاً بالقطع للأسلوب الإسلامي في حكم الدولة.

---

(١) راجع كتاب الأمير للكاتب الإيطالي ميكيافللي.

جاءت خطورة الخطوات التي اتخذها معاوية في حربه من أنها، وهي تقوم بشرخ وحدة المسلمين، اتخذت من السنّة النبوية سلاحاً باتجاهين؛ الأول الهجوم المباشر بدفع الأتباع لوضع الحديث النبوي بما يؤيد موقفه والثاني حجب أحاديث الرسول التي تتحدث عن مكانة الإمام علي في الإسلام.

كانت الخطوة الأولى بالغة الخطورة على السنّة النبوية التي منع الراشدون الثلاثة الأول تدوينها بذرائع مختلفة مما جعل تدوينها في مرتبة الكراهة، وفي هذا المجال يقول الزهري: «كنا نكره كتابة العلم حتى أكرهنا عليه السلطان فكرهنا أن نمنعه أحداً». ومعلوم أن الإكراه جاء في زمن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ٩٩ ـ ١٠١هـ، بينما بدأ التدوين رسمياً سنة ١٤٣هـ بواسطة الإمام الصادق عليه السلام[١] في نظر الذهبي.

وبين رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله وتدوين كلامه زمن طويل جداً سمح للذاكرة المتعبة والوضاعين المأجورين من قبل معاوية بفعل الشيء الكثير، ويذكر هنا أن فضائل الإمام علي أبرزت بالصدفة وعلى يد ألد أعدائه (السيدة عائشة أم المؤمنين) عندما قتل أخاها عبد الرحمن ـ كما أسلفنا ـ وهومن أبرز شيعة الإمام. فاتخذت قرار محاربته بطريقته ذاتها ضد عليّ عليه السلام، وهكذا بدأت برواية ما تحفظه من أحاديث الرسول عن فضائل علي وهي تعلم أن ذلك يؤذي سلطة معاوية، في زمن أصدر فيه قراره بحجب تلك الأحاديث النبوية، ولم يكن له على السيدة سلطان إن في الإيجاب أو السلب: الترغيب أو الترهيب، ومعروف أنه لم يقبل وساطتها في الزاهد الصحابي الشهير حجر بن عدي قبل إعدامه[٢].

---

(١) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط٣ ١٩٨٨، ص٦٤.

(٢) مرتضى العسكري، م. س، ص٣٦٨.

في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد هذا النص[1] «روى الواقدي أن معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس إليه خطب فقال: أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال لي «إنك ستلي الخلافة من بعدي، فاختر الأرض المقدسة فإن فيها الأبدال وقد اخترتكم، فالعنوا أبا تراب (فلعنوه) فلما كان من الغد كتب كتاباً ثم جمعهم فقرأ عليهم وفيه هذا كتاب أمير المؤمنين معاوية صاحب وحي الله الذي بعث محمداً نبياً وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فاصطفى له من أهله وزيراً وكاتباً أميناً، فكان الوحي ينزل على محمد وأنا أكتبه وهو لا يعلم ما أكتب فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلقه، فقال له الحاضرون، صدقت يا أمير المؤمنين».

وكم من الروايات في كتب التاريخ عن أموال دفعت لهذا الصحابي أو ذاك لتزوير الحديث من قبل معاوية ويقولون إن حديث (الشام كنانتي من أرادها بسوء رماه الله بسهم منها) موضوع نصاً بطريقة لا لبس فيها، بل إن الأمثال الشعبية التي يتداولها الناس في بلاد الشام تبرز مدى ضراوة تلك الحرب المعلنة على الإمام لمحو تاريخه والتي شنت بطريقة ذكية فيها من العلمية والحداثة ما يدهش. مع تذكيرنا بالشتيمة المعروفة للإنسان المنحرف المؤذي توصيفه بـ(بابا حسن) أو أبو حسن، وهي تعني بالقطع الإمام عليه السلام ومتداولة حتى اليوم، ولا يعرف الشاتم مصدرها ودلالاتها، أدركنا مدى نجاح معاوية وأسرته في حربه تلك في ولايته الجغرافية على الأقل.

ولكن.. لقد أكدت تلك الحرب التي انتصر فيها معاوية وحكم وأسرته الدولة الإسلامية أقل بقليل من قرن من الزمن، صواب نظرة الإمام علي في المستقبل، وتوصيف المنصفين له بأنه (الاستراتيجي) رجل هذا المستقبل والعامل له، حينما قاد رجل الأسرة الأموية عشيرته باتجاه الإبادة والانقراض

---

(١) حجج النهج، م.س ص٣٨١.

نهائياً، فلم يعرف فيما بعد مصير أي من سلالتهم بما في ذلك أولئك الذين أسسوا دولة الإسلام في الأندلس، فلم نجد في المتوفر من كتب التاريخ من يفخر بانتسابه إليها، وإن عثر في المتقدمين على أحدهم (أبو الفرج الأصفهاني)[1] اكتشفنا أنه من الأنصار المتحمسين لمدرسة أهل بيت النبي، ويكفيه كتابه الأشهر مقاتل الطالبيين[2].

إنصافاً للإمام علي سلام الله عليه في صراعه مع معاوية أن يُذكر أنه بادأ الأخير بطلب البيعة وخيّر بين (حرب محلية وسلم مخزية) (الرسالة الثامنة) (فإن اختار السلم فخذ بيعته) ولم يتحدث عن عزله مبادراً، ولم يكن له أن يساومه على البقاء في منصبه مقابل التنازل له عن سلطة الدولة على ولاية الشام، فكان الإمام بين أمرين أحلاهما مر كما عبّر تماماً.

قدم إليه الإمام عرضاً بالبراز حسماً للقضية كلها (الرسالة ١٠) وحقناً لدماء المسلمين، وذكره بحقده القديم لأسباب مشاركة الإمام في معارك الإسلام وقتله أقرباءه، وقد ثبت من خلال رسائل الإمام أن معاوية ألحّ في طلب الشام ملكاً له (الخطبة ١٧) فرفض الإمام، وكان ذلك مدخلاً للبعض قديماً وحديثاً التشكيك في مرونة الإمام السياسية، ولكن الواقع يقر أن ما فعله علي كان صواباً باتفاق الغالبية العظمى من المؤرخين، فلم يكن معاويةٍ يرضى بأقل من (الملك). ولعلّ ما يوحيه التدقيق في بعض الرسائل في الجدل النظري بين الطرفين حول الأحقية في الخلافة (وهو ما يؤكد ما قلناه إن معاوية سعى لذلك) هذا النص الذي يهاجم فيه الإمام تأخر معاوية عن البيعة وأنه فعل ذلك كرهاً «وقلت إنني كنت أقاد كما يقاد الجمل المخشوش حتى أبايع،

---

(١) الأغاني ج١ (علي بن الحسين) أبو الفرج الأصفهاني. دار صعب، بيروت بلا تاريخ.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني علي بن الحسين ت ٣٥٦ هـ، مقاتل الطالبيين، دار المعرفة بيروت بلا تاريخ (المقدمة تاريخ حياته).

ولعمر الله لقد أردت أن تذم فمدحت وأن تفضح فافتضحت، وما على المسلم من غضاضة في أن [يكون مظلوما] ما لم يكن شاكاً في دينه ولا مرتاباً بيقينه.. وهذه حجتي إلى غيرك قصدها» (الرسالة ٢٨ من الإمام لمعاوية).

هذا الحوار السياسي العميق المثير للشجن والمرارة وصلنا منه القليل من كلام الإمام ولكنه يؤكد عمق الشرخ الذي لم يكن له أن يلتئم بين حق وباطل، حتى لو تنازل علي وأقر معاوية على الولاية. لقد اعترف علي بن أبي طالب بأنه كان مظلوماً ولا يزال.

بل إن الإمام يمضي أبعد من ذلك في المخاطبة عندما يذكّر معاوية بتقوى الله والعودة عن نهجه (الرسالة ٣٠) (ارجع إلى ما لا تعذر بجهالته)، لم يترك حجة لم يسطرها لمحاولة إقناعه بوحدة صف المسلمين وبراءته من دم عثمان، ولكن معاوية أصر على أن يسلم له الإمام (كل) من يتهم بالمشاركة في حصار منزل الخليفة الثالث ليعاقب، وكان يعلم أنه يطلب المستحيل، وأبعد ما يكون عن الواقعية ومنطوق الحكم الإسلامي (بالإجماع)، ولم يتراجع عن ذلك أبداً، إلاّ أن طلب التحكيم في معركة صفين برفع المصاحف على رؤوس الرماح عندما تبينت له نتيجة الحرب، وكان أن تمكن فعلاً من بعثرة جيش الإمام أمير المؤمنين وكسب الحرب.

هل كان أمام عليّ غير الذي سلكه بإلحاحه على محاولة الاقناع حقناً للدماء من خلال ما لدينا من وثائق في مراسلاته مع معاوية؟ فرغم علمه بعبثية ذلك، تابع سلوك الدرب الوعر. كان الإمام يتعامل مع أناس مسلمين، وكان حريصاً على كسبهم ومنعهم من الانحراف.. سلوك الداعية إلى الله وليس طالب السلطان، وظل بسلوكه ذاك رجل المستقبل، عندما أصبح كل مسلم يفخر بانتمائه إليه نسباً ويلقب (بالسيد) في حين لا يعرف اليوم أحد ممن ينتسب إلى معاوية في كل أصقاع الإسلام.

وربما كان من طرائف ما يصف به الإمام معاوية (الرسالة ٤٤) «إنما هو الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ليقتحم غفلته ويستلب غرته». والأطرف من ذلك توصيف الإمام الصادق في الكافي لعقل معاوية «بأنه الشيطنة وليس عقلاً ذاك» فالعقل في نهج مدرسة أهل البيت لا يقود إلا إلى الخير لأنه يقود إلى معرفة الله سبحانه.

## الإمام علي (أمير المؤمنين) والخوارج

لم يعرف في الخوارج أحد من صحابة النبي الذين ناصبوا الإمام العداء أمثال المغيرة بن شعبة وحريز بن عثمان ومروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك، والأشعث بن قيس الكندي وجرير بن عبد الله البجلي، وأبو مسعود الأنصاري، وعمران بن الحصين وغيرهم[١].

كان معظمهم من البدو المنتسبين إلى قبيلة تميم كبرى قبائل العرب يومها، وكانوا من أعبد الناس (كما وصفهم المؤرخون) وقاتلوا إلى جانب الإمام معاركه ضد خصومه حتى كان التحكيم.

وتذكر كتب التاريخ المشهورة تفاصيل أحداث صراع الإمام معهم ومحاوراته لهم وصبره عليهم، حتى أنه بعيد قتاله لهم في موقعة النهروان عام ٣٨هـ قال قولته الشهيرة: «لا تقاتلوا الخوارج من بعدي فمن طلب الحق فأخطأه ليس كمن طلب الباطل فأصابه»[٢].

للخوارج جاذبيتهم لدى شرائح من المسلمين ماضياً وحاضراً، ولكنهم رغم نتاج الشعر الرائع الذي قدمه مجموعة من قادتهم وكوادرهم (قطري بن

---

(١) حجج النهج م. س ص٣٧٦.

(٢) سير الأئمة م. س ج٢ ص٢٣٢. عن نهج البلاغة.

الفجاءة وغزالة الحرورية وغيرهما) يظلون الجناح الفوضوي من احزاب تلك المرحلة. أما اليوم وقد انتهوا إلى الانقراض حتى في دولتهم عمان، يجدر بنا التأكيد أنهم لم ينتجوا فكراً أو فلسفة تذكر، واتسم جهدهم الفكري بالسذاجة وسلوكهم العام بالوحشية والابتعاد عن درب انتاج أي فعل حضاري، فقد أباحوا قتل مخالفيهم وحتى نساءهم وأطفالهم إلا من تاب منهم بعد اقراره بالكثير، وتلك إحدى ثوابتهم التي أرادوا الإمام علي عليه السلام أن يقر بها بعد عملية التحكيم (أي أن يتوب) كي يناصروه بعد انشقاقهم عنه، ومعروف أن الإمام رفض بإصرار.

وصف الخوارج بالحرورية لأنهم اجتمعوا أول أمرهم بمكان يدعى حروراء، وهم القواد الذين كانوا مع الإمام علي في صفين (وقد اسودت جباههم من طول السجود) وتلخص عقيدتهم بتولي الشيخين (أبو بكر وعمر) والبراءة من الصهرين، فيتولون عثمان إلى حين وقوع الأحداث ويتولون علياً إلى حين وقوع التحكيم، واتسم جهدهم برمته بالسذاجة( وما يشبه اليوم جماعة التكفير والهجرة) ولولا حواراتهم مع الإمام وقتاله لهم لعبروا التاريخ الإسلامي دون أن يخلفوا فيه أثراً يذكر إلا بعض الشعر الجميل: يقول قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لا تراعي
فإنك إن طلبت بقاء يوم ... على الأجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع

وتنعش الذاكرة بيت من شعر غزالة الحرورية في رثاء أخيها حين تقول:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تحزن على ابن طريف

يذكر الطبري بعض أسماء منهم حاوروا الإمام مثل زرعة بن البرح الطائي وحرقوص بن زهير السعدي ممن قالوا له: (لا حكم إلا لله يا علي تب من

خطيئتك وارجع عن قضيتك واخرج بنا إلى عدونا).

فقال الإمام: قد أردتكم على ذلك فعصيتموني وقد كتبنا بيننا وبينهم كتاباً وشرطنا شروطاً وأعطينا عليها عهودنا ومواثيقنا وقد قال الله عز وجل وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً: فقال حرقوص: ذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه قال علي: ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأي وضعف من العقل وقد تقدمت إليهم فيما كان معه ونهيتكم عنه»[1].

هذه الفقرة النموذج تلخص الموقف برمته، ليعترف الإمام بأنه مغلوب على أمره لأول مرة في النصوص التاريخية، ويثار عجب المؤرخين المحدثين منهم على وجه الخصوص من إصرار الإمام على مأزقه ذاك بتمسكه بمواثيق يعلم أن عدوَّه لا يحترمها (معاوية) ودخوله في حوارات عقيمة مع قسم هام من جيشه يعلم أنها لن تؤدي إلى نتيجة تذكر (الخوارج).

هذا العجب الذي وجدناه عند مستشرق سوفيتي (بطروشوفسكي) استمر قائماً لدى كثيرين من العرب والمسلمين من دارسي سيرته، بما وسم ذاك الخلاف الدامي الذي مزّق جيشه بالغموض حتى اليوم.

تولى إمارتهم قبيل وقعة النهروان عام ٣٨هـ شبث بن ربعي وعلى الصلاة عبد الله بن الكوا ويذكر الطبري هنا أن (الشيعة) قالت لعلي: في أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت واعداء من عاديت فقالت لهم الخوارج: «استبقتم انتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسي رهان بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا وبايعتم علياً على أنكم أولياء من والى وأعداء من عادى» هذا النص ربما يلقي الضوء على أنه استخدام المؤرخ البارز لمفهوم الشيعة لتوصيف

---

(١) الطبري م. س أحداث ٣٨هـ.

أُولئك الذين يوافقون الإمام ولا يوجهون إليه النقد، يؤدي عبر قراءة جديدة إلى ترجيح أن جيش الإمام كان منقسماً حتى قبل التحكيم، وهو ما يذهب إليه كثير من المؤرخين المحدثين فمن خلال دراسة طبيعة الطرفين المتحاربين نجد جيش الإمام في حالة توازن هش لجيش لا يتمتع بأهم ما يجب أن يكون عليه جيش وهو الانضباط العسكري، بعكس الخصم، ومع ذلك كاد الإمام أن يحقق النصر بجهوده وجهود مالك بن الأشتر (قائده البارز الذي سندرسه في الفصل التالي) إلا أن قوانين النصر والهزيمة كانت تشير باتجاه معاوية للنصر، وظل الإمام كقائد عسكري بارع يراهن على أخطاء خصمه التكتيكية لتحقيق هزيمته بجيش كالذي يقوده.

ولكن ذاك لم يحدث أبداً.

لم يخض الإمام إلا صفين ( على ضفاف الفرات قرب مدينة الرقة) وبعد ذلك أصبحت المبادرة العسكرية لمعاوية، ذلك أن الخوارج بعد هزيمتهم في النهروان شنوا حرب عصابات (كما تقول كتب التاريخ) على جيش الإمام وتعاملوا معه بحقد ليس له مثيل، وظلت أخف تهمهم له الكفر، وكم كان ذلك يؤلم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في الصميم؛ أن يتهم بإيمانه، وهو من هو، وممن؟ من مجموعة من الرعاع خرجوا معه لمواجهة الباطل. لهذا أثر عن سلوك الإمام بعد ذلك أنّه كان يردد كلمته الشهيرة حول الموت: «متى ينبعث أشقاها فيخضب لحيتي هذه».

في هذا السياق برز اسم عبد الله بن عباس رحمه الله كمحاور للخوارج، وبرز اسم آخر هو أبو موسى الأشعري موفد الإمام للتحكيم مع معاوية وعمرو بن العاص، ولعل رجلين بارزين كهذين يمكن أن يؤخذ بسلوكهما مثالاً على طبيعة تركيب جيش الإمام وأسباب هزيمته معاً.

فالأول وهو ابن عم ونصير متحمس ووالٍ للبصرة من قبله والمحاور

بالعقل لخصوم الإمام تخلى عنه أخيراً، وقيل لأسباب مادية[1]، واعتزل في المدينة المنوّرة، وأصبح يتلقى عطايا معاوية وإن بقي في حواراته مع حق الإمام في الخلافة بلا منازع. أما الثاني فقد أنكر الإمام عند أول لعبة من الداهية ابن العاص وقام بخلع إمامه من الخلافة قبل أن يتأكد من فعل خصمه باتفاقهما فذهب مثلاً على السذاجة وضعف الولاء للإمام معاً وأكدا معاً طبيعة الحشد المحيط بالإمام علي عليه السلام.

لقد أجاب الإمام عن كثير من الأسئلة التي تطرح حول جدلية حروبه الأهلية (وقد أشرنا إلى ذلك) ولهذا يمكن التأكيد أنه ظل يعلم بالنتائج النهائية للصراع، فعمل من أجل الإسلام والمستقبل وحدهما.

ولعلّ ذاك الكم من التراث الفكري الذي خلفه لنا في تلك المرحلة الدامية، والموجود بعضه أو ربما أقله في نهج البلاغة، لخير دليل على ذلك. لقد كان تراث الإمام في خطبه ورسائله يدور في فضاء مرحلة الصراع وليس قبلها بما في ذلك وصاياه المذهلة وحكمه وعرفانه، هي مرحلة غنية بما لا يقاس، وجاءت حواراته مع الخوارج تحديداً، وليس معاوية، لتبرز ما يتمتع به من صبر ودأب لإبراز الجانب الاستراتيجي في شخصيته، طاغياً على الجانب التكتيكي المناور المرن، مقدماً في هذا الصراع تحديداً إيمانه المطلق بالإنسان في إنسانيته وسعيه لكسب المسلم وإبراز الأيديولوجيا على مصلحته الشخصية كأمير المؤمنين ووصي لرسول الله، فتمسك بصبره ليظل منصفاً لرجاله وخصومه على حد سواء. لهذا فعندما نقرأ اليوم وثائق تلك المرحلة لا نملك إلا الانحياز له مثالاً للحق، وإن خامر النفوس (وباجماع) بعض النقد

---

(١) بقي خلاف ابن عباس والإمام غامض الأسباب، ففيما يؤكد السيد محسن الأمين الأسباب المادية (استيلاء ابن عباس على خراج البصرة) ينقل دفاع اطراف كثيرة من مدرسة أهل البيت عن ابن عباس، وينفون وقوع الخلاف أصلاً، بينما تؤكده مراجع كثيرة كالعقد الفريد على سبيل المثال وغيره.

وبعض تشتت الفهم لطبيعة الرجل المؤمن العرفاني في سدّة الإمارة.

إن من أبرز الدلائل على طبيعة الخوارج، وخطورة نهجهم بسبب فوضويتهم وضعف الفهم الإسلامي الصحيح في نفوسهم هو إقدام شريحة منهم على التخطيط لحل مشاكل الدولة الإسلامية بمجرد اغتيال رموز الصراع فيها. علي، معاوية، عمرو بن العاص. والحقيقة أن أحداً لا يعلم لماذا وضعوا ابن العاص بين من يجب قتلهم. اجتمع ثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو التميمي السعدي، وقرروا قتل (أئمة الضلال) كما عبروا عن هدفهم[1] ويعتبر المؤرخون أن أسهل أهدافهم كان الإمام، فلم يكن يأبه بالحراسة كما يفعل الرؤساء والملوك، وظل يردد: كفى بالأجل حارساً (ح٢٩٨).

وبما أن قتل رجل كعلي بقوته العظيمة من قبل من هو أدنى منه قوّة أمر بالغ الصعوبة، لهذا تم نصب كمين له عند صلاة الفجر[2] ورشحت أنصال السيوف بالسم، وأراد حجر بن عدي وقد سمع التهامس من أفراد الكمين الخروج لإعلام أمير المؤمنين فلم يصل إليه، ودخل الإمام المسجد للصلاة وهو يصيح وينادي: الصلاة الصلاة، ويقول عبد الله بن محمد الأزدي وهو شاهد عيان، فما أدري أنادي أم رأيت بريق السيوف وقائلاً يقول: الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك، وسمعت علياً يقول لا يفوتنكم الرجل، وهكذا اعتقل ابن ملجم بعد أن تمكن من إصابة الإمام في رأسه، وخضب الدم لحيته، تماماً كما تنبأ قبل ذلك.

استمر الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه يومين من الزمن بعد

---

(١) حفلت كتب التاريخ بتفاصيل هذا الحدث: راجع الطبري أحداث ٤٠هـ، وسير الأئمة ص٢٥٦، ج٢.

(٢) نفس المصدر السابق.

الضربة، وتمكن من املاء وصيته، وظل منصفاً حتى الرمق الأخير عندما قال في قاتله: النفس بالنفس، فإن هلكت فاقتلوه كما قتلني وإن بقيت رأيت رأيي فيه، يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون في دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين، ألا لا يقتلن إلا قاتلي، انظر يا حسن إذا أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلن بالرجل فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور.. ثم قال للحسن: أبصروا ضاربي أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي..

ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى توفي عليه السلام عن عمر يناهز الثلاثة والستين عاماً، ودفن في قبر مجهول بوصية منه، حتى لا ينبشه (الأمويون) أو الخوارج، وكان الإمام يعلم بالقطع لمن ستكون الغلبة على مدينته (الكوفة) التي رحل إلى الله فيها، (طعن في ١٩ أو ١٧ رمضان وتوفي في ١٩ أو ٢١ منه) سلام الله عليه.

ويقول الفرزدق:

فلا مهر أغلا من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك بن ملجم

فلم يكن ممكناً قتل الإمام في ساحة المعركة باطلاق.

وتذكر كتب التاريخ أن المخطط المعد نجح فقط في إزاحة الإمام من وجه أعدائه الكثر، وفي زمن اتجهت فيه الناس إلى الدنيا، وعاد الدين غريباً كما بدأ، وانتهى زمن الثوابت الإسلامية ليبدأ عصر صعود حضاري وضع أسسه الإمام عليه السلام بالقطع، فلم يختلف الناس حول الرسول، ولكنهم اختلفوا في علي، وكان لا بد أن ينقسم الناس ويزدهر العلم بهذا الانقسام، فلكل شيء جانبه، الإيجابي والسلبي، فهناك الكثير ممن يذكرهم التاريخ فقط لأنهم عاشوا في زمنه هو أو خاصموه أو حالفوه، أما قاتله (عبد الرحمن بن ملجم) فقد دخل التاريخ، وقبل ذلك لم يكن شيئاً يذكر.. وتلك سنة الكون.

عاش سلام الله عليه في غربة بين قومه، ومات غريباً ودفن في أرض غريبة في قبر مجهول زمناً مديداً.. وذلك قدر أهل بيت رسول الله ﷺ. ولن ننسى قول الرسول عندما استشهد عمه حمزة في معركة أحد فلم يجد من يبكي عليه فقال: «وأما حمزة فلا بواكي له»(*).

(*) للمصادفة الغريبة.. تمت كتابة هذا الفصل في ليلة رحيله ٢١ رمضان ١٤٢٠ ـ ١٨ كانون أول ٢٠٠٠ سلام الله عليه.

# الفصل الثاني

# الإمام علي عليه السلام

# والعرفان

# الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والعرفان

## تمهيد

من بين جميع الرجال الذين أحاطوا برسول الله صلى الله عليه وآله لم يؤثر عن أي منهم الولوج إلى عالم الإلهيات والعرفان إلاّ علي. كان يقول عن العلم والعلماء قولته الشهيرة[1]:

[هلك خُزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، ها إن ههنا لعلماً جماً (وأشار إلى صدره)]، وعرف عنه دوماً تكرار مقولته: «سلوني قبل أن تفقدوني» أو قوله «فتح لي رسول الله صلى الله عليه وآله من العلم ألف باب».

هذا التقديس لشأن العلم (وما ورد على لسان الإمام حول التوحيد وما يرتبط به تحديداً) أثار حول الإمام شكوكاً من قبل الباحثين المعاصرين بأن ما ورد في نهج البلاغة من أقوال سبقت زمن علم الكلام المعروف، وهو أبرز علوم الحضارة الإسلامية، بدءاً من منتصف القرن الثاني الهجري، زمن الإمام الصادق عليه السلام.

والمرجح أن الحرب المعلنة على الإمام وتراثه من خلال النظام القائم

---

(١) نهج البلاغة الحكمة ٧٥، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

بعيد اغتياله عليه السلام عام ٤٠هـ امتد زمناً مديداً حتى القرن الرابع الهجري زمن جمع صحيح الكافي للكليني ت ٣٢٩هـ، أو نهج البلاغة من قبل الشريف (محمد بن الحسين الموسوي) ت ٤٠٦هـ، وتلك قرون تؤدي برأيهم لضياع التراث أو تشوش النصوص وتداخلها مع الموضوع من قبل آخرين، كيف لا وهي متلازمة مع تلك الحرب التي أدت فيما أدت إليه إلى اخفاء قبره قرناً من الزمن حتى كشف عنه الصادق عليه السلام عام ١٤٠هـ.

لكن نظرة منصفة إلى واقع أهل بيت النبي بعيد رحيل الإمام، وما أبرزته النصوص التاريخية المعتمدة من قبل الجميع تثبت أن الأئمة حافظوا على تراث أبيهم، فلم تنقطع سلسلة التوارث حتى اختفاء الإمام المهدي(عج) في منتصف القرن الرابع الهجري وآخر سفرائه علي بن محمد السمري الذي توفي عام ٣٢٩ كما يذكر ابن الأثير[١] حول وفاة الكليني.

ولعلّ من الدلائل البارزة على حفظ الأئمة لتراث جدهم ما أورده ابن سعد في كتاب طبقات الصحابة[٢] في معرض النقد للإمام الصادق «كان جعفر بن محمد كثير الحديث ولا يحتج به ويستضعف. سئل مرة، سمعت هذه الأحاديث من أبيك؟ فقال نعم، وسئل مرة فقال إنما وجدتها في كتبه».

وما يهم الباحث في نص كهذا هو الجملة الأخيرة، فقد حفظت تلك الكتب لدى الإمام الصادق وهو السادس في الترتيب وتوفي عام ١٤٨هـ.

انتقاد الإمام بسبب أخذه العلم النبوي من الكتب يثير جدلية التدوين برمتها في الحضارة الإسلامية، ذلك أن الإمام علي عليه السلام تحدى أوامر الخلافة

---

(١) ابن الأثير، الكامل ج٨ ص١٢٨ في حوادث سنة ٣٢١هـ.

(٢) زهير غزاوي، الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بين الحقيقة والنفي، دمشق ١٩٩٨، ص٢٢.

بمنع تدوين الحديث النبوي، وقام هو وفاطمة الزهراءعليها السلام بتدوين الكثير مما سمعاه من النبيصلى الله عليه وآله حتى أنّه كان يعلق احدى المدوّنات في قراب سيفه (إعلاناً للتحدي) وسميت صحيفة الديات[1] نقل منها البخاري كما ذكر في صحيحه. أما صحيفة فاطمة فمشهورة وسميت مصحف فاطمة[2] وهي عبارة عن مجموعة من أحاديث رسول اللهصلى الله عليه وآله، أكد الإمام الصادق وجودها لديه في حديثه مع جابر الأنصاري حولها[3].

وبما أنه ليست من مهمة هذا البحث الدفاع عن وثاقة ما أوردته الوثائق التاريخية حول ما وصل إلينا من أقوال الإمام، فإن ما يجدر بنا تأكيده أن التعامل مع تلك النصوص يجب أن يوضع في نفس السوية التي يتم التعامل بها مع أمهات كتب التاريخ الإسلامي المعتمدة، بما في ذلك تلك الكتب الشهيرة للحديث النبوي التي اتفق المسلمون على وثاقتها، مع استمرارية أعمال العقل (حتى اليوم) ببعض ما ورد فيها منسوباً إلى رسول الله، وفي سياق ذلك، يوضع نهج البلاغة، والكافي، للتعامل معها سواءً بسواء كغيرهما من الوثائق التي عالجت التراث الإسلامي والسنة النبوية، فليس من الإنصاف للحقيقة أن يقتصر الاتهام بالتحيز وتحريف النصوص على أتباع مدرسة أهل البيت كما درج بعض الباحثين على التصرف، فليس من نص مهما كان قدمه أو وثاقة صاحبه فوق النقد والعقل، ويجب أن يوضع الجميع على ذات الأرضية بما في ذلك تحميل أولئك الذين منعوا التدوين في صدر الإسلام المسؤولية الكاملة على ما لحق بتلك المرحلة التاريخية من تشويش حتى بدء التدوين للحديث النبوي عام ٩٩هـ بأوامر من الخليفة الأموي عمر

---

(١) صحيح البخاري: الجامع الصحيح، ج١، ص٤٠.

(٢) محمد بن جرير الطبري، دلائل الإمامة.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج١، دار الكتب الإسلامية، طهران، المقدمة، وص٥٢٧.

بن عبد العزيز رحمه الله، أم تدوين مختلف العلوم بعامة عام ١٤٣هـ كما يقول الذهبي[١].

(نهج البلاغة) وهو ما يمكن اعتباره: الأعمال شبه الكاملة أو المختارات للإمام علي بن أبي طالب ثم ما ورد مرفوعاً إليه في صحيح الكافي، يرقى إلى مرتبة الوثاقة، ليس استناداً إلى مقاييس البحث التاريخي المعتمدة في أمهات الكتب المشهورة وحسب بل لأن للإمام أسلوباً في صياغة كلامه أجمع المؤرخون على تفرده فيه، ووصّفوه بالبلاغة[*]، لهذا يسهل توثيق مرجعية ما نسب إليه أنها صادرة منه بمقاييس حديثة في المدرسة النبوية في الأدب ودراسة مجتمع النص. فإذا كانت أحاديث رسول الله ﷺ المعتمدة في الصحاح يخضع كثير منها لصياغة جديدة من الراوي (أي رواية الحديث بمعناه وليس بنصه الأصلي تبعاً لقوة ذاكرة الراوي) فإن كلام الإمام لا يمكن أن يؤخذ إلا بالنص الذي صدر من قائله مباشرة، فلا يتساوى الراوي والإمام في البلاغة مهما كانت مقدرة الأول في اللغة العربية. إن روحية نصوص (النهج) والأحاديث تؤشر بالمطلق إلى المصدر، وإلا لأمكن للباحثين حديثاً اكتشاف الاختلاف في بنية النص، تماماً كما يقال عن البحث عن صحة نسبة أي نص أدبي إلى كاتبه، والدراسات في هذا الموضوع متعددة ولها باحثوها ومدارسها المتخصصة.

وعلى هذه القاعدة تبنى جدلية ما نسب إلى الإمام من أحاديث في الإلهيات، والتي اعتبرت المصدر الوحيد لعلم الكلام الإسلامي برمته، أما لماذا هو وحده وبإجماع، فتلك مسألة تتعلق باتفاق الجميع على أنّه المرجع

---

(١) راجع كتابنا الإمام جعفر الصادق، م. س، بحث نضج عصر التدوين في الحضارة الإسلامية ص١٥.

(*) وقد سبق إلى ذلك ابن أبي الحديد في شرح النهج عندما تحدث عن تطابق بنية النصوص لتأكيد مرجعيتها إلى الإمام.

الوحيد، والمعلم وحامل علم رسول الله بالمطلق، فلم ينافسه أحد من الصحابة في هذه المرجعية، أما الآخرون الذين أصبحوا مرجعيات في الحديث أو تفسير القرآن أو اللغة العربية، كابن عباس، وأبو الأسود الدؤلي (علم النحو) وغيرهما فهم تلاميذه وبالاجماع التاريخي.

تروي مدرسة الاعتزال الحديث التالي للإمام عليه السلام تدليلاً على ريادته في علم الكلام وعقلنة الأصول الإسلامية، في مسألة شائكة كالقضاء والقدر[1]، وهذا النص موجود أيضاً في نهج البلاغة، الحكمة ٧٥:

[سأله جندي من الشام: أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر؟ فأجاب:

ويحك لعلك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً، ولو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً. ولم يُعصَ مغلوباً ولم يُطَع مكرِهاً، ولم يُرسل الأنبياء لعباً ولم ينزل الكتب للعباد عبثاً، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾].

الإمام عليه السلام يقدم إجابة كهذه، أثارت البحث العلمي في الإلهيات وأسست مدرسة شهيرة (الاعتزال باعتراف أساطينها)، في ثقة بالنفس والعلم لم يجرؤ عليها أحد في زمانه، ومثل ذلك كان المؤسس لمدرسة الزهد والتصوف والعرفان والنحو العربي، والحكمة، وربما الطب والكيمياء بسبب ظهور مرجعيتها لأحد أحفاده (الإمام الصادق باعتراف مؤسس الكيمياء العربية

---

(١) القاضي عبد الجبار الهمذاني، طبقات المعتزلة، تحقيق علي سامي النشار، دار المطبوعات الجامعية، القاهرة ١٩٧٧ ص٧.

جابر بن حيان)[1]. كان الإمام رائد الإجابات الصعبة والذي عرف عنه التحرش بمريديه والمسلمين طالباً إليهم سؤاله قبل أن يفقدوه.

## نظرية الخلق

تحدث الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام عن هذه النظرية في أول خطبة في نهج البلاغة، وقد أثبت العلم الحديث صوابية كلامه بشكل مدهش، ولأن تصنيف أحاديثه لم يتم حسب تواريخ حدوثها فقد ظل الزمن مجهولاً لانبعاث أول نظرية إسلامية في علم الفلك أو بداية خلق الكون ثم الأرض التي نعيش عليها، وهي التي تحتضن الكائن العاقل المبدع (الإنسان) الذي أحبه الخالق سبحانه وفضّله على كل ما خلق تفضيلاً.

لا يعرف حتى الآن كيف تلقى المسلمون كلاماً كهذا مشتقاً من القرآن والسنة النبوية بكل تأكيد، علماً أن تلك النظرية بدقتها المذهلة لم تكن معروفة أو متداولة في زمن الترجمة عن الحضارات المجاورة: هندية، فارسية، يونانية أيام الرشيد والمأمون، ولا في زمن جامع النهج أواخر القرن الرابع الهجري، فلم يكشف عن نظرية متكاملة حول خلق العالم في العصور الحديثة.

الخطبة الأولى في نهج البلاغة جمعت أو لخصت الخطوط العريضة لعرفان الإمام لهذا يمكن اعتبارها من أهم نصوص هذا الكتاب.

يقول الإمام: ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره، متراكماً زخّاره، حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده، وقرنها إلى حدّه، الهواء من تحتها فهيق، والماء من فوقها دفيق ثم أنشأ سبحانه ريحاً

---

(١) محمد يحيى الهاشمي، الإمام الصادق ملهم الكيمياء، دار الأصول، بيروت ١٩٨٤.

اعتقم مَهبَّها، وأدام مُرَبِّها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار.

فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أولّه إلى آخره وساجيه إلى مائره حتى عبّ عبابه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق فسوى منه سبع سماوات، جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً، وعلياهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً بغير عمد يدعمها ولا دسار ينتظمها، ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجاً مستطيراً وقمراً منيراً في فلك دائر وسقف سائر ورقيم مائر»[1].

في مسألة (الفتق) يقول الله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ هي باختصار تتوافق مع أحدث النظريات عن نشوء الكون والتي سميت بنظرية الانفجار الكبير أو (Big bang) للعالم الشهير ادوين هبل، وخلاصتها أن هذا الكون الذي نشاهده وتحديداً الأفلاك الهائلة الانتشار، كان مجرد ذرة شديدة الكثافة

---

(١) التفسير اللغوي لكلمات النص: السكائك: جمع سكاكة وهي اعلى الفضاء، الهواء الملاقي عنان السماء وطبقات الجو والفراغ اللانهائي. متن كل شيء: ما صلب منه واشتد. الزعزع: الريح التي تحرك الأشياء بقوة. القاصفة: المحطمة.

تفسير جملة فأمرها برده حتى حدّه، تعني انه منحها بعد خلق الأرض جاذبية تمكنها من شد الماء إليها بحيث لا يسقط منه شيء.

الفتق: المفتون المنبسط. الاعتقام: الشد والعقد. الريح العقيمة: التي لا تؤدي إلى مطر أو تلقيح للنبات. المرب: الجمع والمكان والمحل وأرب المكان: لازمه. البحر: الماء المتسع الغمر، وخصص بالعرف للمالح. السقاء: وعاء الماء أو اللبن. الساجي: الساكن. العباب: معظم الماء وأعلاه وعبّ: علا وتدفق. ركامه: ما تراكم منه. المنفهق: المفتوح الواسع.

التسوية: التعديل. المكفوف: من السيلان الجامد. السقف: اسم للسماء. العمود: عمد البيت. يدعمها يسندها. الدسار: جمعها دسر، وهو كل شيء أدخلته في شيء لشده كمسمار أو حبل. التصفيق التحريك والقلب. الرقيم: من اسماء الفلك والسماء. المائر: المتحرك.

فانفجرت وتبعثرت، كان وحدة فتمزقت. هذه النظرية الأحدث والتي تبدو لدى المختصين أكثرها مصداقية وأقربها لإمكانية تفسير هذا التناثر الهائل للكواكب بنظام يبدو جلياً للعيان والحسابات الفلكية، تتطابق بالتحليل مع النظرية القرآنية، ولكن الإمام قام بتحليل مدهش لقضية نشوء الماء على وجه الأرض التي نعيش عليها، رغم أنه أضاف إلى ذلك تعليلاً آخر لظهور السماوات بقدرة الله، ولكننا سنكتفي هنا بمسألة التطابق بين كلام الإمام ومسألة نشوء الحياة على أرضنا.

كيف أمكن للماء والحياة الإنسانية أن يبزغا في ذلك الجو الذي عبر عنه الإمام بتلك الصور الشعرية البلاغية التي قل نظيرها، وهي ما لا يستطيع نص أدبي أن يعبر عنه كالذي أوردناه آنفاً في خطبة الإمام؟

نشوء الكون مجرد فرضيات علمية يحتل القياس العلمي الحديث في علم الفلك مجرد محاولات لقياس الشاهد على الغائب عبر تقديم يقين رياضي لا يستطيع فك مغاليقه إلا المختصون، علماً أن هذا العلم يعتبر من أصعب العلوم القديمة الحديثة، ولأنه العلم الذي تبنى عليه كل الأبحاث الفضائية وأحوال النجوم القريبة والبعيدة، ولأنه قدّم انجازات ضخمة فقد استحق كل التقدير العلمي وتم من خلاله منح المصداقية لنظرية الانفجار الأعظم الآنفة الذكر.

في النص السابق استخدم الإمام مفردات بالغة التوتر ذات شحنة لغوية رائعة لتصوير حدث كالانفجار (الفتق ـ الشق، التلاطم، المتراكم، الريح العاصفة، الزعزع القاصفة، ريح اعتقم مهبها، أعصف مجراها، تصفيق الماء الزخّار.. الخ..).

الإمام سلام الله عليه يقدم صورة بلاغية معجزة لمجريات الغيب المفرط في القدم قبل مئات الملايين من السنين عن خلق العالم. أما العلم الحديث

فيعالج الموضوع بمفردات باردة على الشكل التالي:

«بدأ الزمن بالانفجار الأعظم وقبل ذلك لا زمن»[1] والواقع أن قياس بدء الزمن الإنساني المحسوب لدينا بنشوء الكون وحسب جعل من قضية الزمن ذاتها إحدى القضايا الفلسفية الإلهية المؤرقة، وهو ما عالجه علماء الكلام المسلمون وأئمة أهل البيت بتفاصيل سيجري التطرق إليها لاحقاً، أما العلم فقد اكتفى بتحديد بدء التوقيت هكذا. كل شيء كان خارج الزمن، كان العالم متناهياً في الصغر وكانت كثافته لا متناهية في الضخامة حتى حدث الانفجار. قدم هبل نظريته عام ١٩٢٩ عندما لاحظ أن أطراف المجرات تتباعد بطريقة (حركية) مستمرة عن بعضها في حالة من الهروب كأنما نتجت عن انفجار طرد الأجزاء بعيداً في (حركة) تباعد دائم حتى تتلاشى عندما يشاء الله. هذا الاستخلاص المبني على الملاحظة المحضة لتفسير نشوء الكون اعتبر الأكثر مصداقية بين الكثير من الفرضيات الأخرى، وقد ذكرت إحداها قصة كوكب ضخم مر بجانب كتلة كانت تضم مجموعتنا الشمسية فتفتت بفعل الجاذبية (أو انفتقت)، وهو أمر يختص بالشمس والكواكب التي تدور حولها ولا يناقض نظرية (هبل)، ولكن الكون الذي يحتوي من المجموعات الشمسية ما لا يحصره حساب جاء نشوؤه بالحسابات الرياضية الفلكية أقرب إلى الانفجار الأعظم وهو ما اعتمد في عصرنا.

هذا الكون يحكمه نظام ملموس داخلياً ضمن المجرات وخارجياً بين المجرات بعضها بعضاً، ويعتقد الفلكيون أن تطور الكون جاء بشكل اختياري (أراده الله) وفق قوانين يسعون لاكتشافها، منها قانونا الجذب والطرد، ويعتقدون أنه ما دام النظام ملموساً في إطار الزمن الإنساني فلا بد أنه كان

---

(١) ستيفين هوكنغ، موجز تاريخ الزمن من الانفجار الأعظم إلى الثقوب السوداء، ترجمة أدهم اسمان، دار طلاس دمشق ١٩٩٠ ص٢.

كذلك قبل الزمن، وقد حاول الفلاسفة التوفيقيون الذين يدعمون نظرية التطور المادي والروحي معاً إلصاق النظام بطبيعة الأشياء ذاتها «إن كل شيء في الكون يصنع نظامه الخاص»[١] حتى يبتعدوا عن اعتماد مشيئة الله سبحانه وإرادته في نظام الأشياء في الخلق، ولكن مفهوم (المطلق) في الكون والرياضيات والأحياء يفرض اعتماد فكرة (الله) على الجميع، وهي حاصرت حتى الماديين المفرطين في التطرف الذين لم يجدوا تفسيراً لما يجري إلا من خلالها.

ماذا كان قبل الزمن؟ لا أحد يعلم على وجه التحديد ولكن كيف تطور هذا الكون؟ يستنتج العلماء أن السخونة الهائلة الناتجة عن الانفجار تناقصت تدريجياً خلال السنين إلى مليار درجة مئوية بسبب التوسع، عندئذ لم تعد البروتونات والنيوترونات التي تعد البنية الأساسية لكل مادة، تمتلك من الطاقة ما يكفي للإفلات من قوى التجاذب النووية الشديدة الفعل فبدأت الالتحام معاً لتشكل نوى ذرات الهيدروجين الثقيل (الروتيريوم) فتحول إلى مادة (الهليوم) ذات البروتونين والنيوترونين، وهو أمر يؤكده علم الكيمياء[٢].

هذا الكون الهائل في أجواء كهذه ظل بعيداً عن إمكانية نشوء الحياة في أبسط تشكلاتها (الخلية) فهي تحتاج إلى الأكسجين، فكيف نشأ هذا الغاز اللطيف سر الحياة،؟.

يقولون إن أشكال حياة بدائية نشأت بالفعل دون الاعتماد على الأكسجين، هذه الاشكال (حسب الفرضية) كانت تستهلك مواد شتى بما في ذلك كبريت الهيدروجين، ويؤدي ذلك إلى إنتاج الأكسيجين (هذا على وجه أرضنا التي بدأت في البرودة والتشكل)، وقد أدى ذلك إلى تعديل متواصل

---

(١) هنري برغسون ، الطاقة الروحية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، دمشق ١٩٦٠ ص٢٥.

(٢) موجز تاريخ الزمن، مرجع سابق ص٦.

في بنية الأجواء حول الأرض حتى وصلت إلى التركيب الحالي: أكسجين آزوت بنسب تساعد على بروز الحياة الإنسانية.

وكما رأينا فإن خطاب الإمام عليه السلام لا ينكر مطلقاً هذا التطور في تكوّن الأرض، بل يؤكده وهو ما يدهش في زمن لم تكن هذه الافكار مطروحة على الاطلاق، وإن برز بعض منها بشكل غامض في العلوم اليونانية قبل الميلاد، ولم تكن متوفرة على أية حال، لا في زمن الإمام، ولا في القرن الرابع الهجري بإطلاق.

ومع ذلك وبإجماع علماء الفيزياء النووية على حتمية هذا التطور خلق نظام محدد أدى إلى بروز الكائنات الحية المعروفة لدينا، وقد استهلك ذلك زمناً مقداره عشرة مليارات سنة حولت في أثنائها النجوم جزءاً من هيدروجينها وهليومها الأصليين إلى عناصر كالفحم والأكسجين، وهما العنصران الأساسيان في تركيب الأجسام الإنسانية. هذه النجوم ثابرت على الانفجار على شكل (مستعرات) فائقة الضخامة تكونت من شظاياها نجوم وكواكب أخرى منها كواكب مجموعتنا الشمسية التي عمرها خمسة مليارات عام، وهو ما يوافق الفرضية الثانية.

هذه الأرض الجميلة التي أصبحت حضناً للإنسان نشأت إذن من الأجواء الملتهبة المتبردة بالتدريج والعاصفة والمتفجرة، لتأتي بعد ذلك فرضية نشوء الماء الذي جعل الله سبحانه منه كل شيء حي. يقول العلماء كان [الهواء والبحر] مختلطان تماماً من ناحية أصل النشوء[1]. وهناك في أجواء الأرض حولها كان البحر وامواجه الهائلة. وكانت تيارات الحمل الهوائية عنيفة في تلك الأجواء بسبب عدم وجود النباتات على سطح الأرض والتي كان من

---

(١) نفس المرجع، الصفحات ٢٥، ١٢٣، ١٢٩.

شأنها أن تعمل على تثبيت درجات الحرارة وحركة الرياح على المسطحات البرية. . وكم كان وصف الإمام علي بن أبي طالب لتلك الحالة مبدعاً ودقيقاً، عندما تحدث عن الريح العاصفة والزعزع القاصفة، ويقول العلماء: كانت العواصف الرعدية النشطة في أوجها في ذلك الزمن من التطور، وجاء البرق المتكون من شرارات هائلة من الكهرباء يعمل على تركيب الأحماض الأمينية والمواد الأخرى التي يتشكل منها وجه الأرض، وتم ذلك قبل هبوط البحر من الأجواء نحو الأرض، حيث لم يعد الهواء قادراً على حمله فملأ الأرض وشكل أربعة أخماس مساحتها[1]، ولم يكن الإنسان قد ظهر بعد.

ولكن كيف أمكن حل جدلية حفاظ الأرض على غازاتها الضرورية للحياة في اجواء العواصف التي يمكن أن تبعثرها والمياه المحيطة بالأرض بعيداً في أعماق الفضاء بفعل الطرد المركزي؟

لم تقدم النظريات العلمية جواباً مقنعاً ولكن الإمام علي عليه السلام فعل، يقول: «حمله على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة فأمرها برده وسلطها على شده وقرنها إلى حد» وتلك هي ما اصطلح على تسميته بنظرية الجاذبية الأرضية التي اكتشفها اسحق نيوتن حديثاً. أما الإمام فقد ربطها بالنظام الذي وضعه الله سبحانه لكون لا يمكن أن يتشكل إلا تحت ظلال نظام شامل مرتبط بإرادة الخلق وابداع تصميمه في إطار قوانين مادية علمية محضة.

وهكذا احتفظت الأرض ببحرها حولها ومنعت تبعثره بفعل تيارات العواصف، ذلك أن تلك التيارات خلقت بذاتها توازناً يسمح ببقائها حتى يأتي أوان تبرد القشرة الأرضية وتكوّن القنوات المائية الرئيسية على وديان القشرة الباردة ثم يندلح إلى البحار والمحيطات. وأخيراً تدخلت الأشعة البنفسجية

---

(١) جوزف هارلدسون، فخر الحياة، ترجمة عبد الحليم منصور وآخرون، دار عيسى البابي الحلبي، القاهرة، صفحات: ٩٦ ـ ١١٠ ـ ٣٨١.

المتعاظمة الشدة من الشمس لتخلل الغلاف الجوي وتقوم بتحطيم المكونات الأولية لهذا الغلاف إلى، كربون وهيدروجين، وأكسجين ونتروجين وغازات أخرى منها الأوزون الشهير.

يؤكد الإمام في كلامه إذن على الماء ووجوده في الأجواء فرسم الصورة المبهرة: «فمخضته مخض السقاء وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوّله إلى آخره وساجيه إلى مائره حتى عب عبابه ورمى بالزبد ركامه فرفعه في هواء منفتق وجو منفهق الخ...».

ولم يخالف العلماء هذا الكلام في فرضياتهم الحديثة حين يقولون: «كان الماء في الأجواء المحيطة بالأرض متكثفاً بشكل بلورات ثلجية في معظم أنحاء المجموعة الشمسية[1]، هذا البحر الثلجي يرمي بالزبد الأبيض ويمور موراناً (في الهواء المنفتق والجو المنفهق) وصولاً إلى تكوين السماوات السبع التي جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياهن سقفاً محفوظاً ثم زينها بزينة الكواكب وضياء الثواقب» وهي بالتأكيد ما قصده الإمام في مجرتنا المشاهدة بالعين المجردة وصولاً إلى ما يطلق عليه درب التبانة.

الإمام يتحدث عن سمائنا، ولا يتجاوز ذلك إلى الكون المتناثر برمته عندما يتطرق إلى السماوات السبع، وقد اتفق المفسرون للقرآن[2]، (المحدثون منهم) على أن السماء التي قصدها سبحانه بالتكوين هي ما علانا وما نشاهد، أي المجموعة الشمسية المعروفة، أما المطلق فقد عرفه الإمام بكل تأكيد ولا يمكن أن تكون السماوات السبع محدودة في كلامه بهذا المحدود المشاهد فالله سبحانه لا يمكن أن يجد أو يعد كما جاء في ذات الخطبة.

---

(١) جوفان دورشستر، الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد، ترجمة عيسى عيسى الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١ ص٦٦.

(٢) الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع ج١ ص٢٢٥.

اللافت للنظر هنا هو عبارة (جعل سفلاهم موجاً مكفوفاً) ويفسر المكفوف بأنه (السيلان الجامد) ولا يمكن أن يكون ذاك متطابقاً إلا مع حركة الجليد في جو الأرض عند تشكلها بالتطور التدريجي كما أشار الإمام، أما عبارة السقف المحفوظ وهو ما يرتبط بالسماء العليا فقد اكتفى الإمام بالإشارة إلى وجود الملائكة فيها بأنواع الملائكة كما وصفها في ذات النص، وقد اعتبرهم خدماً للذات الإلهية في كل المهمات الموكلة إليهم، والإمام في كل ذلك يقدم صورة مذهلة لهذا الجو السماوي الغامض البعيد عن إدراكنا وعن العلم الوضعي معاً، مما هو خارج عن موضوعنا.

## خلق الإنسان

اكتملت إذن صورة عالمنا الحي المشاهد في تطور خلقه عبر السنين، وتمكن الماء من احتضان الحياة ورعايتها وتنويعها وبقي الإنسان، فكيف جاء هذا الكائن الخارق، الحامل للعقل أشرف مخلوقات الله؟

يقول الإمام الصادق عليه السلام إن جسم الإنسان يتكون من عناصر التراب الكيماوية ذاتها بنسب متفاوتة، أبرزها أربعة عناصر، تليها في الأهمية ثمانية عناصر، ثم ثمانية عناصر أخرى حتى تصل إلى مئة واثنين من العناصر بدرجات مختلفة صغراً وكبراً[1].

وقد أثبت علم الكيمياء البيولوجية تلك الحقيقة مفسراً هذه العناصر بأسمائها:

فالأربعة الأكبر هي: الهيدروجين والكربون والأكسجين والنيتروجين. أما الثمانية الأكبر فهي المغنيزيوم والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم

---

(١) الإمام الصادق في نظر علماء الغرب، ترجمة نور الدين آل علي دار الفاضل دمشق ١٩٩٥ ص١٣٢، ١٣٩.

والفوسفور والكالت والكبريت والحديد، ثم تأتي الثمانية الأصغر وهي: الموليبدفوم، والسلفيوم، والفلور والكوبالت والمنغنيز والكالسيوم والنحاس والرصاص، إلى آخر ما هناك.

إذن تكون جسم الإنسان من تراب الأرض بعد تشكلها النهائي وتشكل قشرتها المغلفة بالصخور والتراب في حالته الأخيرة من التطور، وتأتي الحكمة من وراء خلق الجسم الحامل للعقل الإنساني بهذا التكوين راجعاً إلى حتمية تكيف هذا الكائن مع الطبيعة التي سوف يعيش فيها ويدرج عليها ويبدع ويدمر أيضاً كما جاء في الآية الكريمة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في مكان آخر من ذات الخطبة (الأولى في النهج):

«ثم جمع سبحانه من حزن الأرض وسهلها وعذبها وسبخها تربة، سنّها بالماء حتى خلصت ولاطها بالبلة حتى لزبت، فجبل منها صورةً ذات أحناء ووصول، وأعضاء وفصول، أجمدها حتى استمسكت وأصلدها حتى صلصلت، لوقت معدود، وأمد معلوم ثم نفخ فيها من روحه فمثلت إنساناً ذا أذهان يجيلها، وفكر يتصرف بها وجوارح يختدمها وأدوات يقلبها ومعرفة يفرق بها بين الحق والباطل، والأذواق والمشام والألوان والأجناس، معجوناً بطينة الألوان المختلفة والأشباه المؤتلفة، والأضداد المتعادية، والأخلاط المتباينة، من الحر والبرد والبلّة والجمود، واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهد وصيته إليهم في الإذعان بالسجود له والخشوع لتكرمته».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

هذه التفاصيل التي قصد الإمام ذكرها حدد فيها طبيعة تركيب هذا الكائن (الخليفة) من كل مكوّنات التراب والماء ثم نفخ فيها الروح المجهولة طبيعتها للعلم حتى اليوم، وحملها للعقل الذي يحمل في تركيبه أيضاً جوهر خالقه وكنهه كما يقول (كانط) والظاهر من النص هو احتواء الإنسان لمختلف الأضداد التي يتكون منها المحيط الطبيعي، وذلك ما يساعده على التكيف معها، فهذا المخلوق هو أقدر الكائنات على التكيف والسيطرة وابتداع كل الوسائل الممكنة لتحقيق هذين الهدفين وما تاريخ العلوم والاختراعات إلا درب الإنسان للسيطرة والتكيف معاً، أما لماذا أمر الله الملائكة بالسجود ونظرية بروز الشر والخير كمتضادان جوهريان في القرآن الكريم فهو ما فسره الإمام أيضاً في خطبته الجامعية هذه، لكنه يدرج في إطار علم الكلام والتوحيد وتلك كانت بعضاً مما حفل به صدر علي من العلم الجم الذي أراد نقله إلى الناس ولكن الزمان والصعاب لم تمهله فكان ما وصلنا من علمه إلا أقل القليل سلام الله عليه.

## التوحيد

قدّم الإمام نظريته في التوحيد من خلال ما طالعنا به نهج البلاغة وصحيح الكافي مستنداً لمفهومه عن العقل ومدى تقدير الإسلام له، ولعل الحديث الأبرز هو ما جاء على لسان رسول الله متطابقاً مع نص للإمام علي والصادق عليهما السلام وغيرهما من أقطاب أهل بيت النبي الاثني عشر في تمجيد العقل، ولعل بدء الكافي بحديث للإمام الصادق أبرز مدخل لموضوعنا: «لما خلق الله العقل استنطقه ثم قال له: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك ولا أكملتك إلا فيمن أحب أما إني إياك آمر وإياك أنهى وإياك أعاقب وإياك أثيب»[1].

---

(١) الكافي باب العقل والجهل ج١ ص١٠.

هذا الحديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ لدى الشيخين بصيغة مشابهة، أما حديث الإمام علي في ذات الموضوع فهو: «هبط جبرئيل على آدم فقال: يا آدم إني أمرت أن أخيرك واحدة من ثلاث فاخترها ودع اثنتين، فقال آدم: يا جبرئيل وما الثلاث؟ فقال: العقل والحياء والدين، فقال آدم: إني قد اخترت العقل فقال جبرئيل للحياء والدين. انصرفا ودعاه فقالا: يا جبرئيل إنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان، قال: فشأنكما وعرج».

هذه الرمزية التمثيلية قصد منها الإمام إبراز الأهمية المطلقة للعقل، ذلك أن كل مفهوم التوحيد، وهو أول الأصول الإسلامية، يستند على العقل ومكوناته، وعليه تأسست نظرية التوحيد الإسلامية التي اتسمت بالإطلاقية بما يخالف كل الأديان السماوية والوضعية الأخرى. الإجابة عن الأسئلة المتصلة بالذات الإلهية والمصير الإنساني والزمن كانت موضوعات هذا العلم، وارتقت إلى سدة الأهمية بما جعلها تحمل مفهوم الأصول، بينما حملت كل الموضوعات الإسلامية الأخرى مفهوم الفروع، ويستند الفرع على الأصل وينبع منه، لهذا كان علم الكلام الإسلامي، إطار الفلسفة الإسلامية، من أهم العلوم التي أحاطت بما اعتبر أنه الفروع: وأعني به علم الحديث، والتفسير، واللغة المتصلة بتفسير القرآن أو تأويله، والفقه بأنواعه إلى آخر ما هنالك من علوم تتصل بالدين وتكوين ما سمي بالمؤسسة الدينية الإسلامية أو رجال الدين.

لقد أثار علم التوحيد جدلاً كبيراً عند نشوئه إلى درجة مطالبة بعض النخب الإسلامية في عصره المبكر برفض الخوض فيه أو قبول الأسئلة الإنسانية المطروحة في سياقه، وكانت حجتهم أن مكونات هذا العلم لم تكن مطروحة في زمن الرسول أو الخلفاء الراشدين، وهؤلاء هم الذين وقفوا في وجه تدوين الحديث النبوي، أو أي تطور حضاري إسلامي لاحق، ولكن حركية الظروف فرضت نفسها أخيراً باتجاه النضج.

في معركته نحو تحقيق مضمون السنة النبوية تحدث الإمام كثيراً عن فضل العلم والعلماء والتدوين، حتى إننا نلمس في بعضها صيغة التحدي المستمر للظرف المحيط وهو ما اشتمل عليه حديث كهذا على سبيل المثال: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[1].

ومثله هذا الحديث المرفوع إلى رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به وأنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر..»[2].

أما طبيعة الفضل في العلم على العابد فقد حددها الإمام والرسول كلاهما بعلم الدين أصوله وفروعه، ولعلّ فهم جوهر التوحيد هو الأصل في العلم كما تدل عليه كل الأحاديث حول هذا الموضوع، فالقرآن الكريم كتاب يحتل فيه التوحيد الشطر الأبرز، لأنه مدخل المؤمنين إلى فهم المطلق (الله) سبحانه واثبات وجوده والاقتراب منه (فلا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه) كما قال الرسول والإمام، وهذا (اللقاء) هو كنه فلسفة التوحيد برمتها.

يعرف الشهرستاني[3] التوحيد بأنه معرفة الله تعالى بوحدانيته وصفاته، ومعرفة الرسل وبيناتهم أو بالجملة أنه كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فمن تكلم في المعرفة والتوحيد كان أصولياً، ومن تكلم في

---

(١) الكافي ج١ باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء.

(٢) الكافي ج١ ص٣٤.

(٣) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم ٤٧٩ ـ ٥٤٨، الملل والنحل تحقيق محمد سعيد الكيلاني، دار المعرفة بيروت ص١٢.

الطاعة والشريعة كان فروعياً، فالاصول موضوع علم الكلام والفروع موضوع علم الفقه، فكل معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الاصول، وكل ما هو مظنون يتوصل إليه بالاجتهاد فهو من الفروع.

هذا التعريف يحيط بالموضوع بدقة رابطاً التوحيد بالعقل لأنه جوهر الأصول، ولكن الأهم في نصه أنه يؤكد أن الاختلافات في هذه المسألة حدثت أيام الصحابة وأن الإمام الحسن عليه السلام تحدث في القضاء والقدر (وهو علم ورثه عن أبيه بكل تأكيد). وأن المعتزلة (أكبر مدرسة للعقل في الإسلام) أخذت علومها من مدرسة أهل البيت، رغم اختلافهما فيما بعد في بعض جوانب علم الكلام، خاصة في سلوكهم التحالفي مع الخليفة المأمون العباسي.

لم يكن علم التوحيد سهلاً على الأفهام، هو علم النخبة والقلّة، كما هو شأن العلوم كلها، وكان الإمام عليّ سيد الموحدين كما نلتمس في نهجه، وفي النص الأول من هذا النهج، بل إنّه منبع كل مدارس العرفان (التصوف) في التاريخ الإسلامي ومرجعها الأوحد[1] ولأن التوحيد علم النخبة الإسلامية فقد دارت كل الأحاديث النبوية والأئمة على تمجيد هذه النخبة ورفعها إلى مصاف النبوّة بالوراثة وتفضيلها على مجرّد ممارسة طقوس العبادة، إنها فهم الله الخالق أو التقرب إلى فهمه. وكم هي دروب هذا الفهم شاقة ومضنية للمريد الساعي إلى العلم.

## نص التحليل والمقارنة

في الخطبة الأولى، وفي الخطبة التي تحمل الرقم (٢٢٨) نقتبس فقرات

---

(١) حسين مروّة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية، ج١، دار الفارابي بيروت ١٩٧٩، ص٤٣٥.

معينة للتحليل لأنها تحتوي جذور الاختلاف في الإسلام حول مفهوم التوحيد، تلك الفقرات التي أثارت من الجدل ما بزغ على أسسه علم الكلام في الإسلام والذي يحتل التوحيد فيه قطب الرحى، والذي مثل قمة ازدهار الحضارة الإسلامية بلا جدال.

يقول الإمام: «الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ولا يحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون(. . .) أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الاخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله فقد قرنه ومن قرنه فقد ثناه ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم؟ فقد ضمّنه ومن قال علام؟ فقد أخلى منه، كائن لا عن حدوث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة فاعل لا بمعنى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده. . .».

ويقول عليه السلام عن الذات الإلهية «يقول ولا يلفظ ويحفظ ولا يتحفظ ويريد ولا يضمر يحب ويرضى من غير رقّة، ويبغض ويغضب من غير مشقة، يقول لما أراده كن فيكون، لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع وإنما كلامه سبحانه، فعل منه أنشأه ومثّلهُ لم يكن من قبل كائناً ولو كان قديماً لكان الهاً ثانياً» خ ٢٢٨ ص٢٧٧.

هنا لا بد من الإشارة إلى أن الجملة الأخيرة دفعت بعض المؤرخين إلى التشكيك في نسبة نهج البلاغة للإمام بسبب وضوحها الكامل في حسم مسألة كلام الله بأنّه محدث (فعل منه أنشأه) وليس بالقديم، وهي مسألة خلق القرآن التي شطرت مرحلة نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين في صراع بين المعتزلة ومدرسة أهل البيت من جهة، وجمهور السنّة والجماعة، في

خضم بلورة المذاهب الفقهية الإسلامية وظهور ما سمي بالأشاعرة.

ومن أجل التوضيح نورد خلاصة مكثفة لعلم الكلام الإسلامي بالمقارنة مع نظرية الإمام عليّ في التوحيد والتي هي منهج مدرسة أهل البيت حتى اليوم. وبالاعتماد على جهود الفخر الرازي[1] في هذا الموضوع كمرجع أشد وثاقة وموضوعية، يمكن الاكتفاء بالآراء المتضمنة مع التبسيط غير المخل، مع متابعة الجزم بأن لا فائدة على الإطلاق من التشكيك بالنسبة للمرجع وهو الإمام حول كلامه ما دام رموز مدرسة أهل البيت قديماً أجمعوا على صحة النسبة ومصداقيتها، وتابعهم في ذلك المعاصرون. وهذا الإجماع لا يفيد في زعزعته أي تشكيك قصد منه مجرد حجة إبطال الرأي الآخر، ما دام العقل الإنساني هو المقياس الأخير وفيه الكفاية، ولا يجدي على الإطلاق التشكيك في أهلية هذا المقياس الذي بنيت عليه أصلاً جوانب علم التوحيد في علم الكلام لدى جميع الأطراف، فكيف يجوز أصلاً أن يتم التشكيك بمقدرة العقل على الوصول إلى نتائج منطقية بواسطة وسائل مستنبطة من هذا هو العقل ذاته، كما فعلت مدرسة الأشاعرة بأساليب تتسم بالسذاجة الغريبة ، ما دام علم الكلام باتفاق الجميع هو عقلنة الأصول الإسلامية.

معرفة الله واجبة لأنها أول الدين وجوهر هذا الدين ومن هنا اشتق اسم العرفان الذي يشتمل على العلوم جميعاً، معرفة الله هي معرفة مخلوقاته ويتصل بها العلم والنظر في هذا الكون كما أمر الله سبحانه بكافة وسائل النظر والتجريب المتاحة. ويقدم الإمام (التصديق بالله) تالية ثم التوحيد ثالثاً ثم الإخلاص رابعاً، وأخيراً نفي الشبهات عنه، ومن هنا كان مدخل جدلية الذات والصفات الأكثر شهرة في علم الكلام.

---

(١) فخر الدين الرازي، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين، مراجعة طه سعد دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٨٢.

هذا العرفان لله قاد الإمام إلى طرح نظرية الزهد بالدنيا ونبذها، ولم يكن يعني بذلك مفارقتها، بل استغلال برهة الممر الذي تمثله في الزمن السرمدي لاكتساب المعرفة وعبادة الخالق المطلق اللا متزمّن، لهذا وجدنا للعبادة بأنواعها وطقوسها مكانها البارز في أحاديث الإمام. فكيف نظر المتكلمون إلى مسألة المعرفة؟

أجاب الإمام الغزالي عن سؤال هل من ضرورة لمعرفة الله. وهو العرفاني البارز ـ بلا ضرورة لذلك، والحقيقة أنّه كان يتوجه إلى العامة والغالبية بنظريته هذه، أما الأشاعرة والمعتزلة فأجابوا بضرورة هذه المعرفة، ولكن أن تتم بمعرفة وجوده لأنه عين ذاته، فلا بد أن نعلم ذاته ما دمنا نقر بوجوده وإلا لكان الشيء الواحد بالاعتبار معلوماً ومجهولاً، فإما أن نعلمه بالسلب كقولنا ليس بجسم وليس بعرض إلى آخر ما هنالك من صفات سلبية للذات الإلهية، أو نعلمه بالإضافة (صفاته الإيجابية) العالم، القادر، الغني اللطيف الخ.

وهؤلاء يضيفون أن العلم بماهية الصفة لا يستلزم العلم بماهية الموصوف.

من جهة أخرى يتساءلون: هل الله سبحانه خاضع للتصور؟ ويجيبون بلا، ذلك أن التصور يقع تحت سيطرة الحواس، ولا يمكن أن نتصور شيئاً لا تدركه حواسنا أو نجده في نفوسنا أو تركبه عقولنا حتى يأخذ شكل صورة مجسمة تساهم فيها الحواس والعقل بمعطيات تلك الحواس، ولأن الذات الإلهية خارج معطيات الحواس تحديداً فهي ليست معلومة كماهية.

يقول ابن سينا متطابقاً مع ما سلف: إن ماهية الله عين وجوده والوجود مسمى مشترك بين كل الموجودات، وامتاز عن الممكنات بقيد سلبي هو أن وجوده غير عارض لشيء من الماهيات، وسائر الموجودات عارضة.

وصف ابن سينا **بالسيد الرئيس** واشتهر كطبيب ولكن العرفان في زمن ازدهار علم الكلام تطابق مع العلم الدنيوي، وكان لا بد أن يكون العالم عرفانياً وهو ما لمسناه لدى الغالبية العظمى من النخب العلمية لعصر التنوير الإسلامي.

وبالعودة لنظرية الأشاعرة حول ذات الموضوع فهم يقولون: إن مخالفته لغيره لو كانت بصفة ما لحصلت المساواة بالذات، ولو كان كذلك لكان اختصاص ذاته بما به يخالف غيرها، وإن لم يكن الأمر كان غنياً عن السبب وهو محال.

وهذا يعني أنّه يخالف غيره حتى بالصفات الإيجابية كالعلم والقدرة، فهي عنده سبحانه ليست كما عند غيره، وتحديداً مخلوقاته كالإنسان العاقل على سبيل المثال، لأن علم هؤلاء وقدرتهم لو (تشابهت) مع صفات الله لحصلت مساواتهم معه بجوهره. والحقيقة أن هذا التنزيه المطلق بين الإنسان والذات الإلهية فيه الكثير من التعسف والسذاجة، وجاء بهدف دحض نظريات العرفانيين (المتصوفة) في وحدة الوجود، أو التوحد بالذات الإلهية كما رأيناها عندهم وأبرز تجلياتها كلمة الحلاج (ليس في الجبّة غير الله). في الإنسان تبعاً للقرآن الكريم شيء من ذات الله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ عن النبي عيسى عليه السلام أو كما قال الإمام عليه السلام فيما قدمنا عن خلق آدم بعد جبل طينته (ثم نفخ فيه من روحه) أي من ذاته. هذا الجزء الإلهي في البشر متفق عليه لدى كل العقائد، وأكدته أيضاً الفلسفة اليونانية بتحديث أرسطو عن خلود الذاكرة التي هي الروح والتي سوف تخضع للحساب يوم الدينونة كما أقرّ الإسلام. ومع ذلك فأين تقع تلك الذرة المتناهية في الصغر الموجودة في الإنسان من ذات الله قياساً للمطلق الهائل اللطيف الخبير الذي هو الخالق؟؟ ورغم التباين فهناك حالة من التناظر وليس المساواة بين الخالق والمخلوق، ففي هذا الكائن تتموضع الحياة والروح وهي أكثر الأشياء غموضاً لدى العلم

والبحث العلمي ولم يشأ سبحانه أن يعرفها إلا على الشكل التالي ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال رسول الله ﷺ في حديث يركز عليه شيخ العرفانيين السنّة محي الدين بن عربي «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت عينه التي ينظر بها، ورجله التي يمشي بها، ويده التي يبطش بها. . . .»(*) هذا الحديث صحيح ويرويه الشيخ: البخاري وجاء لدى الكافي على لسان الأئمة باشكال أخرى. إذن هناك اتفاق بين المسلمين على إمكانية توحد الإنسان بالله وصولاً إلى امتلاك قدرته بإذنه، فأين تقع المباينة بينهما إذن؟؟

يقول الإمام علي عليه السلام عندما سئل بم عرفت ربك؟ قال: «بما عرفني نفسه، قيل: وكيف عرفك نفسه قال: لا يشبهه صورة ولا يحس بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كل شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء سبحانه من هو هكذا ولا هكذا غيره ولكل شيء مبتدأ. .» الكافي ج١ ص٨٦.

فلاحظ في حديث الإمام تلك الدقة العجيبة في رسم حدود المباينة في إطار معرفة الله. أهمها المباينة في مادة الخلق، وهو خالقها، فلا يمكن أن يدرك بالحواس، ولكنه يدرك بأشياء أخرى كما سنرى في قضية الرؤية، ولا يمكن أن يعبد الله دون إدراكه بوسيلة ما، ذلك أن الإيمان بوجوده لا يكفي كما أجمع المتكلمون. والإمام في أحاديثه يؤكد أن معرفة الصفة تؤدي إلى معرفة الموصوف لاتحاد الذات والصفات في التوحيد.

---

(*) الإمام النووي، رياض الصالحين، ص١٨٠.

وفي علم التوحيد عند الأشاعرة مفاصل أخرى: أن الله غير متحيز، ولا يتحد بغيره، ولا يحل في شيء، وليس في جهة ولا يجوز قيام الحوادث بذاته، وهذه الصفة الأخيرة تناقض مفهوم الزمن، وكلام الإمام معا (داخل في الأشياء لا كشيء، وخارج من الأشياء لا كشيء)، فلأن الله خالق الزمن رغم أنه خارجه يبقى إبداع الارتباط بين المتزمن واللامتزمن، بل لعل الزمن هو أروع ابداعات الخلق وأكثرها بعدا عن الإحاطة بالعقل الإنساني، لهذا ظهرت الخلافات بين المتكلمين، ذلك أن العقل في تركيبه تكوينات معطيات الحواس التي يؤكد الإمام بعد الله سبحانه عن أن تحيط به، فلم يقدروا (غفر الله لهم) على تعليل مسألة قيام الحوادث بذاته أو خارجها أو (أنه لا يحل في شيء) بينما يؤكد الإمام أنه داخل فيها ولكن لا كشيء. هذه الشيئية المربكة للتعريف المادي، جعلت التفسير لحلول الله في الأشياء مشوشا عند كثير من نخبهم وخاصة الأشاعرة، فكيف حلت روح الله في الإنسان وهو مجرد شيء؟ وكيف لا تقوم الحوادث بذاته وهو المطلق (قريب في بعده، بعيد في قربه) كما يعبّر الإمام. هذا القريب جدا (أقرب إليكم من حبل الوريد) كما يعبّر الله، هل يفسر بمجرد قربه بأدواته (الملائكة) أم بذاته المطلقة التي هي في كل مكان، وأين يمكن أن تكون الحوادث ومنها الإنسان ذاته واقعة إلا في ذات الله، مع المباينة في الماهية؟؟

لقد أرادت بعض فصائل المتكلمين في التوحيد أن تقونن من لا يخضع للقوانين وهو الله، وبذلك ابتعد كثير منهم عن الصوابية والمنطقية والعقلائية أخيرا (سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره) كما قال الإمام عليه السلام. يقول الله سبحانه ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وإذا أردنا تفسير الكرسي بالعلم كما أجمعت مدرسة أهل البيت فهل ينفصل العلم عن العالم؟ تلك اسئلة مؤرقة سعى ويسعى السائرون إلى معرفة الله الإجابة عليها حتى اليوم، وقد أجاب الإمام بما يكفي لمن أراد معرفة حقيقية.

يقول الإمام في خطبته عن ذات الله «كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بمعنى الحركات، بعيدا إذ لا منظور إليه من خلقه».

لقد أراد الإمام عليه السلام أن يقدم الذات الإلهية ببساطة على أنها مخالفة في وصفها لدلالات اللغة الحسية، الحس الذي بنيت عليه اللغات الإنسانية يقود الباحث عن العرفان إلى مأزق التجسيم، وقد وقع كثيرون فيه، وشكل بالنسبة لعلماء الكلام حالة تبادلوا فيها التهم التي وصلت إلى مرتبة التكفير والملاحقة، تماما كما جرى مع أحد تلاميذ الصادق عليه السلام وهو هشام بن الحكم، بينما انزلقت مدرسة الأشاعرة إلى هذا التجسيم ورفض التعليل والتوقف عن المشكلات الكبرى التي تحتاج إلى بيان[1]، علما أن هشاما لم يكن تجسيميا، ودافع عنه الإمام الكاظم عليه السلام ودعا له الإمام الصادق عليه السلام قائلا «لا زلت مؤيدا بروح القدس ما دمت تنافح عنا أهل البيت»[2].

الإمام هنا ينفي إمكانية ارتباط كنه الذات الإلهية بالمشاعر الإنسانية، وكذلك في نفيه للتوافق الإلهي مع السلوك الإنساني نفسياً وحركياً، كل ذلك من أجل اطلاقية تنزيهه سبحانه وتوحده الأكمل «كمال توحيده الاخلاص له، وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه» ولا تنفى الصفات عنه ـ ونحن كبشر مقسورون على وصفه ـ إلا عبر اقرارنا بعجز اللغة وإضافة حتمية وحدة الذات والصفات ولا شيء آخر، لأن الاقرار بانفصال الصفات يعني الاقرار بآلهة أخرى كما جزم الإمام، واضعاً قواعد التوحيد في خطوط عريضة أمام نظر

---

(١) راجع علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام دار المعارف، ط٧، فصل هشام بن الحكم.

(٢) راجع الإمام الصادق م. س ص٣٦.

كل من أراد التوسع في التفاصيل، وهو ما قام به المتكلمون، وما اختلفوا فيه وحوله.

## جدلية رؤية الله

يقول الإمام «الله بصير إذ لا منظور إليه من خلقه»، ويقول تبعاً لما جاء في الكافي (في ج١، ص٩٨) للحبر الذي سأله: «يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك حين عبدته، فقال: ويلك ما كنت أعبد رباً لم أره، قال: وكيف رأيته، قال: ويلك لا تدركه العيون من مشاهد الأبصار ولكنه رأته القلوب بحقائق الإيمان».

البصر في الرؤية متبادل بين الناظر والمنظور إليه، إلا مع الخالق سبحانه، ولكنها في إطار التبادل بكيفية مختلفة. وفي مجال فسيح من التأويل بين ظاهر آيات القرآن الكريم وحقيقتها استمر الجدل حتى يومنا.

يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[1]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2]، ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾[3]، ولعل الآية الأخيرة أكثر وضوحاً من أن تؤول بشيء آخر غير رؤية أو إدراك من نوع مختلف عن البصر. لقد نسب إلى رسول الله ﷺ حديث يقول «ترون ربكم يوم القيامة كما تشاهدون البدر لا تضامون» وربما فسر ظاهر هذا الحديث بالرؤية البصرية، وقد أصرّ على ذلك الأشاعرة كثيراً مما يقود إلى التجسيم والحيّز والمكانية بلا جدال، وهي صفات اتفق على نفيها عن الله سبحانه بالصفات السلبية، أما إذا عدنا إلى التوفيقية التي نشاهدها عند بعض المحدثين، كأحمد أمين، بأن من المحتم رؤية الله، أو أن العدالة تقتضي أن يكافأ المؤمن برؤية

---

(١) سورة النجم، الآية: ٧.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة المطففين، الآية: ١٥.

خالقه بناء على وعد الله لعباده المخلصين، بما في ذلك عقوبة الكافرين بعكس ذلك، وأن تتم الرؤية بكيفية ما، ليس البصر العادي منها، فإن الموافقة على تلك النظرية يلغي الجدل الدائر أصلاً حولها، وتتفق مع وجهة نظر الإمام علي عليه السلام بالرؤية القلبية أو (حقائق الإيمان) وهو ما يتصل بالتوحيد في جوهره عن معرفة لا حدود لها بالذات الإلهية عند الرجوع إليها في نهاية مطاف النفس الإنسانية، أو الروح التي منحت هذا الإنسان حياته، وقد عادت إلى بارئها لأنها نفحة منه، أو جزء من ذاته، ذرة ضئيلة عاقلة التحمت بالمطلق. أما في النظرية الإسلامية حول البعث بالأجساد الإنسانية المعروفة في جنان الخلد أو الجحيم، على حد سواء، فإن النظر الإنساني يستحيل عليه أن يحتوي خالقه المطلق لاستحالة الاحتواء أو التجرؤ لهذا المطلق، بل يبقى الاتصال متعلقاً (بحقائق الإيمان) التي لم يستطع العقل الإنساني الإحاطة بها وبتفاصيلها حتى اليوم. وهو ما يعزز قول الإمام ومدرسة الأئمة ويمنحها المصداقية المطلقة.

يقول سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾[1]، هذه الآية الكريمة تحسم مسألة النظر بالعين البشرية باتجاه الاستحالة، وتصم أولئك الذين جادلوا في الرؤية وإمكانيتها بالعين المجردة (التي يفترض أن تلازم الجسد المبعوث يوم القيامة بما هي عليه)، بالبعد عن العقل أو ما أطلق عليهم من توصيف (الحشوية).

**الكلام**

من أهم صفات الله سبحانه، وقد تحدث عنها الإمام باستفاضة حول

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٣.

كلام الله: بأنه فعل منه أنشأه ومثّله ولم يكن من قبل كائناً، ويقول: (كن فيكون لا بصوت يقرع ولا بنداء يسمع..) هو ببساطة صلة ما بالمخلوقات تحمل معنى الفعل أكثر منها ألفاظاً تتكون من حروف أبجدية أو لغة محكية إنسانية، وذلك ما يلائم كلام العليّ القدير في التوصيف.

عندما بدأ الجدل حول الكلام قالت الأشاعرة ومعهم جميع مذاهب السنة والجماعة إن هذا الجانب الإلهي أو الصفة الإلهية قديمة قدم الخالق، أي أنها بعيدة عن الحدوث في الزمن، ومثل ذلك القرآن الكريم بصفته كلام الله، فهو في الذات الإلهية منذ القدم ولا يمكن أن يكون مخلوقاً أو حادثاً أو متصلاً بالزمن.

والحقيقة أن الزمن في الله موضوع من أعقد موضوعات علم الكلام، ولا يمكن أن توصف ماهية الكلام دون ربطه بماهية الزمن والحدوث، ولهذا شهد هذا العلم آلاف الصفحات والصراعات والشهداء أيضاً حول الكلام في ذات الله أهو مخلوق حادث أم قديم.

عقلانية الإمام حسمت هذا الموضوع باتجاه الحدوث وربطته بالزمن، وإلا لأصبح الكلام كصفة ثبوتية من صفات الله (إلهاً ثانياً) كما عبّر الإمام، ما دام قد انفصل عن الموصوف وهو الله، ونتعامل معه (أي الكلام في القرآن) بالحواس، فما دام أصبح هو كذلك شكلاً ومضموناً فهو مخلوق حكماً.

يقول الأشاعرة في هذا الموضوع: إن كلام الله قديم لأن الكلام لو كان محدثاً لكان إما أن يحدث في ذات الله تعالى فتكون الذات محلاً للحوادث وهو محال أو أن الكلام لا يحدث فيه وهو محال أيضاً..

ما هو الحل إذن؟ يضيف الأشعري «الكلام صفة وصفة الشيء تستحيل أن لا تكون حاصلة فيه وإلا لجاز أن يكون الجسم متحركاً بحركة قائمة بالغير وذلك محال فلا بد أن يكون الكلام قديماً حتى تنتفي عن الله صفة الحركة».

والواقع أن الأشعري رحمه الله، وقد عجز عن حل جدلية الحدوث في ذات الله، وارتباط ذلك بالحركة والزمن، وحتى ينفي عن الله سبحانه الحركة ليبتعد عن التجسيم والتحيز، وضع الكلام في مرتبة الصفات الواقعة في ذات الله؛ أي ببساطة أنّه أقرّ بأن الذات هي عين الصفات، وأن الصفات ليست أحوالاً كما وصفها في مقدماته. ولست أدري لم لم يقبل أولئك الذين نهجوا تلك المدرسة إطلاقية الذات الإلهية ودفعوا باتجاه تحييزها دون أن يقصدوا ذلك، أو بقصد، غفر الله لهم. فما دام خلق الإنسان والكون أمر حادث له بداية ونهاية وحركة، وكل ذلك مرتبط بالزمن. فلماذا رفضوا اعتبار طريقة مخاطبة الله لخلقه ـ ما دامت إرادته تمت بأن يتعامل معهم بهذه الطريقة، خاصة مع النبي موسى عليه السلام، مباشرة أو مع رسول الله صلى الله عليه وآله عبر واسطة الملائكة من خلال كتاب وصفه هو بأنه كلامه ـ، اعتبروها صفة قديمة كذاته.

هذه الجدلية التي تأسست على كلام الإمام عليه السلام والتي أثارت عندما وضعت على محك العقل كل تلك المشكلات إلى درجة الفتنة، قدم لها أقطاب مدرسة أهل البيت حلولاً دقيقة ومنطقية، اخترنا منها رأي الإمام السيد الخوئي رضوان الله عليه[1].

«كلام الله حادث لأن الكلام من الصفات الفعلية التي يمكن أن يتصف بها الله في حال ويعدمها في حال آخر، ومنها الرزق والخلق، فيقال إن الله خلق كذا ولم يخلق كذا وكلم فلاناً ولم يكلم آخر إلى آخر ما هنالك.

الكلام من الصفات الثبوتية فعلاً ولكنه لا يدرج في الصفات الذاتية التي يستحيل أن يتصف بنقيضها كالعلم والقدرة والحياة، وبما أن الأشاعرة عللوا المسألة بالكلام النفسي ـ الذي يصح وصفه بالقديم ـ فإن الرد أنه ليس هناك

---

(١) أبو القاسم الخوئي الموسوي، البيان في تفسير القرآن، مطبعة الآداب النجف ١٩٦١، ص٢٧٧ ـ ٢٧٨.

كلام نفسي مختلف عن الكلام اللفظي، فكلاهما كلام؛ لأن الكلام لفظي وقيامه بالمتكلم قيام الفعل بالفاعل، وهنا لا يصح إطلاق المتحرك على موجد الحركة، وبالتالي لا يستلزم عدم صحة إطلاق المتكلم على موجد الكلام».

الإمام الخوئي يستند على حديث للإمام الصادق عليه السلام في الكافي ينص على ما يلي: «لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاتها ولا مقدور. فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم، وقع العلم منه على المعلوم، والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور. قال: قلت: فلم يزل الله متحركاً، قال: فقال: تعالى الله عن ذلك، إن الحركة صفة محدثة بالفعل، قال: قلت: فلم يزل الله متكلماً؟ قال: فقال: إن الكلام صفة محدثة ليست بأزلية، كان الله عز وجل ولا متكلم».

وعلى هذه القاعدة يمكن أن نؤكد أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أجاب هو وأبناؤه على أصعب وأدق الأسئلة المتعلقة بالذات الإلهية، وما حديث الإمام الصادق الذي هو بالتبعية حديث عليّ كما يقول الإمام «حديثي حديث أبي حديث جدي حديث أمير المؤمنين حديث رسول الله» مستنداً على النقل والعقل معاً، والذي استند عليه السيد الخوئي يعدُّ أروع ما قاربت به مدرسة أهل البيت حلّ مشكلة الزمن والخلق بما في ذلك جدلية صفة الكلام في الذات الإلهية.

## في مسألة القضاء والقدر والزمن

يقول الإمام علي بن أبي طالب في إجابته على سؤال (الشامي):

«لعلّك ظننت قضاء لازماً وقدراً حاتماً ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد، إن الله سبحانه أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً..»

في اللازمن، في ذات الله سبحانه، تصبح أعمال الإنسان التي تشمل أبعاد الزمن الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل وأخيراً المصير الأخير لهذا المخلوق المحبوب من الله، تصبح كلها على صعيد واحد، كأنما هي لوحة مرسومة في اللا حركة، هكذا يفهم العقل المشكلة في الزمن واللازمن. ولأن العقل ذاته متحرك بالفكر ومرتبط جذرياً بالزمن فإن النخبة التي استطاعت (ما جهدها التعقل والعرفان والمثابرة) التخلص من قيد الزمن بالمعرفة المطلقة، اقتربت أكثر من فهم ذات الله. والإمام يقول مجيباً «لو أنني كشف لي الحجاب ما ازددت يقيناً»، هذه النخبة عجزت في الآن ذاته عن تقريب هذا المفهوم للعامة.

هذا الاقتراب، ولأن الإمام جهد في التقريب لأذهان العامة مفهوم القضاء والقدر، حسم الأمر ببساطة؛ إننا مخيّرون غير مجبرين وإلا بطل الثواب والعقاب، ولكنه بالمقابل وأمام مسألة بالغة الإشكالية كهذه يقدم نصيحته التالية المدرجة في غريب كلامه برقم ٢٧٩ «وقد سئل عن القدر فأجاب طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسر الله فلا تتكلفوه».

الله سبحانه المطلق العالم القريب غير المتحرك، كيف يمكن أن يحل العقل الإنساني المحدود إشكال تعامله مع حركة الإنسان في الزمن وهو خالق هذه الحركة، وهل يمكن أن ننكر تأثيره في رسمها ما دام يعلم تفاصيلها منذ الأزل؟

وما هو مدى حدود تلك الحرية الإنسانية في الاختيار؟، ولأنه سبحانه قرن تعامله مع الحركة في آية شهيرة جداً ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[1]، هل يمكن

---

(١) سورة النجم، الآية: ٢٩.

للعقل تفسير شكل هذا التعامل؟؟ وفي المقابل يجدر بالباحث التعامل مع نظرية الفيض الإلهي القديمة في الفلسفة اليونانية والتي تبنتها مذاهب إسلامية معروفة[1] (التي تقول بأزلية العالم ذاته إذ أبدعه الله بالأمر أي بإرادة التكوين وهي قديمة بقدم الله( . . .) لأنها إنتاج العقل الأزلي الذي أفاض أنوار المعرفة على الإنسان وقد وجد الإنسان متميزاً عن سائر الموجودات باستعداده لتلقي هذا الفيض المعرفي، أي أن العقل تام بالفعل أي أن له صفة الكمال الفعلي) هذه الفكرة الرواقية التي سعت لحل مشكلة القضاء والقدر والإرادة قامت بتفسير هام لعلاقة القضاء والقدر بالإرادة كما يلي (فالقدر يعني ترتيب صور الأشياء في أماكنها من نظام الوجود بعد أن يتحقق لها هذا الوجود الذي حصل وفقاً لتقدير الله، هو وضع الشيء في موضعه اللائق به وكونه في مكان يحسن كونه فيه، أما القضاء فهو ينحصر في معنى علم الله من قبل، أنه لا يكلف الناس إلا بمقدار ما لديهم من استطاعة للتنفيذ، فإذا كلفوا هم أنفسهم غير ذلك مما نهاهم عنه استحقوا منه العذاب لأنهم خرجوا بعملهم هذا عن قضائه وحكمه وعدلوا عن وصيته فإن الخروج من قضائه معصية)[2].

هل يمكن للنص السابق أن يجيب شافياً عن جدلية القضاء والقدر والإرادة، أم أن الإنسان مقسور على استمرارية طرح أسئلته إلى ما لا نهاية ليعود أخيراً إلى قول الإمام عليه السلام الحاسم، أنه سر الله فلا تتكلفوه؟؟

في كل الأحوال فقد أطلق الإمام سلام الله عليه العنان للبحث في إشكالية صعبة كهذه عندما رفض التوقف وأجاب، وهو في الآن ذاته حذر الذين لا يمتلكون المقدرة ولا المجاهدة الذاتية لقيود الجسد والمادة الهشة المليئة بالرغبات وحب الدنيا والصراع عليها، من خوض بحرها العميق. .

---

(١) كامل مصطفى الشيبي: الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف مصر ١٩٦٩، ط٢.

(٢) أخوان الصفا، الرسالة الجامعة، ج١، ص٦٦.

حذرهم من الغرق، وهو بذلك أيضاً يعلي شأن الإرادة وحرية الاختيار.

إذا عدنا إلى نظرية مدرسة أهل البيت في تفاصيل مسألة كهذه نجدها تلجأ إلى ما اصطلح على تسميته بالبداء، ولعلّه أجمل نتاج المدرسة الفلسفي وأشده إقناعاً حتى والاعتراض والتشكيك يحيطان به إلى درجة الاتهام، ما هو البداء وما علاقته بالزمن والقضاء والقدر؟

يجدر بنا القول بداية إن البداء يسعى لتفسير علاقة الله سبحانه بالزمن والقضاء وصولاً إلى منح المشروعية للدعاء الإنساني إلى الله لدفع ما عاينت حواس هذا الإنسان مما ظنه قضاء الله، وتحديداً المصائب، ولطلب ما ظن أن الله سبحانه حجبه عنه من الخير، وقد اتفق المسلمون على أن الدعاء هو العبادة أو مخ العبادة.

يقول الصادق عليه السلام: «ما عظم الله بمثل البداء»[1] والبداء بالمعنى هو الظهور لما كان خفياً وكان الظاهر السابق خلافه، أما ارتباطه بالله سبحانه فهو بالتفسير كما يلي «علمه تعالى بالموجودات والحوادث مطابق لما في نفس الأمر من وجودها، فله تعالى علم بالأشياء من جهة عللها التامة وهو العلم الذي لا بداء فيه أصلاً، وله علم بالأشياء من جهة مقتضياتها التي تتوقف على وجود شروط لحدوثها وانعدام موانع هذا الحدوث، وهو ما يمكن أن يظهر للإنسان خلاف ما كان ظاهراً منه وتحقق بزوال شرط أو مانع التحقق، وهو المراد بقوله تعالى ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

البداء إذاً حالة تتعلق بالإنسان ذاته في تعامله مع الأشياء، ولا علاقة له بعلم الله تعالى الأزلي، ولكن تغيّر ما كان يظن أنّه مقدّر بواسطة الدعاء أو بالعمل يمنح الإنسان هامشاً واسعاً لتحقيق إرادته عبر جدلية علاقته، وهو

---

(١) الكافي مرجع سابق ص١٤٦، ج١ (الأصول).

المرتبط بالحركة والزمن، بإرادة الله سبحانه. لقد شاء الله أن يعطي هذا الإنسان المحبوب من مخلوقاته هامشاً للفعل الإرادي لكي يمارس فعل هذه الإرادة باتجاه الخير إن شاء أو الشر إن شاء أيضاً، وفي الحالتين يقترب هذا الإنسان من كماله أو شتاته، ويتقارب مع فهم طبيعة علم الله وقضائه وعلاقة ذلك كله به هو المتزمن أمام الله الخالق اللامتزمن.

فهل يفسر ذلك حديث آخر للإمام الصادق كما يلي «سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال علم وشاء وأراد وقدّر وقضى وأمضى، فأمضى وقضى، وقضى ما قدّر، وقدّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء، وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدم على المشيئة، والمشيئة ثانية والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء.

فلله تبارك وتعالى البداء، فيما علم متى شاء، وفيما أراد لتقدير الأشياء فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم بالمعلوم قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبل عينه، والإرادة في المراد قبل قيامه، والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عياناً وقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات، ذوات الأجسام المدركات بالحواس من ذوي لون وريح ووزن وكيل وما دب من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك مما يدرك بالحواس، فلله تبارك وتعالى فيه البداء مما لا عين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء، والله يفعل ما يشاء، فالعلم علم الأشياء قبل كونها، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالإرادة ميز أنفسها وألوانها وصفاتها، وبالتقدير قدر أقواتها وعرف أولها وآخرها وبالقضاء أبان للناس أماكنها ودلهم عليها وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم» (الكافي ج١ البداء).

هذا النص الذي شاء الإمام الصادق، ـ بأدق تفصيل ـ توضيح مفهوم

ارتباط العلم بالخلق والقدر والزمن معاً ينص على أن كل ما وقعت عليه الحواس من (المبرم من المفعولات) قد أصبح في عرف القضاء الواقع وتم ايجاده فعلاً، أما ما هو بالقوة ولم يصل إلى مرحلة الوجود المدرك ولا زال في علم الله (وهو ما لا يدركه الإنسان أصلاً) فهناك يقع البداء؛ في التغيير، التطوير وإعادة الصياغة، ثم عندما يقع ذلك تحت حواسنا، علمنا أنّه أصبح في الفعل ولم يعد للبداء فيه رأي، تلك هي نظرية الإمام علي سلام الله عليه في القضاء والقدر والزمن، فسرها الأئمة بعده، بهذا المفهوم الدقيق (البداء) الذي لا يجد الباحث أكثر ملاءمة منه للتفسير في زمن الأسئلة الصعبة والمصيرية وبناء المفهوم العقلي المعاصر للتوحيد، وبالتالي الحضارة الفكرية الراقية، التوحيد المطلق لله سبحانه وتقريب المفهوم الإنساني للزمن والحركة إلى ذات الله المطلق.

كيف تعامل الفلاسفة والمتكلمون المسلمون مع مسألة كهذه؟ لقد وضعت هذه المادة في بند تقسيم الموجودات[1]: يقولون:

الموجود إما أن يكون ثابت الوجود لذاته وهو الله سبحانه، وإما أن يكون ممكن الوجود لذاته وهو كل ما عدا الذات الإلهية، هذا الموجود إما أن يكون قديماً أو حديثاً، فلا أول لوجوده تعالى فهو قديم أما المحدث فهو كل ما عداه.

قالت الفلاسفة: عندما تقول كان الله موجوداً في الأزل فذلك يستلزم أنّه إما أن يكون عدمياً أو وجودياً، والأول باطل وإلا لكان قولنا موجود في الأزل ثبوتي فيكون المعدوم موصوفاً بالوصف الوجودي وهو محال فثبت أن مفهوم الله وجودي، فهو إما أن يكون عين الله تعالى أو غيره، والأول محال

---

(١) راجع: زهير غزاوي: الإمام جعفر بن محمد الصادق، م. س فصل علم الكلام الإسلامي.

لأن كونه في الأزل غير حاصل الآن، وإلا لكان هو الأزل وكل ما وجد الآن وجد في الأزل وهذا خلق، لكن ذاته حاصلة الآن فكونه في الأزل أمر زائد وذلك الأمر كان موجوداً في الأزل، وقد كان في الأزل مع الله غيره ثم إن ذلك الغير هو الذي يلحقه معنى (كان) ويكون لذاته وذلك هو الزمن والزمن موجود في الأزل. وهو خلف».

إذن فالزمن، كما أرادوا أن يخضعوا المسألة لمنطق العقل، لم يكن موجوداً في الأزل فهو حادث لأنه مرتبط بالحدوث والحركة.

أما المتكلمون فقد صاغوا المسألة على الشكل التالي: «بمعنى كونه تعالى قديماً أنا لو قدرنا أزمنة لا أول لها لكان الله تعالى موجوداً معها بأمرها، يقرر ذلك أنا لو اعتبرنا الزمان في ماهية الحدوث والعدم لكان ذلك الزمان إما أن يكون قديماً أو حادثاً، فإن كان قديماً ـ مع أنه ليس له زمان آخر ـ فقد صار القدم معقولاً من غير اعتبار للزمن، وإذا عقل ذلك في موضع فليعقل في كل موضع آخر، وإن كان حادثاً لم يعتبر في حدوثه زمان آخر لاستحالة أن يكون للزمان زمان آخر، وإذا عقل الحدوث في نفس الزمان من غير اعتبار زمان فليعقل مثله في سائر المواضع».

عبر هذه المقارنة التي تؤدي عملياً إلى ذات النتيجة لدى الطرفين، أي اللازمان لذات الله، نكتشف أن الإنسان جهد لإثبات القدم والحدوث مرتبطين بالله سبحانه عبر صيغ كلامية إنسانية، جوهرها بالغ التعقيد، أساسه صعوبة ربط المتزمن باللامتزمن الذي هو الله، لهذا جاءت الصيغ ذاتها معقدة كتعقيد الإشكالية ذاتها، ومع ذلك فلا مندوحة من التأمل العميق والمعرفة القلبية (الحدسية) لحلها وهو ما عبر عنه الإمام علي عليه السلام ومدرسة أهل البيت بأفضل ما وجدناه في الفكر الإسلامي، بل إن هذا الفكر يعود بكله إلى هذا المنبع.

قال رسول الله ﷺ(***): «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار» هذا الحديث المتفق عليه في البخاري يفسر الزمن (الدهر) بالله نفسه لأنه أعظم مخلوقاته باعتبارنا، بل إن الرسول يرفعه إلى مرتبة الصفات التي هي عين الذات، رغم انعدام وجوده لا في الصفات السلبية ولا الثبوتية، ولكن قولاً كهذا منسوباً إلى الرسول ﷺ [والمرجح صحته] يحسم الجدل الدائر حول اشكالية ارتباط ما هو خارج الزمن (الله) بهذا الزمن ـ الحركة ـ الحدوث ـ الخلق بأنه أحد صفاته تعالى وكفى.

## الحكمة

الحكمة لب العرفان، لأنها تكثيف التعبير عن تجربة الحياة بعد اختمارها في الذات، ولم يعرف عن أحد من الأقوال الحكمية كما عرف عن الإمام عليه السلام، فأقواله تملأ كتباً، حتى إن ما يتردد منها على ألسنة الناس من الشيوع إلى درجة يحسب معها الإنسان أنّه الوحيد وليس الأول فقط، إذا استثنينا أحاديث رسول الله ﷺ.

أقوال الإمام متشعبة المضامين تتناول مجمل مواضيع الحياة المعاشة، تربية، اقتصاداً، سياسة، علاقات اجتماعية إلى آخر ما هناك من شؤون في الحياة، وإذا كانت الحكمة المصاغة شعراً أكثر انتشاراً، كما وجدنا لدى المتنبي، فإن ومضات الإمام علي عليه السلام أكثر عمقاً وبلاغة مما نجده لدى الشعراء العرب.

في هذه الإلماعة المختصرة نورد بعض ما قدرنا أنّه الأكثر انتشاراً أو الأقرب إلى الذات، فالمسألة، في خضم ما هو متوفر، تعود إلى ذاتية

---

(***) جواهر البخاري وشرح القسطلاني، القاهرة المكتبة التجارية الكبرى، ص٤٠٨.

محضة، ومن مضامين مختلفة تنوس بين أغلبية شجون الحياة التي تناولها الإمام[1].

في العلاقات الاجتماعية: الحكمة ١٩: أقيلوا ذوي المروءات عثراتهم، فما يعثر منهم عاثر إلا ويده بيد الله ترفعه.

ولن يفهم عمق قول كهذا إلا من خبر الحياة إلى درجة أدرك فيها معنى المروءة ومعنى العثرة معاً.

يقول: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما (٢٦٠).

هذا المثل السائر المتسم بالعرفان الجم لمعنى العلاقات بين البشر يعبر الأجيال، وقد لا يعرف لدى الكثيرين مصدره، ولكن القارىء يقع في الذهول عندما يدرك مدى صحة انطباقه على الواقع، في العلائق بين البشر.

يقول: ٢٥٥: صاحبُ السلطان كراكب الأسد، يُغبط بموقعه، وهو أعلم بموضعه.

هذا الكم من الكوميديا السوداء في هذا التكوين النادر لموقع السلطان في الحقيقة، وهو على أية حال وجهة نظر الإمام في جدلية السلطة برمتها، ولا يصدر إلا عن عارف وزاهد معاً، فإن الإنسان في السلطة يسعى ويتشبث ويموت في سبيل الكرسي، لأنهم غالباً (السلاطين) يَسعَدون بذلّ الآخر، وبعضهم يظن أنّه يملك من صفات القوة ما لا يملكه غيره، وبعضهم يشعر بامتلاكه صفات الألوهية، كما ضرب الله مثلاً لذلك فرعون.

يقول: المرأة شر كلها وشر ما فيها أنها لا بد منها (٢٣٠).

ويقول: أغض عين القذى والألم ترض أبدا (٢٠٤).

---

(١) راجع نهج البلاغة م. س، باب الحكمة.

ويقول: من لان عوده كثفت أغصانه (٢٠٥).

من أجمل التعبيرات عن المرونة مع الناس لاكتساب الأصدقاء.

وقال واصفاً قول الخوارج (لا حكم إلا لله): كلمة حق يراد بها باطل. وذهبت مثلاً. . .(١٨٩).

ويقول: ما اختلفت دعوتان إلا كانت إحداهما ضلالة(١٧٤). وهو من أجمل وأعمق ما قيل في الصراع الإنساني بين الدعاة في الإطار الواحد تحديداً.

وقال: من أبدى صفحته للحق هلك عن جهلة الناس (١٧٩).

وقال: الناس أعداء ما جهلوا. ويقول: إذا هبت أمراً فقع فيه فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه.

وقال (١٥٦): لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق: وقال: من وضع نفسه مواضع التهمة فلا يلومن من أساء به الظن (١٥١).

ويقول: المرء مخبوء تحت لسانه. ويقول: قلة العيال أحد اليسارين، والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم.

ويقول: قيمة كل امرىء ما يحسنه (٧٨) وقد نظمه الشافعي شعراً:

قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه أو أقل

ويقول: الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من أهل النفاق (٧٧).

ومن أجمل ما قال: فقد الأحبة غربة(٦٢) ويقول: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام. ويقول: الشفيع جناح الطالب، (ذلك أن الوسائط لا تنكر).

ويقول: القناعة مال لا ينفذ، ويقول الشريف الرضي: إن هذا الكلام روي عن الرسول ﷺ أيضاً. ويقول: لسان العاقل وراء قلبه وقلب الأحمق وراء لسانه(٣٩).

وفي الواقع أن كثيراً مما تردد على لسان الإمام علي عليه السلام ورد في السنة النبوية، ولكنه اشتهر بنسبته إلى الإمام لأسباب بقيت مشوشة، علماً أن الإمام يعترف بتلمذته على رسول الله صلى الله عليه وآله وأنه كان يحفظ منه ويسأله ولصيق به حتى غادر إلى الرفيق الأعلى، ويصر الإمام الصادق أيضاً أن حديثه هو حديث علي هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول الإمام ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه(٢٥).

ويذكر هنا أن هذا القول أحد أهم دعائم علم النفس الحديث، واعتبرت فلتات اللسان أحد أهم وسائل معرفة ما يجول في راهن الفكر لدى الإنسان ويحاول إخفاءه.

ويقول: أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم (ح١١) ولكن هذا القول يمكن أن يشفع بحديث شهير له: أيها الحق لم تترك لي صاحباً.. لنكتشف في أعماق الإمام ميل إلى المبدأ واعتباره أهم من الصديق، وهو ما أكدته سيرته التي سبقت في الفصل الأول. ويقول الإمام في التربية والسياسة معاً «لا تقسروا أولادكم أن يكونوا على مثالكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم» ويقول «كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر يركب ولا ضرع فيحلب» الحكمة (١).

وأخيراً يقول الإمام علي بن أبي طالب: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» وهو ما أثر أيضاً عن الرسول صلى الله عليه وآله

وربما كان هذا القول مدخل البحث في الزهد لدى الإمام عليه السلام.

## جدلية الزهد لدى الإمام

عند الإمام علي بن أبي طالب ظل الزهد في الدنيا موقفاً فكرياً محضاً..

وإلا فقد عرف عنه إقباله على الحياة الاجتماعية وأداء دوره كاملاً في حياة مجتمع المسلمين وتوليه المرجعية الدينية والثقافية ثم الزواج والتسري.

هناك جانب آخر في حياته العامة هو تمسكه بخشونة العيش فهو كما يصفه ابن أبي الحديد «سيد الزهاد، وبدل الأبدال، تشد إليه الرحال وعنده تنفض الأحلاس ما شبع من طعام قط، وكان أخشن الناس مأكلاً وملبساً، قال عبد الله بن أبي رافع، دخلت إليه يوم عيد فقدم جراباً مختوماً، فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً، فقدم فأكل، فقلت: يا أمير المؤمنين كيف تختمه؟ قال: خفت هذين الولدين أن يلتاه بسمن أو بزيت،(. .) ولا يأكل اللحم إلا قليلاً ويقول: لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان، وكان مع ذلك أشد الناس قوّة وأعظمهم أبداً(. .)، وكان أعبد الناس وأكثرهم صلاة وصوماً(. .) بسط له نطع ليلة الهرير في صفين فصلى عليه والسهام تقع بين يديه وتمر على صماخيه يميناً وشمالاً(. .) كان بشر الوجه طلق المحيا والتبسم فهو المضروب بذلك المثل فيه» [صورة لحياة الإمام وشخصيته تصل به إلى درجة الغموض والسمو إلى حد الإعجاز، وهو ما استحق أن تصل فيه طوائف إلى حد الغلو وطوائف أخرى (وهم الأقلية) إلى حد الخصومة والحرب في حياته، والعداوة والهلاك ومحاربة شيعته بعد رحيله حتى اليوم].

يرسم بعض الباحثين المسلمين وكثير من المستشرقين صورة للزهد على أنه حالة سلبية من الدنيا، استدعت الانسحاب من الحياة العامة احتجاجاً على ظلم السلطة، أو تفاهة الحياة ذاتها كونها مجرد ممر للآخرة، والانخراط في العبادة والعزلة عن البشر حتى الموت. ولم تكن تلك صورة الزهد عند الإمام علي وشيعته المشهورين في مجتمع المدينة المنورة، كان موقفاً عقلياً محضاً مرتبطاً بالواجب والقدوة الصالحة، بأن يكون السلوك الحياتي لهم في الأكل والملبس ممثلاً للحد الأدنى من معيشة فقراء المسلمين، أن يكونوا آخر من يأكل أو ينام وأول من يقبل على الجهاد والاستشهاد إذن هو التزام بجوهر

الإسلام، مرتبط بتحليل علمي لماهية الحياة الدنيا، والاتصال بالغاية التي عبر عنها الإسلام من وظيفتها في المطلق ودور الإنسان فيها. لهذا كان الزهد موقفاً شخصياً لدى الإمام، نابعاً من عرفانه، أوصله للمسلمين مخاطباً عقولهم وحسب، وقد عبر عنه الإمام الصادق عليه السلام أصدق تعبير في حديثه الشهير[1]: عن حماد بن عثمان قال: «حضرت أبا عبد الله عليه السلام وقال له رجل: أصلحك الله ذكرت عليَّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وما أشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجديد، فقال له: إن علي بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر عليه ولو لبس مثل ذلك اليوم شهر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله، غير أن قائمنا أهل البيت عليهم السلام إذا قام لبس ثياب علي عليه السلام وسار بسيرة علي عليه السلام».

في نهج البلاغة ما يكفي لتقصي وجهة نظر علي عليه السلام في الدنيا، وإذا نظرنا في أوائل أقواله (الحكمة ٦٢، ٦٣) نجده يخاطب أصحاب العقول تحديداً حول ماهية الدنيا حين يقول «. . . إبتلي الناس بها فتنة فما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه، فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل بينما تراه سابغاً حتى قلص وزائداً حتى نقص».

من هذه الكلمات القليلة التي تصخب بأجمل صورة مرسومة (عرفانية) عن دنيانا، نجد تشبيه الدنيا بالظل الذي سريعاً ما يتقلص بغياب الشمس أو حركتها، يربط الحياة الإنسانية بالزمن السريع كلمحة عين في حساب المطلق، فهل يجد العاقل فيها إلاّ عبوراً نحو الآخرة بل إنه عبور سريع لا يترك العابر فيه أثراً إلا عمله وإنتاجه. هي خلاصة تجربة عقلية وعرفان ليس له حدود.

ويقول واصفاً العقلاء من البشر «وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار

---

(١) الكافي الأصول ج٢ ص٤١١.

فاستبدلوا، فإن الله سبحانه لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت، وإن غاية تنقصها اللحظة وتهديها الساعة لجديرة بقصر المدة، وإن غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار لحري بسرعة الأوبة..».

هذا هو جوهر الإسلام، وإن أرفق الإمام استدراكاً بالغ الأهمية منعاً للمسلم من الشعور بعبثية الدنيا وغاية خلقها (لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى) مذكراً بالأوبة السريعة إلى حضن المطلق ما دام الأجل معروفاً!! ومع ذلك.. فإن الجسد الإنساني تظل الدنيا داره الأولى والأخيرة، ولعلّ ذلك من أكبر كوابح العقل، أليس في تنازعهما غاية العذاب فيها مترافقاً مع ذروة اللذة التي يتيحها هذا الجسد ذاته لصاحبه؟ هو الصراع الدائم إذن حتى الرحيل، وكم يتعذب العاقل العارف وقد حسم نتيجة الصراع مبكراً، فلم يعد يرضيه شيء فيها، أما عليّ فقد خوّض في درب واجبه المرسوم عليه من الله سبحانه لكي يؤديه حتى مضى شهيداً، موقناً بلا عبثية الحياة، وأن الله لا يترك عباده سدى.. وأن الغائية تواكب هذا المشهد السريع اسدال الستارة عليه (الحياة) لقد ظل الإمام خير من استطاع توصيل إدراكه هذا إلى الآخرين، أمّا كل من جاء بعده فقد كانوا عيالاً عليه في التعبير عنه. فهم مدرسة طويلة عريضة من العرفانيين الذين أثروا الحضارة الإسلامية والإنسانية.

## أطياف مناهج تفسيرات الغاية:

بني نهج واسع من الفلسفة الإسلامية على كلمات الإمام، وتداخلت في هذا النهج فلسفات الحضارات الأخرى كالهندية والرومانية واليونانية، وتأسست مدرسة أهل بيت النبي، مباشرة بعيد رحيله الفاجع في ١٩ رمضان (٤٠ للهجرة)، وترافق مع ذلك تأسيس مدرسة التصوف الإسلامي السنّي، وكان لا بد للغلو في الإمام فلسفة وسلوكاً أن يأخذ طريقه في هذا الاتجاه، وكان لكل ذلك اختلاط بالسياسة وعشرات الشهداء من كبار المفكرين،

والآلاف من الأتباع سقطوا في سبيل تأكيد حقهم في التعبير عما يعتقدون أنه الحق، وتحول فكر الإمام في هذه المسألة تحديداً إلى رمز للمقاومة ضد الدولة الأموية، تماماً كما أصبح (الرضا من آل محمد) شعاراً لإسقاطها بعد ذلك من قبل المعارضة جميعها.

وهكذا يمكن أن نعدد بدءاً: الكيسانية ـ مدرسة الرأي ـ القدرية (معبد الجهني ـ غيلان الدمشقي ـ عمرو المقصوص) ـ الجهمية ـ المعتزلة ـ الفلاسفة العرب ـ المتصوفة: الإشراق وحدة الوجود ـ اخوان الصفا ونظرية المعرفة ـ نظرية ابن سينا في الوجود والماهية الخ...

هنا يمكن أن نضع صورة لمنهجين بارزين أولهما استند على خطاب الإمام عليه السلام المعرفي وهو علم الكلام باعتراف مؤسسيه[1] بأن فكرهم المعتزلي مؤسس على أقوال الإمام، ثم مدرسة التصوف التي يعود كل أقطابها إليه أيضاً، هذا الاتجاه العربي الإسلامي الأصيل رافقه عند التأسيس اتجاه آخر اعتمد عملياً على ترجمة الكتب المعرفية من مختلف بلاد العالم بتشجيع من مؤسسة الخلافة (هارون الرشيد والمأمون) لاعتقادها أن حركة الترجمة يمكن لها أن تقف في وجه المد الفكري الشيعي[2]، فبرز طريق الفلسفة بأساطينه المعروفين كالرازي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم.

يختلف علم الكلام عن الفلسفة (لمجرد التوضيح) رغم اتصالهما معاً بأداة وحيدة هي العقل وأن متأخري المتكلمين قرأوا كتب الفلسفة المترجمة كأبي الهذيل العلاف وأنهما شكلا مراحل مستقلة نسبياً عن بعضهما. فالفلسفة انطلقت من المفاهيم المجردة لا من القضايا التي استوجبت إثارتها أسئلة في

---

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (شرح الأصول الخمسة). وطبقات المعتزلة م. س.

(٢) راجع محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ط٣ بيروت ١٩٨٨.

القرآن الكريم ونضج حركة الفكر في المجتمع الإسلامي كما هو علم الكلام. ولكن التناقض بينهما اتسع عندما نهج الأشاعرة التحدي للفلسفة ذاتها واعتبروا علم الكلام أحد وسائلها ووجهوا له الاتهام وصولاً إلى التكفير[1].

إن من المشهور أن مواجهة هذا العلم العقلي، الذي أراد الإجابة على أسئلة العقل وتحليل الغاية من الحياة، جاء تحت سقف مخالفته لتعاليم الإسلام، وأن الصحابة في عصر النبوة لم يشتغلوا به، وأن لا ضرورة للتفكير بالغاية من الوجود ولا في الذات الإلهية أو الزمن. والحقيقة أن هذا المنهج المحافظ انتصر أخيراً في زمن الغزالي، بكتبه الشهيرة، فضائح الباطنية وتهافت الفلاسفة وغيرهما، خاصة في المشرق الإسلامي[2]، ودخلت المنطقة في عصر مظلم بكل المقاييس، تحت ظلال حرب معلنة مستمرة، إن على المفكرين أو على تراث الإمام عليه السلام ذاته والعمل على طمسه والتشكيك فيه.

## عودة إلى الزهد

تحدث علي بن أبي طالب عن الدنيا كثيراً وذمها أكثر ووصى بالزهد فيها، وتجد في أعماله شبه الكاملة عناوين للزهد وذم الدنيا مما يشكل تراثاً غنياً أبعد ما يكون عن صلة بالوضع الاجتماعي أو السياسي القائم في عهده، هي الدنيا كما هي عليه «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن، ومن

---

(١) راجع الإمام الصادق بين الحقيقة والنفي م.س بحث علم الكلام في عصره الذهبي.

(٢) قام ابن رشد في المغرب بالرد على الغزالي بكتابه الشهير تهافت التهافت، ومعروف أن العالم الإسلامي انحدر بعد ذلك إلى ما سمي عصر الانحطاط الذي ضيق على كل نشاط فكري وعطل النسخ (الطباعة)، حتى إن آراء الغزالي دخلت ضمن مؤلفات التيار الرجعي في الكنيسة المسيحية لمحاربة الفلسفة اليونانية هناك، ولمزيد من التفاصيل راجع «توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، القاهرة ١٩٥٨، ص١١٠».

ساعاها فاتته ومن قعد عنها واتته، ومن أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته» الخطبة ٨١.

هذه الدنيا التي تحوي المتناقضات الواجب على العاقل أن يبصر بها لكي تمنحه البصيرة والكشف والعلم، وفي المقابل فإن هو غرق في متعها وأخذ بظواهرها غاب إلى الجهالة، فأي المسلكين يختار الإنسان؟ هو وحده صاحب القرار الأول والأخير.

ويضيف الإمام «أيها الناس الزهادة قصر الأمل والشكر عند النعم، والورع عن المحارم فإن عزب ذلك عنكم فلا يغلب الحرام صبركم ولا تنسوا عند النعم شكركم، فقد أعذر الله إليكم بحجج ظاهرة مسفرة، وكتب بارزة العذر واضحة» الخطبة ٨٠.

إنه يطالب بالحد الأدنى لمن أراد الدنيا، ـ وهو يعلم أنّ الغالبية العظمى من عاشقيها، ولهم العذر ـ، الشكر عند النعم واجتناب المحارم والصبر، فليس أمام الإنسان وهو المخيّر بالإطلاق إلا أن يختار الأفضل في دنياه تحقيقاً لإنسانيته. هو ينطلق بوضوح من حرية الكائن في الاختيار ما دام يمتلك العقل وأمامه تعاليم الله سبحانه، فهل في هذا النص أية ملامح لرفض الدنيا أو متعها أو الاعتزال عنها؟ زهد الإمام في الدنيا إيجابي بالكامل مقرون بجوهر الإيمان والاسلام قرآناً وسنة ولا يمكن أن يؤدي فهمه إلا إلى هذا السبيل.

وإذا استعرضنا كل نصوصه في هذا الموضوع هل يمكن أن نجد إلا ما أسلفنا؟

«عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا، التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والمبلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها وإنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلا» الخطبة ٩٨.

إلى أن يقول «فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخرها ولا تعجبوا بزينتها

ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها..».

رفض الدنيا عنده عليه السلام هو مجرد فهمها على حقيقتها لغاية اساسية تتصل بخالق الدنيا ألا وهي «استعينوا الله على أداء واجب حقه وما لا يحصى من أعداد نعمه وإحسانه».

الداعية علي عليه السلام يربط كل لحظة من الحياة على الأرض بالخالق، وهذه مهمته وواجبه، وإلا فلماذا ارسل الرسل، واعتبرت مكارم الأخلاق والقيم والقوانين عماد الحياة ونظامها حتى لا تتحول إلى مجرد غابة يمزق القوي فيها الضعيف. رفض الدنيا غايته العودة إلى الله وقوانينه، هذا الرفض يمس الجانب الوحشي فيها، وقد اشار إليه الإمام، التنافس في العز والفخار، مما يؤدي إلى الكبر والتيه وسحق الآخرين وتدميرهم في سبيل الوصول إلى مجرد متعة السلطة والعلوّ الكاذب على الآخر وإذلاله، وإلا، فإن هذه الدنيا درب الوصول إلى الله والسعادة المطلقة بما في ذلك المطالبة بالسلطة كي يقوم العارف بالله بسياسة العباد وإسعادهم بتحقيق قيم الخير والعدالة. ولهذا طالب الإمام بالخلافة، وقد عبر عن ذلك بوضوح «ما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم» (الشقشقية) أو الخطبة (١٣١): «لنرد معالم دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومون من عبادك، وتقام المعطلة من حدودك..»

هو إذن امتلاك سلطة إقرار العدالة بكف يد الظالم وإنصاف المظلوم.. أداء الواجب الأخلاقي ونشر الخير. لهذا فالإمام عليه السلام يطلب من الإنسان النضال في سبيل الوصول إلى سدة الحكم من أجل ذلك وحده متبصراً بما حوله مؤدياً واجبه، متجهاً نحو الكمال، ولم تكن حياة الإمام نظرية وتطبيقاً إلا كذلك.

هل كان الإمام وهو يذم الدنيا مع مفهوم الفقر المادي؟ فلننظر إلى هذا

الدعاء (الخطبة ٢١٦) الرائع «اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبذل جاهي بالإقتار، فأسترزق طالبي رزقك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلى بحمد من أعطاني وأفتتن بذم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله ولي الإعطاء والمنع . . إنك على كل شيء قدير».

الزهد عنده يرقى عن وضعية الإسفاف الإنساني واستجداء الناس، فاليسار يعني العمل للحصول على المال الذي يكفي الإنسان ذل السؤال ويصون وجهه عن الذل والاقتار كي لا يطلب معونة من شرار خلقه ويضطر إلى مدحهم. وليس من نص للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أقرب إلى روحه المبدعة من هذا، وليس من زهد ايجابي كزهده المؤطر بالنضال الدؤوب في سبيل عيش كريم له ولمن ولي أمورهم.

ولكن . . والإمام يُغرق في ذم الدنيا وتحليلها عقلياً في بعض خطبه الشهيرة (١١٢) (١١٠) ألا يدفع ذلك سامعيه إلى اليأس منها والهروب إلى السلبية والكف عن الصراع والارتكاس إلى قناعةٍ بعبثيتها ولا جدواها، والغرق في العبادة وحسب كما فعل الحسن البصري على سبيل المثال؟ ثم ألا يثير الحيرة حديث بالغ الأهمية للإمام (الحكمة ٢٧) «أفضل الزهد اخفاء الزهد».

ألا يدفع كلام كهذا (بل أرهقتهم بالفوادح، وأوهنتهم بالتوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفرتهم للمناخر ووطنتهم بالمناسم . . .» ألا يدفع إلى عكس ما أراده سلام الله عليه؟

والواقع أن تياراً كبيرا من المسلمين فعلوا ذلك، ولم يكن الخوارج والزهاد المشهورين وأتباعهم إلا من أتباعه أصلاً، فخرجوا عن طريقه، واضطر إلى قتالهم وقتلهم (كما رأينا في الفصل الأول) وهو مترع بالألم لسلوكه ذاك.

أسئلة تقسر الباحث في الإمام على طرحها، ووجدت من أجاب عليها بأشكال شتى سابقاً وستجد لاحقاً، ولن يصل أحد إلى جواب شاف أبداً.. (فبئست الدار لمن لم يتهمها ولم يكن فيها على وجل منها) ولكنها طريق السعادة أيضاً، طريق العرفان، ولولا حكمة الله أن يعبد فيها لما خلقها، حتى والإمام يقول «من هوان الدنيا على الله أنّه لا يعصى إلا فيها ولا يُنال ما عنده إلا بتركها»، الحكمة ٣٧٧ أو عندما يقول ٣٨٣ «إزهد في الدنيا يبصرك الله عوراتها، ولا تغفل فلست بمغفول عنك» فجوهر العبادة والعرفان الحقيقي والمجاهدة فيه هنا. وما في الآخرة إلا عبادة دون مجاهدة، وعذاب مرير لمن لم يعبد الله. ولم يفرض الله العذاب إلا من خلال هذا الممر، وكذلك الثواب، فكيف يمكن شفاء الصدر بجواب شاف؟

## الزهد تيار إسلامي

من أجل توصيف مخاض تأثير مدرسة الإمام في الزهد بتكوين التيارات الإسلامية (وليس للإجابة على الأسئلة السابقة) يمكن قبول تقسيم النوبختي[1] للزهاد المسلمين إلى تيارين: أولهما من خالفوا الإمام عليه السلام وقال عنهم قولته الشهيرة: (خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل) الحكمة ١٢، فقد اعتبر كلاً من سعد بن مالك، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن سلمة الأنصاري وأسامة بن زيد (مولى الرسول) وحسان بن ثابت (شاعر الرسول) وعبد الله بن سلام وهم الزهاد الشهيرون الذين قالوا لا يحل قتال علي ولا القتال معه، اعتبرهم محايدين تمسكوا بظاهر حديث لرسول الله صلى الله عليه وآله يرويه سعد بن أبي وقاص هكذا «إن رسول الله أمرني إذا اختلف الناس، أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض الجدار، فإذا انقطع أتيت منزلي

---

(١) الحسن بن موسى النوبختي، فرق الشيعة، طبعة استانبول ١٩٣١، تحقيق ريتر، ص٥.

فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية أو منية قاضية»[1].

هذا التيار من صحابة النبي، تحت ظل إدانة الإمام لهم، يشكلون تعزيزاً للرأي الذي يؤكد طبيعة زهد الإمام المتصل بأداء حقوق هذه الدنيا، بما في ذلك نصرة الحق بالوقوف في وجه الباطل وليس الانسحاب من أرض المعركة تحت ذريعة الزهد في الدنيا.

وفي هذا المجال يجري بحث طبيعة سلوك زهاد كبار من أمثال الحسن البصري الذي يعتبر من التابعين ومن تلامذة الإمام المخلصين، ومن الذين قدموا له النصيحة بعدم الخروج لحرب خصومه في البصرة والشام[2]. لقد أدى هذا الموقف بهذا الزاهد إلى ما سماه بعضهم بعقدة الذنب على خذلانهم للحق[3] وانحدروا إلى هوّة حزن عميق يصفه الجاحظ في البيان والتبيين عن سمة الحسن «إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أسير قد أُمر بضرب عنقه وكان إذا ذكرت النار عنده فكانما لم تخلق إلا له»، وقد سئل مرّة عن سبب حزنه فقال إن المؤمن لا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين: بين ذنب مضى لا يدري ما الله يصنع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك» كما ورد في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني.

ولكنه زهد يتشابه مع زهد الإمام في ناحية الحزن، فقد عرف عن علي ذلك.. الحكمة ٧٤.

من خبر ضرار بن ضمرة الضبابي عند دخوله على معاوية ومسألته له عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: فاشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام ط١ القاهرة ١٩٦١، ص٢٥٥.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٣، طبع مصر ١٩٢٤، ص١٩٣.

(٣) النزعات المادية، م.س، ص١٥٢.

سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين ويقول «يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت؟ أم إليَّ تشوفت؟ لا حان حينك، هيهات غري غيري لا حاجة لي فيك قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلة الزاد وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد».

ولكن الإمام رغم ذلك لم يعتزل الدنيا. ولا يمكن في هذا المورد أيضاً قبول رأي المستشرقين «بأن الميل إلى الزهد كان مرتبطاً بالثورة على السلطة القائمة»[1] لأن كثيراً من المسلمين لجأوا إليه احتجاجاً على ما ينكرون من حكومة ونظام إلى الاعتكاف والزهد. ثاني التيارين هو ذاك التيار من الزهاد الذين قاتلوا مع الإمام في صفين والجمل والنهروان وفيهم عمار بن ياسر ومالك الأشتر وغيرهما، وكذلك آخرون من زهاد الكوفة العظام الذين قاتلوا بلسانهم مثل حجر بن عدي وغيره، لم يؤثر عنهم ربط زهدهم بالثورة على السلطة الأموية. لقد كانوا تلامذة الإمام وأتباعه والذين توحدوا معه، وشكلوا تياراً فكرياً للزهد نابعاً من جوهر الإسلام لا علاقة للثورة أو المعارضة للنظام القائم دخل فيه.

فهل من المصادفة وحدها إذاً أن يكون تيار الزهد ـ وقد ارتبط جذرياً بمدرسة الإمام ـ قلب المعارضة ثم الثورة على النظام الأموي نصرة للإمام وأبنائه حتى الإمام الثاني عشر(عج)؟

تيار الزهد في عهد الإمام ـ ولسنا في وارد بحث التصوف ـ انطلق من موقف الإمام ذاته، وكانت له رموزه، إن في صفوف المعتزلية (المحايدين) أم في صفوف المقاتلين معه في معاركه العديدة التي خاضها، وقد ثبت بالفعل

---

(١) اجنس غولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف وآخرون دار الكاتب المصري ١٩٤٦، ص١٤٧.

أن كثيراً من أولئك الذين اعتزلوا عبروا عن ندمهم العميق على موقفهم ذاك، ولو بعد فوات الأوان (كما فعل الحسن البصري) عندما اتخذوا مسلك الزهد تكفيراً وقهراً للنفس وملجأ للتكفير عن ذنب يؤرق ضمائرهم. ولعلّ هذا يقودنا إلى التذكير بموقف مماثل للآلاف منهم من أهل الكوفة، أطلقوا على أنفسهم اسم (التوابون) قاتلوا النظام الأموي وبذلوا أرواحهم في معركة (عين الوردة) تكفيراً لموقف خذلانهم للإمام الحسين عليه السلام في كربلاء[1]، وقد تركوه وحيداً يواجه قدره المفجع.

الزهد بالترجيح لم يكن لدى تياراته تعبيراً عن موقف سياسي، تماماً ـ كما اعترف الباحثون العرب ـ بأن منبعه في الأصل فكري، إن لدى الإمام أو لدى أتباعه شابه تداخل مع الموقف السياسي.

ولعل نظرية الربط السياسي والاجتماعي لهذا السلوك الإسلامي تحمل جاذبية خاصة، وقد يكون لدى نماذج من الزهاد المسلمين أسباباً للميل إليه بسبب رؤيتهم لعبثية (الحياة) عندما انتصر باطل الأمويين على حق أهل بيت النبي، بل لمعاينتهم لسيطرة مظاهر الفساد على الحياة الاجتماعية الإسلامية، ولكن المحصلة النهائية للمسألة برمتها أن الإمام وتلامذته وأتباعه ومدرسته في وثائقها العديدة الشهيرة، أبرزت الزهد سلوكاً نابعاً من الإسلام، منسجماً مع التطبيق للنظرية الإسلامية في السلوك اليومي، وأن كل ما يعاكس ذلك خاطىء، ليس لأن غير الزاهد على خطأ مطلق، ولكن لأن هذا الإنسان في السلطة يغرق في ترف يقوده في النهاية إلى التمايز عن الرعية، بل وإلى الانغماس في الظلم وسلب الحقوق وبالتالي الخروج عن الإسلام.

---

(١) راجع: زهير غزاوي، الإمام موسى بن جعفر الكاظم، دمشق ٢٠٠٠، ص٣٩.

## الزهد والسعادة

يقول الإمام الحكمة ٤٣١ «الزهد كله بين كلمتين من القرآن، قال الله سبحانه﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم ييأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد من طرفيه».

ولكن هل تخاطب الآية الكريمة إلا أُولي العزم من البشر، ومن هو الإنسان الذي يستطيع منع نفسه من الحزن والفرح، إن للمصيبة، أو للجائزة؟؟

وبهذا الاعتبار هل تمكن الإمام عليه السلام من تقمص هذا الزهد في الفرح والحزن معاً على أبعد تقدير، وليس في الحد الأوسط منه؟

في مناجاته لرسول الله صلى الله عليه وآله عند وفاة فاطمة عليها السلام ودفنها يقول (الخطبة ١٩٣):

«السلام عليك يا رسول الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك، قلّ يا رسول الله عن صفيتك صبري، ورقّ عنها تجلدي، إلا أن لي في الناس بعظم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزّ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك، وفاضت بين نحري وصدري نفسك[1] (. . .) أما حزني فسرمد وأما ليلي فمسهّد إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم. . .».

هل أعمق من حزن كهذا عبر عنه الإمام السابق القامة في وداع رفيقة

---

(١) يذكرنا حديث الإمام علي عليه السلام هذا بكونه مناقضاً حديث السيدة عائشة الشهير الوارد في البخاري: مات رسول الله بين سحري ونحري. . .»، وغير خاف على أحد ذاك الصراع المرير بينها وبينه الذي توج بحرب الجمل، وشماتتها بموته، وعملها ضدّه وتحريضها الناس عليه، (حتى قيل) إن أحاديث الإمام الواردة في نهج البلاغة في تحليل طبيعة المرأة كانت موجهة إليها نموذجاً. . . راجع: مرتضى العسكري، أحاديث السيدة عائشة.

دربه، وهل كان باستطاعته خوض تجربة السعادة المطلقة في الزهد بوضع حاجب صلد في نفسه أمام الحزن والفرح؟ وهل أجلى من حزن رسول الله عند وفاة ابنه إبراهيم (الطفل)؟

الحزن حالة سلبية ما في ذلك شك، ولكنه في الآن ذاته موقف إنساني من الحياة ومصائبها أما الفرح فهو إيجابي ويتصل بالسعادة برباط وثيق، فلا سعادة بلا فرح، وتبقى تعريفات الإمام للزهد (كما تقدم) مجرد وصل هذا السلوك بحده الأعلى الذي يجعل من الحياة ذاتها بكل ما فيها من افراح وأتراح شيئاً هامشياً لدى الزاهد المتجه إلى الجوهري الأصيل اللامتزمن الكامن في صميم الأشياء ومحركها الذي لا يتحرك؛ الله الخالق منبع السعادة الحقيقية.

عندما يتصل العاقل العارف بكنه الأشياء وخالقها وغاية هذا الخلق يتجاوز حدي الفرح والحزن على التافه من الأمور التي تتعلق بهذه الحياة التي تقاس بومضة زمنية في تيار الأزل، عندها يتسامى إلى درجة المعرفة العليا ويتحرر من الزمن، أو يقترب حثيثاً من هذا الانسلاخ عنه نحو المطلق اللامتزمن، عندها فقط لا يفرح بما آتاه من المال أو المجد، ولا يحزن لما نزل به من المصائب، لأن كل ذلك مجرد خدوش تافهة في جسد الحقيقة الممثلة للسعادة الفياضة التي ما بعدها سعادة. الاتصال بالخالق الكامل المطلق. فكيف تبدو الدنيا أمام العارف بكل ذلك؟ أليست هي مجرد نقطة عز كما عبر عنها علي بن أبي طالب في الشقشقية.

ولن تجد كائناً أشد من علي احتقاراً لهذه الدنيا، في زهده بها وذروة سعادته باحتقارها وتوصيفها بما تستحقه مقارنة بالخالق المطلق وسعادة الاتصال به.

النفس الإنسانية إذاً في حالة ترويض مريرة لكي تخبر الزهد: الفرح،

الحزن، ثم الرغبات التي تحركها الدوافع المكوّنة لطبيعة الجسد الإنساني المادي المؤطر للروح المجاهدة التي تسعى إلى تطويع لهذا الجسد عبر المعرفة والعرفان لمقاربة الله سبحانه عن طريق الزهد في الدنيا ومتعها التي لن يجد هذا الجسد متعة إلا فيها.

يقول الإمام (الحكمة ٣٥١): «يا أسرى الرغبة أقصروا فإن المعرج على الدنيا لا يروعه منها إلا صريف أنياب الحدثان، أيها الناس تولوا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها عن ضراوة عاداتها».

تأديب النفس ولجم عاداتها وضراوة رغباتها نحو المتع الدنيوية ففيه السعادة الحقيقية لمن يستطيع ذلك.. أن يحقق نصره الأكبر على نفسه ليسمو بها ويستشعر هذا السمو ويسعد بذلك.

بل إن الإمام يطلب من أتباعه أكثر من ذلك، عندما يوضح سبل كبح جماح النفس حتى باتجاه الأولاد والزوجة ليقول (الحكمة ٣٤٤)، «لا تجعلن أكثر شغلك بأهلك وولدك فإن يكن أهلك وولدك أولياء الله فإن الله لا يضيع أولياءه، وأن يكونوا أعداء الله فما همك وشغلك بأعداء الله؟!».

هل إن سبيل السعادة عند الإمام يتصل بسلوك درب المستحيل؟ وهل هذا الدرب وحده هو الطريق إلى الله؟ وكم من البشر يستطيع ذلك؟ وهل يخاطب الإمام النخبة القادرة وحدها؟

محصلة ما تقدم، في التحليل الأخير، موقف عقلي من الدنيا، موقف العارف بصعوبة المسلك إلى درجة معاكسته لطبيعة جسد خلقه الله ليؤدي وظيفته كاملة في إطار ما يرضى الله، فكيف يمكن أن يعمل هذا الإنسان لدنياه كأنما يعيش أبداً، إذا كان ما يوصي به الإمام عليه السلام عكس ذلك ظاهرياً؟ فلن تكتسب السعادة الحقيقية إلا بمجاهدة الصعب والوعر، الجهاد الأكبر كما

أوضحه رسول الله ﷺ جهاد النفس[1].

## بحث مقارن حول نظرية السعادة في الزهد

في السابقين تقدمت مذاهب في الفلسفة اليونانية بتحليل يتضمن أفكاراً مشابهة . . .

فالمدرستان الأبيقورية والرواقية ثم الأفلاطونية الجديدة عالجتا مسألة السعادة (اللذة) والزهد العقلاني . . .

عند الرواقيين يعتبر التحقيق العقلي للغاية التي تتوقف فحسب على الوظيفة الأخلاقية التي يؤديها الجانب العقلي من الإنسان، وأن الخطر الأكبر الذي يتهدد الاخلاق العقلية إنما يأتي من جانب الانفعالات: اللذة، الألم، الرغبة، الخوف، صادرة عن الاندفاعات التي تثيرها دوافع خارجية تطغى على العقل وتحرفه عن الحكم السليم، بل إن أقريسبوس (أحد قطبي المذهب مع زينون الكيتوى) يعتبر الانفعالات تلك عقلاً شريراً منشأ عن الأحكام الخاطئة.

ويعتبر يوسيدونيوس أن الانفعالات جانب انساني يجب أن يستأصل[2]، ولقد اعتبر هؤلاء أن الفضيلة التي تقود إلى السعادة بالخير قائمة على المعرفة. والحقيقة أن المعرفة عند هذا المذهب تتصل بالخالق، وكانت الفلسفة اليونانية قد توصلت عقلانياً إلى الواجب الوجود، وهو الله الخالق وأن كل سعادة إنما تتصل بمعرفته. هذه الفلسفة اتصلت بالمسيحية، عندما تلاحمت مع الأرسطية (نسبة إلى أرسطو)، واعتبر بعضهم أن سنيكا (أحد

---

(١) قال رسول الله ﷺ بعد عودته من آخر غزواته «عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . . .» وفسره بجهاد النفس.

(٢) راجع: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، مكتبة الانجلو مصرية، ١٩٦٣.

أكبر فلاسفتها المتأخرين) متصلا بالقديس بولص أحد تلامذة السيد المسيح المهاجر إلى أوروبا وظهرت كذلك في الفلاسفة اليهود أمثال سبينوزا[1]، الفيلسوف اليهودي الشهير.

محبة الدنيا أو طغيانها في الإنسان إلى درجة الانحراف عن الغاية ناتجة عن الجسد موطن الانفعالات التي تؤثر في العقل، وهذا الأخير ينفصل مجاهداً التلاحم مع الحكمة، يسعى لكبح جماحها، وأن محصلة ذلك في الفضيلة هو اكتساب (اللذة) كما أوضحها أبيقور. . لذّة الأخلاق، والحياة الفاضلة والزهد، لقد اعتبر هؤلاء جميعاً اللذة العقلية، لذة العرفان، والقرب من الله تهوّن آلام الحياة ومصائبها لأنها تعويض الإنسان المتفوق على آلامه بنشوة العقل.

إن صعود العرفان (في العقل) هو السعادة الكاملة، وقد ظهر ذلك في تيار الزهد ثم التصوف الإسلامي وترقى كما هو معروف إلى درجة ما سموه بالكشف اللاعقلي، أو معرفة الحقيقة دون المرور بالعقل كوسيط، ويتم ذلك بأداء العبادات وطقوسها والبعد عن هموم الحياة وارتباطاتها كالأسرة والمال والسلطة وغيرها. ومع ذلك فهذا التيار الهائل من النظرية الصوفية برموزه المعروفة بدءاً من الحسن البصري وصولاً إلى رابعة العدوية، مروراً بمحي الدين بن عربي والسهروردي والجنيد والرفاعي والكيلاني وغيرهم كثير، وقد اعتبروا الإمام أستاذهم الأوحد، أثروا الحضارة العربية الإسلامية بفيض من الفلسفات والكلام والشعر لم يعرف مثله في أية حضارة أخرى.

وإذا نظرنا إلى أقربهم للإمام وهو عامر بن عبد قيس الذي نسب إليه بعضهم قول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام «لو كشف لي الغطاء ما ازددت

---

(١) المرجع، ذاته، ص١٦٨.

يقينا»[1]، نجده في ذروة الحزن ومهاجمة الدنيا وذمها.

ويقول «اللهم في الدنيا الهموم والأحزان، وفي الآخرة العذاب والحساب، فأين الروح والفرح».

ورغم ذلك فإن هذا الإنسان يبلغ قمة السعادة في زهده عندما يقول «أحببت الله حباً سهل علي كل مصيبة ورضاني بكل قضية»[2].. السعادة في ابتعاده عن الدنيا والانسحاب منها والزهد فيها طلباً لمرضاة الله، بما في ذلك ما ضمنوه هو وأقرانه من الزهاد من دعائهم لنزع شهوة النساء من قلوبهم، أو كما كان الحسن البصري يردد «إذا أراد الله بعبد خيراً لم يشغله بأهل ولا ولد»[3].

ومن هؤلاء الزهاد المشهورين الأقرب عهداً بالإمام: رابعة العدوية، الامرأة الزاهدة الشاعرة التي أثر عنها أجمل الشعر الإلهي، والتي عدت محنة الجواري قبل أن يغرقها الحب بالله[4] والتي تقول عن ذروة سعادتها بالزهد والانشغال والتفرغ لعبادة الله سبحانه:

فأما الذي أنت أهل له ... فشغلك للنفس عمن سواكا

ومنهم كان تلميذ الإمام الشهير كميل بن زياد النخعي الذي نقل عنه ما سمي بدعاء كميل الشهير الذي يدعو به أتباع مدرسة أهل البيت ليلة الجمعة من كل أسبوع[5]، وهو دعاء علمه له الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام موصياً

---

(١) أبو نصر السراج الطوسي (توفي ٣٧٨هـ)، كتاب اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود، طه عبد الباقي سرور القاهرة ١٩٦٠، ص١٠٢.

(٢) راجع: عبد الرؤوف المناوي «الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية» القاهرة ١٩٣٨ ج١، ص١٦٩.

(٣) عبد الوهاب الشعراني (ت٩٧٣هـ) الطبقات الكبرى، القاهرة، بلا تاريخ ص٢٥ ج١.

(٤) راجع: عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي، رابعة العدوية، القاهرة ١٩٦٢.

(٥) قبسات من نور العاشقين، بلا مؤلف، دار الثقلين، بيروت، لبنان.

إياه بحفظه والدعاء به ولو مرة في العمر، إضافة إلى وصايا أخرى نجدها في النهج.

هؤلاء.. وقد أثر عنهم بلوغهم ذروة السعادة من خلال ممارستهم لسلوك الزهد والتفرغ للعبادة وهجر الدنيا وذمها، عبروا عن تلك السعادة بما أثر عنهم من نثر وشعر وهو القليل مما وصلنا والكثير مما ضاع في مجاهل التاريخ.

من أجمل ما في دعاء كميل ـ والدعاء من العبادة، والتوسل ذروتها لاتصال الداعي بالمدعو إليه برباط وثيق نبه إليه رسول الله ﷺ ـ ذلك الوصف الجميل عبر صور بلاغته لله سبحانه، بما يجعل من هذا التوسل بحد ذاته، مصدراً ملهماً للسعادة، وتحليلاً وثيقاً لطبيعة الدنيا وعلاقة العبد بها ومآله الأخير إلى ذات الله.

«اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء وبقوتك التي قهرت بها كل شيء وخضع لها كل شيء وذل لها كل شيء، وبجبروتك التي غلبت بها كل شيء وبعزتك التي لا يقوم لها شيء وبعظمتك التي ملأت كل شيء، وبسلطانك الذي علا كل شيء، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء، وبأسمائك التي ملأت أركان كل شيء وبعلمك الذي أحاط بكل شيء وبنور وجهك الذي أضاء له كل شيء(...)».

هذا التوسل بصفات الله التي هي ذاته أحد أبرز سمات أسلوب الإمام علي عليه السلام في العبادة «اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء..».

«اللهم عظم بلائي وأفرط بي سوء حالي، وقصرت بي أعمالي وقعدت بي أغلالي وحبسني عن نفعي بعد أملي وخدعتني الدنيا بغرورها ونفسي

بجنايتها ومطالي يا سيدي..».

هل الدنيا أولاً، ذلك الحجاب السميك المعطل للاتصال والدافع إلى طول الأمل والغرور والانحراف، وكم تبدو تلك البرهة الزمنية القصيرة التي عبرها الإمام علي عليه السلام من عمره مديدة عليه، وكم استعجل مرورها للقاء وجه الله. ثم يسأل الله تعالى «ولا تعاجلني بالعقوبة على ما عملته في خلواتي من سوء فعلي وإساءتي ودوام تفريطي وجهالتي وكثرة شهواتي وغفلتي، وكن اللهم بعزتك في كل الأحوال رؤوفاً..».

«وقد أتيتك يا إلهي بعد تقصيري وإسرافي على نفسي معتذراً نادماً منكسراً مستقيلاً مستغفراً منيباً مقراً مذعناً معترفاً..».

هذا التذلل والتضرع لله أحد أبرز سمات بلوغ القرب والسعادة بذلك القرب لدى نهج الإمام وتلامذته إلى أن يقول «يا إلهي وربي وسيدي أتراك معذبي بنارك بعد توحيدك وبعدما انطوى عليه قلبي من (معرفتك) ولهج به لساني من ذكرك..».

هنا نلمح في ذروة التوجه والتوحد بالله عمل العقل في منهج الإمام بسؤال استنكاري عن هل يمكن أن يعذب الله من وحّده (وعرفه)؟

«أنت أكرم من أن تضيع من ربيته أو تبعد من أدنيته أو تشرد من آويته أو تسلم إلى البلاء من كفيته ورحمته..» هو جواب الإمام على سؤاله السابق.

«يا سيدي وإلهي ومولاي أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة..» ومن هنا اشتقت نظرية العدل الإلهي عند مدرسة أهل البيت والمعتزلة وآخرون، ورداً عليه كانت مماحكات الأشاعرة بأنه من الممكن أن يعذب الله أهل الجنة إذا شاء!!

ويقول الإمام مجيباً ومؤكداً لعدل الله بصيغة الاستنكار «ما هكذا الظن

بك ولا أخبرنا بفضلك عنك يا كريم يا رب وأنت تعلم ضعفي عن قليل من بلاء الدنيا وعقوباتها وما يجري فيها من المكاره على أهلها» يستطرد الإمام مركزاً على الزمن «على أن ذلك بلاء ومكروه قليل مكثه يسير بقاؤه قصير مدته فكيف احتمالي لبلاء الآخرة. .».

هذا النص يعبر بدقة عن مدى عرفان الإمام سلام الله عليه لمعضلة الزمن بين عذابين في برهتين: الدنيا والآخرة ليقول متوسلاً «فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك، وهبني يا إلهي صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر على النظر إلى كرامتك. .».

والحقيقة أن هذا الدعاء الذي يحتوي بنود علم الكلام الإسلامي بخطوطها العريضة، والذي لم يشك أحد في نسبته إلى الإمام يؤكد مصداقية ما ورد في هذا الموضوع في نهج البلاغة، فلم يتحدث الإمام عن النظر إلى الله، بل إلى كرامته، وكان من الممكن أن يستمر الدعاء بالمجاز في مسألة النظر. ولكن ذلك لم يحدث، وهو ما يجعل من هذا النص العبادي وثيقة من أهم وثائق مرحلة الإمام عليه السلام.

«يا مولاي فكيف يبقى في العذاب وهو يرجو ما سلف من حلمك أم كيف تؤلمه النار وهو يأمل فضلك ورحمتك، أم كيف يحرقه لهيبها وأنت تسمع صوته وترى مكانه، أم كيف تزجره زبانيتها وهو يناديك يا ربّه» «هيهات ما ذلك الظن بك. .».

«يا رب يا رب يا رب قوّ على خدمتك جوارحي وهب لي الجد في خشيتك والدوام في الاتصال بخدمتك حتى أسرح إليك في ميادين السابقين( . . . ) وأدنو منك دنو المخلصين» هذا الدنو أو التقرب ينفي كنه أو جوهر العرفان والكشف. فكيف يكون ذلك؟

تلك هي معضلة لم يستطع العرفان أن يجيب عليها فكيف بالمحدود

الصغير الضئيل كذرة سابحة في الفضاء العميق أن يرى عياناً خالقه يوم القيامة كما يُرى البدر في الليلة النصف!؟ إلا أنه يدنو دنواً ويقترب اقتراباً، ويكتشف كشفاً لا يمكن التعبير عنه باللغة الإنسانية ويتابع «وأجتمع في جوارك مع المؤمنين» هذا الجوار الغامض السعيد إلى درجة تعجز اللغة عن وصفه والحواس: ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. . .

«يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء. .».

## بمثابة الخاتمة

أين يقف الإمام بين سابقيه وتلامذته؟

لقد ظهر عليّ في عصر لم ينضج فيه أي من العلوم التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية فيما بعد، ولم يعرف عنه الاطلاع على أي من الحضارات السابقة. كانت العلوم تصل إلى المدينة المنوّرة شذرات أطلق عليها عرب الجاهلية أساطير الأولين، وبذلك وصفوا رسول الله ﷺ والإسلام معاً.

في كلامه حكمة عميقة بإجماع المؤرخين، اعترف هو باكتسابها عن رسول الله ﷺ وكان مرجعاً للمؤمنين ويعسوبهم (كما وصف نفسه)، وأقرت مدرسة أهل البيت بإلهامه، في حين لم يعترف له بذلك خصومه، وتحدث بأشياء لم تعرف لا في البيئة العربية، ولا في الأمم المحيطة وثبتت صحتها (كما أشرنا في البداية). لكل ذلك أصبح عليّ عليه السلام إماماً ووصياً للرسول وأميراً للمؤمنين فيما بعد، جمع العرفان والقوّة معاً، وصار رمزاً لهما في التاريخ العربي الإسلامي. لهذا يعتبر ما أثر عنه متفرداً أصلاً لا يختلط بآراء سابقيه من تراث الحضارات العريقة مختلفاً عنها بقوة المصداقية التي أسست لحضارة سادت العالم قروناً وألهمت حضارات جديدة في عوالم جديدة. هذا الأمر لا يدركه إلا المتعمقون في دراسته وفهمه، وقد اختلف فيه الجميع من لاحقيه حتى اليوم؛ كيف أمكن لهذا البدوي الساكن في عمق الصحراء أن

يتتج كل هذا الكم من العلم الذي أصبح سمة المستقبل العلمي الإسلامي، وأن يتحول إلى أداة للقياس ونبراساً للحق والخير والنضال في سبيل احقاق كل ما هو متصل بالحقيقة لصالح الغالبية الساحقة من البشر في كل أنحاء العالم.

حاولت التيارات التي أخذت منه وتوحدت به أن تقدم تفسيرات لما قال... بعضها أفلح نسبياً وكثيرٌ انحرفوا وسلكوا مذاهب شتى كلها يدعي أصالة الأخذ عنه والاقتداء به. حتى مدرسة أهل البيت، وهو رائدها، اختلفت فيه وفي تفسير تراثه. لم يكن صوفياً، ولم يكن زاهداً بالمعنى الذي صار عليه من ضربناهم أمثلة على الزهد من أتباعه. لامس الكثيرون تخوم ما اعتقده وتحدث به، ولكنهم جميعاً لم يدركوا كنه حقيقة ما أراد، وتلك سمة العظماء في التاريخ، ولا زال تراثه يحمل الكثير مما يمكن قراءته الآن وفي المستقبل على ضوء العلوم الحديثة. كان علي بن أبي طالب رجل المستقبل بكل ما تحمل هذه الجملة من دلالات، هلك فيه المحب الغالي، والكاره الحاقد (كما وصف نفسه) الحكمة ١١٣ وتراجع الذين كوّنوا مدارسهم من وحيه عن التشيع له وهاجموا مدرسة أهل البيت كما فعل المعتزلة والمتصوفة، ناهيك عن خصومه في السلطات الإسلامية المتعاقبة.

هاجمه المحدثون من كل الأطراف لآرائه في المرأة على سبيل المثال، وحاول بعض أتباعه إنكار نسبة ذلك إليه، ولكنه كان كذلك شئنا ذلك أم أبينا، ولم يكن المحللون والمفسرون إلا مناكفين وحسب، أو مستعجبين، أو ناقدين باستغراب (كما فعلنا في الفصل الأول)، ولكن علياً سلام الله عليه لم يخطىء أبداً، ويبدو أن الذين يصلون إلى العصمة والكمال في رداء الثوب البشري، ليس مكانهم في هذا العالم على سدة السلطة، ولهذا بدا في زهده وحكمته متشدداً لا يهادن في الحق. ولعلّ أشد ما يحير ويدهش الباحث فيه أن الإمام وقد فشل مشروعه في زمنه ثم تصاعد برغم كل شيء في الأزمنة

اللاحقة، يعودُ إلى آية هامة في القرآن الكريم قد تحسم الأمر كله.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.. هذه سمة الحياة في هذا العالم كما يبدو، بل هناك مكان فيه لمن أراد، ليس أن يكون عالماً فحسب، بل وأن يكون أمير المؤمنين ليقودهم إلى المحجة البيضاء.

وظل يردد وهو يغادر الدنيا: لا تستوحشوا طريق الهدى لقلة أهله...

# الفصل الثالث

# رجال حول الإمام

# (الشيعة الخمسة)

# رجال حول الإمام

## مدخل

عندما يتحدث الباحث عن أولئك الرجال الخلص الذين وصفهم الرسول بشيعة علي فذلك ينحو باتجاه إلقاء مزيد من الضوء على حياته عليه السلام، فقد كانوا بلا جدال متوحدين بإمامهم، حياتهم صورة مصغرة عن سلوكه في الحياة والعقيدة، وأصبح نضالهم، الذي ذكرته كتب التاريخ بتفصيل، حالة وصّفها باحثون معاصرون باليسار الإسلامي[1]، آخذاً بالمصطلح الحديث لمفهوم اليسار.

كلهم كانوا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن السابقين إلى الإسلام ومن الذين أحبهم النبي حبّه لعلي سواء بسواء، ولعلّ أكثرهم شهرة عمار بن ياسر(رض)، عاش عمراً مديداً، واستشهد بصفين. لم تأخذهم في الحق لومة لائم، وظلوا من القلائل الذين لم تبهرهم الدنيا المقبلة على مجتمع المدينة والمجتمع الإسلامي بعامة بعيد تدفق أموال الفتوحات. عاشوا كإمامهم فقراء ورحلوا عن هذه الدنيا لم يخلفوا وراءهم شيئاً مع مكنتهم من ذلك، ناضلوا من أجل العدالة الاجتماعية والتطبيق الصحيح للإسلام، شكلوا النواة الصلبة لمدرسة أهل بيت النبي، وتعالت قاماتهم ليصبحوا رمزاً لكل ما

---

(١) راجع، أحمد عباس صالح، اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢ بيروت.

هو حق وخير في بلاد الإسلام، رجال الموقف والثقافة، تلاميذ الإمام ومحبوه، الزهاد المجاهدون الذين خلدهم التاريخ بهذه الصفات.

تفاصيل حياة هؤلاء الرجال (وسنكتفي منهم بخمسة) مشهد عجيب للصدر الأول للاسلام تعبير عن شكل الحياة الاجتماعية والنضالية، وكلهم يحمل نبوءة لرسول الله ﷺ عن مصيره أو في مديحه، طاردتهم السلطة أو آذتهم لأنهم آثروا قول كلمة الحق في وجه ما رأوا أنه انحراف عن الدين القويم، وتحملوا مسؤولية الكلمة حتى الشهادة. حمل هؤلاء الرجال اسم (الشيعة) وهو ما ورد في السنة النبوية عنهم على أنه ينطبق على أربعة من الصحابة: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود الكندي وعمار بن ياسر»[1].

وفي حديث عن جابر الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال عندما جاءه علي مرة بحضرة بعض صحابته «إن هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة»[2] وأهمية هذا الحديث ينبع من اتفاق المؤرخين على أن لفظ الشيعة الذي استخدم مبكراً ينطبق على أولئك الأربعة، نقلاً عن فرائد السمطين والصواعق المحرقة وحق اليقين وغيرها. كان استخدام هذا اللفظ مبكراً نابع من تعارف مجتمع المسلمين على أنهم أقرب الناس إلى الإمام عليه السلام ربطوا حياتهم بسلوكه، وثبت فيما بعد أنهم لم يتخلوا عنه في معاركه التي خاضها ضد خصومه، حتى إن أحدهم (عمار بن ياسر) استشهد إلى جانبه في معركة صفين باتفاق المؤرخين أيضاً رغم بلوغه ما ينوف عن التسعين من العمر.

هؤلاء جميعاً حملوا على كواهلهم قدر الوقوف في وجه السائد في مجتمع المدينة المنوّرة وإذا شئنا أم أبينا توصيف هذا الصراع بأنه بين من

---

(١) محمد جواد آل الفقيه، أبو ذر الغفاري، دار التعارف بيروت ١٩٩٢، ص٤٦.
(٢) ن.م ص٤٧.

أرادوا تقمص روحية الإسلام والالتزام بالغالبية الساحقة من الفقراء المسلمين في وجه من أثروا من غنائم الفتح، فإن أُولئك الأثرياء، وتحديداً في عهد الخليفة الثالث الثري أصلاً قبل الإسلام، حاربوهم فعلاً وأقصوهم عن المناصب، وعندما تولاها أحدهم (سلمان الفارسي لولاية الكوفة في عهد الخليفة الثاني) زحزح عنها سريعاً كما سنرى.

هنا يمكن أن نقبل بحذر توصيفاً لهم هكذا[1] «كان هناك تجنب لعلي وحزب علي في ميادين القتال، كما كان هناك أيضاً تجنب لهم في تولية المناصب، وعلي وحزبه منذ اللحظة الأولى عرفوا أن الوسط قد استولى على الحكم ورضوا بأن يكونوا حزب المعارضة فيبينوا الأخطاء وينبهوا إليها ويقفون ضد قرار يرون أنه مجانب للصواب، وهذا ما فعله حزب علي طوال حكم عمر، وهو الذي أثمر في النهاية ذلك اللقاء بين الحزب وعمر بن الخطاب».

هذا التوصيف السياسي الحديث يمتلك بعض المصداقية رغم أن فيه بعض التعسف أيضاً، فلم يكن الصراع بشكله الحاد بين الاغنياء والفقراء بإطلاق، فهو بشكل عام صراع عشائري بالدرجة الأولى، وجاءت تنحية الإمام علي عليه السلام عن الخلافة لهذا السبب وحده باتفاق الباحثين المعاصرين[2]، فليس من أسباب أخرى تتعلق بالاقتصاد، وجاء اضطهاد

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام، م.س، ص٧٦.

(٢) راجع نص الحوار بين ابن عباس وعمر بن الخطاب في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ويمكن أن نورد فقرة منه ربما كانت جوهر الحوار وردت في الجزء ١٢ ص٥٢ كما يلي: عن عبد الله بن عمر:

[قال عمر بن الخطاب لابن عباس: أتدري ما منع الناس منكم؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، قال: لكني أدري، قال: ما هو يا أمير المؤمنين، قال: كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فيجحفوا جحفاً( الجحف: التكبّر)، فنظرت قريش لنفسها فاختارت ووفقت فأصابت] وعندما رد ابن عباس على ذلك بالمنطق أجابه عمر «بلغني أنك لا تزال تقول: أخذ هذا الأمر منا حسداً وظلماً» وعندما أجابه ابن عباس بالمنطق والقرآن أيضاً ختم عمر الحديث قائلاً: واهاً لابن عباس، ما رأيته لاحى أحداً قط إلا خصمه.

شيعة الإمام، إضافة إلى ذلك، تتعلق بنقدهم الحاد والمباشر للخليفة أو الولاة المعينين من قبله بسبب خروجهم عن جوهر الإسلام كما رآه أو فهمه أولئك المحيطون بالإمام.

هل كانت المصادفة وحدها أن جميع رجال الإمام كانوا من فقراء القوم مادياً، ومن المستضعفين قبلياً؟ ولكنهم جميعاً كانوا من أبرز المناضلين في سبيل نشر الدين، فلماذا اختاروا الإمام، أو لماذا اختارهم هو، حتى لقبوا بالأركان الأربعة؟ ليس في وثائق التاريخ الإسلامي إجابة واضحة وقاطعة حول هذا الموضوع. وليس واضحاً أيضاً لماذا أبعد المؤرخون عبد الله بن عباس عن شيعته مع أنه ناصر الإمام إلى أبعد الحدود حتى عندما اختلف معه، فلم يؤثر عن أحد دفاعه الحار عن أحقية علي بالخلافة كما أُثر عنه.

ومن الملفت للنظر أيضاً أن مالك بن الأشتر لا يصنف بينهم مع أنه استحق من الإمام عليه السلام مديحاً لم يقله بأحد منهم: «كان لي كما كنت لرسول الله»[1]، فهل استحق الأربعة ذلك لأن رسول الله حددهم بالاسم؟ أو لسابقتهم في الإسلام كالمقداد وعمار على سبيل المثال أو لمواهب استثنائية كامنة فيهم. على أية حال فإن المحيطين بالإمام كانوا أكثر من ذلك منذ البداية، ومنهم عمه العباس رحمه الله والذي كان معه في وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله والذي تلقى من النبي حديثه الشهير (أنتم المستضعفون من بعدي) ولكنه لم يصنف من شيعة الإمام، ولم يعد التاريخ يذكره بعد ذلك، حتى إن الوثائق لا تذكر وجوده في المنزل عندما أقدم بعض المناصرين لعمر بن الخطاب على محاولة إجبار الإمام على بيعة أبي بكر بعد السقيفة وتهديده بإحراق باب المنزل، فلماذا لم يذكر العباس عم النبي ونصيره المؤكد بين شيعته؟

في مذكرات سليم بن قيس الهلالي، وهي الأقدم بين وثائق تلك المرحلة

---

(١) أحمد الزيادي، القائد العلم مالك الأشتر النخعي، دار الهادي، بيروت ١٩٩٨.

رغم التشكيك بها، (وتمسكنا بأنها يجب أن تعامل على ذات الصعيد من كل الوثائق بنفس المرتبة) وردت أسماء ثلاثة من أصحاب الإمام هم: سلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود كأوثق الصحابة ورواة الحديث، ولم يذكر اسم عمار بن ياسر رحمهم الله جميعاً. ويبدو أن المؤلف وهو يتحدث عن رواية الحديث ركز على المثقفين من أصحاب الإمام، فلم يكن عمار كذلك، والمدهش أن نصاً كهذا يرد فيه[1] «وقطعت بها وأعظمتها واستصعبتها لأن فيها هلاك جميع أمة محمدﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين غير علي بن أبي طالب وأهل بيتهﷺ وشيعته»، هذا رأي عمر بن أُذينة الذي حفظ المذكرات ونشرها بعيد قراءته لها. والواقع أن تحديد أسماء شيعة علي وذكر الطبقة الأولى منهم بأولئك الأربعة، وأن موضوع (الهلاك) أو الخطيئة المهلكة لمجتمع المدينة المنورة بالتحديد كانت في عدم نصرتهم للإمام بتوليته الإمارة تبعاً لوصية الرسول (التي أشرنا إليها) هو ما يقصده سليم، ولكن هذا النصير المتوفى سنة ٩٠ هـ لم يكن من صحابة رسول الله بالقطع، لهذا لم تشر إليه الوثائق بأنه من شيعة عليّ المقصودين بهذا المصطلح.

بعيد رحيل رسول اللهﷺ عن هذه الدنيا ازداد شيعة علي عدداً بالتأكيد، وأصبحوا ألوفاً بعد توليه الإمارة، ولكن أحداً منهم لم يصل إلى مرتبة أُولئك الأربعة المقصودين دوماً بالصلاة على محمد وآله وصحبه (المنتجبين). ونحن في هذا المجال عندما نضيف إليهم مالك بن الأشتر المتوفى ٣٨هـ، وهو لا يصنف من صحابة الرسولﷺ على أية حال، فإننا نوفي الرجل حقاً تاريخياً أنه من أولئك الذين قاتلوا لنصرة الإمام حتى مضى شهيداً في سبيل الحق.

في هذا المجال يجدر بنا الإشارة إلى شيخ قريش والد الإمام عليعليه السلام

---

(١) سليم بن قيس الهلالي، م.س، ص٩.

(أبو طالب)، فقد تناول خصوم الإمام حياة هذا النصير الأبرز لرسول الله ﷺ بالنقد، إن في حياة علي أو في زمن أولاده الأئمة العظام عليهم السلام، ونذكر هنا تلك الحوارات المريرة بين العباسيين والخارجين عليهم من آل هاشم كمحمد ذي النفس الزكية رحمه الله والتي تناولت المقارنة بين إيمان العباس من جهة وما ادعوه من رفض أبي طالب للإسلام. وقد انضم إليهم فيما بعد مفسرو القرآن غفر الله لهم وشيخهم الطبري في تأويله الشهير عندما فسر الآية الكريمة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ بأنها نزلت في أبي طالب. والواقع أن مدرسة أهل بيت النبي ﷺ جهدت في نقض تلك الدعاوى، وبأن شيخ قريش مات مسلماً. هذا الجهد أقنع الكثيرين من الباحثين باستحالة أن يقوم ذاك الشيخ بكل تلك الجهود في سبيل نصرة النبي وبالتالي الإسلام دون أن يكون من أتباع الدين ولو سرّاً. ويذكر في هذا المجال توفيق الحكيم[1]، وآخرون.

كان لأبي طالب[2] (عبد مناف بن عبد المطلب) تأثير كبير على الرسول وعليّ معاً صلوات الله وسلامه عليهما، وظل من أبرز الذين أحاطوهما بالرعاية والنصرة، بل من القلائل الذين فعلوا ذلك بإصرار رغم كل الحرب التي شنت عليه، والحصار الشهير لآل هاشم في مكة[3]. ويروى هنا تبعاً للوثائق ما أطلق عليه حديث الدار[4] المتصل بالآية الكريمة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ عندما جمع الرسول ﷺ بني عبد المطلب وأبلغهم ببعثته وطلب

---

(١) توفيق الحكيم، حياة محمد، دار الهلال ١٩٥٠ القاهرة، ص١٦٥.
(٢) راجع، حيدر العرفي، أبو طالب بطل قريش، دمشق ١٩٨٥، دار النوادر.
(٣) راجع الطبري م.س. ج٢، أحداث ما قبل الهجرة.
(٤) راجع سير الأئمة م.س، ص١٤٢.

نصرتهم قائلاً: «فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني عليه يكن أخي ووصيي ووزيري ووارثي وخليفتي من بعدي فلم يجبه أحد منهم» إلى أن قام علي ثلاثاً فأقره الرسول على ذلك. جوهر القول أن القوم نهضوا وهم يقولون لأبي طالب: «يا أبا طالب ليهنك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك فقد جعل ابنك أميراً عليك».

فإذا سلمنا بإيمان أبي طالب، ـ وهو ما نرجحه ـ فإن شيخ قريش يمكن له بهذا الاعتبار أن يكون من أوائل شيعة ابنه، فلم تذكر الوثائق التاريخية أنّه سعى لكي يمنع ابنه الشاب من المغامرة بحياته في سبيل نصرة النبي. ولعلّ أبرز ما فعله ذاك الشاب بعيد وفاة أبيه مباشرة ما ذكر عنه مبيته على فراش الرسول ﷺ في ليلة هجرته إلى المدينة المنوّرة بعيد اكتشافه لمؤامرة قريش الشهيرة بقتله ليتفرق دمه بين القبائل، الحادثة التي لم ينكرها أحد. لقد قام الإمام علي بن أبي طالب بالحفاظ على تقاليد أبيه الشهيرة وظل أميناً عليها ـ وراثة وإيماناً ـ حتى رحل رسول الله عن هذه الدنيا ثم نقل ذاك التراث إلى الأئمة، وحملها أنصار مدرسة أهل البيت حتى اليوم وإلى رحم المستقبل.

الخمسة الذين سنتناول جهادهم بالتفصيل لم تعلق شائبة في سلوكهم العلويّ وتوحدهم به، ولم تقدم الوثائق أي مظهر من مظاهر التناقض معه في أي مرحلة من مراحل نضاله، آمنوا بحقه وصوابية مسلكه إلى درجة التماهي به، إن في مظاهر إيمانه أو زهده أو سياسته أو في استراتيجيته العسكرية، وهو ما يتعلق تحديداً بمالك بن الأشتر، وفي هذا المجال سيكون لأبي ذر الغفاري القدح الأعلى لأن كتب التاريخ أوردت الكثير حوله وعلاقته بالإمام وصراعه مع الخلفاء ومعاوية، وأخيراً موته الفاجع منفياً وحيداً في الصحراء العربية.

## أبو ذر الغفاري

ارتبط اسم هذا الصحابي الجليل في التاريخ باسم الخليفة الثالث، وارتبط سلوكه الإصلاحي بنقده المرير للخليفة حول موضوع إنفاق الأموال، فبدا أبو ذر كأنما يتصدى في حياته لمعالجة الجانب الاقتصادي في الإسلام، وهو ما دعا الباحثين المحدثين لتوصيفه بالاشتراكي (تبعاً للمصطلح العصري) أو باليسارى، وصعد اسمه لديهم ليشكل رمز اليسار الإسلامي في مواجهة ما أسموه باليمين الرأسمالي المتمثل بالخليفة وأسرته الأموية[1].

توحده بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في هذا السلوك مرتبط بموقف الإمام الحاسم من مسألة إنفاق المال العام، وقد أشرنا إلى ذلك، ولأن الإمام ظل أكبر من أن تطاله الحرب بإيقاع أية عقوبة عليه أمام نقده العنيف والمستمر لسلوك مؤسسة الخلافة في عهد عثمان رحمه الله، فقد تحمل أبو ذر تلك المسؤولية ونتائجها، ولم يستطع الإمام أن يقدم له الدعم الكافي لمنع نفيه.

أبو ذر الغفاري (جندب بن جنادة توفي ٣٢هـ ولم تعرف سنة مولده كعادة وثائق التاريخ الإسلامي) ربما كان أقرب الشيعة شبهاً بالإمام علي من زاوية العلم والشجاعة والجرأة في قول الحق حتى لم يترك له صاحباً، وهو الوحيد الذي أراد الباحثون أن يحمّلوه مذهباً اسلامياً خاصاً به في المسألة الاقتصادية، وذلك لآرائه المتعلقة بمجموعة من الصحابة كمعاوية وعبد الرحمن بن عوف وزيد بن ثابت وطلحة وغيرهم الذين اتهمهم بالإثراء من مال الدولة وكنزهم الذهب والفضة وعدم انفاقها في سبيل الله تبعاً لمنطوق الآية الكريمة الشهيرة ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾..

---

(١) سليمان العيسى، فتى غفار، مسرحية شعرية، حلب ١٩٥٣.

لم تتناول السنة النبوية أحداً من شيعة علي كما تحدثت عن أبي ذر، ولعلّ حديث رسول الله ﷺ التالي أكثرها تعبيراً عن مذهبه الاقتصادي.

أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج٤، ص١٦٦، ط لندن) من طريق أبي ذر قال: «قال النبي ﷺ: يا أبا ذر كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يستأثرون بالفيء؟

قال: قلت: إذاً والذي بعثك بالحق أضرب بسيفي حتى ألحق به، فقال: أفلا أدلك على ما هو خير من ذلك؟ اصبر حتى تلقاني»[1].

ولد أبو ذر في منطقة قبيلة غفار الواقعة شمالي المدينة المنورة القريبة من تبوك (المملكة العربية السعودية) وهي قبيلة قوية، وكان أبو ذر رجل ليل، أي قاطع طريق بالمتعارف عليه، يغير على القبائل ويسلب الأموال، وذلك قبل إسلامه[2]. أما ميزته التي يذكرها المؤرخون فهو عمله وحيداً، من أجل ذلك ينسب إلى رسول الله ﷺ حديثه الشهير الذي ورد في بعض كتب التاريخ مثل الكامل لابن الأثير، والإصابة وغيرها كما يلي: «في غزوة تبوك وقف بأبي ذر جمله فتخلف عليه فقيل: يا رسول الله تخلف أبو ذر.

فقال ﷺ: ذروه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، فكان يقولها لكل من تخلف عنه فوقف أبو ذر على جمله فلما أبطأ عليه أخذ رحله عنه وحمله على ظهره، وتبع النبي ماشياً فنظر الناس، فقالوا: يا رسول الله، هذا رجل على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر، فلما تأمله الناس قالوا: هو أبو ذر: فقال رسول الله ﷺ: يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده ويشهده عصابة من المؤمنين»[3].

---

(١) عبد الحسين أحمد الأميني، الغدير (م.س) دار الكتاب العربي بيروت، ط٣، ١٩٦٧، ج٨ - ص٣١٦.

(٢) أبو ذر الغفاري، م.س، ص٢٩.

(٣) ن.م ص٤٣٠.

هذه العزلة استمرت سمة حياة هذا الصحابي الأبرز من شيعة الإمام علي عليه السلام، ولذلك أحيطت حياته بالغموض والتطرف والبداوة القاسية، ولكن المؤكد أنّه كان ممن أحبهم رسول الله الذي كان يعبّر عن حبه للمناضلين في سبيل الإسلام والحق، مما حفلت به كتب السنّة في باب فضائل الصحابة.

نسب المؤرخون إلى حياته الحافلة أنّه لم يعبد الأصنام قبل إسلامه ـ فإذا كان ذلك صحيحاً ـ فهو دليل بارز على طبيعته الرافضة للسائد وغير المنطقي والمنسجم مع التعقل، فقد شابه هذا من حياته ما اتسم به الإمام علي عليه السلام أيضاً. . التمرد على مجتمعه ورفضه ما يخالف العقل وبالتالي منطوق الإسلام في جوهره، وأخيراً الانعزال، أو الاعتزال، وقلة الأنصار الذين يتكيفون مع سنن المجتمعات وتقاليدها الموافقة لمسايرة السلطة وما يتبعها من نفاق اجتماعي، وتطويع للدين لاجتهادات الحاكم في سبيل ترسيخ حكمه.

من محطات حياته دخوله في الإسلام، وربما كانت المصادفة المحضة أن لقاءه الأول كان بالإمام علي عليه السلام في مكة وهو الذي عرّفه على النبي وشهد بالوحدانية وكان قد سمع عن النبي في قبيلته، واتسم دخوله ذاك في الإسلام بإعلانه أمام قريش حتى كاد يقتل من قبلهم وأنقذه العباس عم النبي، ثم انطلق إلى قومه مبشراً، وهكذا أسلمت بنو غفار، واكتمل اسلام القبيلة بعيد هجرة الرسول إلى المدينة، وهي الأقرب إليهم جغرافيا، يقول الواقدي، (كما جاء في الكامل في التاريخ) رابع من أسلموا أو الخامس، وهي على أية حال أقوال تفتقد الدقة التاريخية، ولكنها تعبر عن مكانة هذا البدوي الشجاع بين المسلمين الأوائل.

عاد أبو ذر لصحبة الرسول صلى الله عليه وآله متأخراً، بعيد غزوة الخندق، وحظي بحب رسول الله وصحبته فكان الرسول يبتدئه إذا حضر ويتفقده إذا غاب (كما في كتاب الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني). وعرف عنه

محبته للعلم وكثرة سؤاله للنبي في سبيل ذلك، ويقال إنّه حظي بوصية منه، ومدحه الإمام قائلاً «وعى علماً عجز فيه، وكان شحيحاً حريصاً على دينه حريصاً على العلم، وكان يكثر السؤال فيُعطي ويمنع، أما أن قد مليء وعائه حتى امتلأ»[1].

أهمية هذه الشهادة تنبع من أنها تؤكد مكانته في الصف الأول من النخب المثقفة في المدينة المنوّرة، ترافقها شهادة بالغة الأهمية من رسول الله ﷺ مثيرة للجدل وسئل عنها الإمام الصادق عليه السلام وهي قول الرسول «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر، ومن سرّه أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم، فلينظر إلى أبي ذر...».

والواقع أن هذا الصحابي الجليل في سيرته المتسمة بالنضال المرير والموت الفاجع في غربته تماهى فعلاً بالإمام علي عليه السلام وظل أقرب أنصاره إلى التوحد به.

سافر أبو ذر إلى الشام في خلافة عمر بن الخطاب، ومن المؤكد أنه استقر زمناً في جبل عامل في لبنان (الآن)، وكان سلوكه هناك تبشيرياً مثيراً لحفيظة والي الشام معاوية بن أبي سفيان الذي طلب من الخليفة الثالث (ابن عمه) أن يستقدمه إلى العاصمة لأسباب تتسم بانعدام الوضوح، رغم تحدث المؤرخين عن تزعمه للمعارضة ضد سلوك الوالي المبذر في أموال المسلمين، ولكن واقع الحال، وما يقرّه وضع التشيع في الجبل بعد ذلك وحتى اليوم، يؤكد أن أبا ذر عمل على حشد المسلمين لنصرة منهج الإمام علي إسلامياً وحقه في خلافة الرسول، وهذا يستتبع بكل تأكيد بلورة شكل الصراع الدائر بين الإمام علي والخليفة الثالث مبكراً، فلم يكن الإمام سلام

---

(١) الغدير م.س ص٣١١ عن طبقات الصحابة لابن سعد، وابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر في الإصابة، وأخرجه أبو داود في سننه.

الله عليه راضياً عن سلوك الخليفة، وإن لم يشارك بإطلاق في ما جرى من انقلاب عسكري عليه مما أدى إلى إزاحته بالقتل.

لم يكن التشيع كمنهج قد استكمل شكله المعروف فيما بعد، ولكن ولاية الشام، ـ وقد عمل معاوية على ترسيخ حكمه فيها تمهيداً للمستقبل واستيلائه على السلطة ـ، لم يكن الوضع فيها يسمح باستمرارية وجود صاحبي مؤثر اجتماعياً ودعائياً كأبي ذر، ويبدو أن التقارير المرفوعة إلى معاوية كانت تنذر بخطر وجود أبي ذر فيها على مكانة معاوية والخليفة معاً، وهو ما يؤشر على مدى احتدام الصراع وشكله المقبل المتصاعد نحو العنف المسلح، ويدلل أيضاً على مدى تأثير أبي ذر على الناس ومكانته بينهم، وهو يؤكد بالقطع نفي مقولة إن هذا الصحابي المتمرد تم نفيه إلى هناك، ولكنه قد يرجح فكرة أن الإمام علي بن أبي طالب قام بإرساله إلى الشام كمبعوث له لتوضيح موقفه من مشكلة خلافة الرسول، وهو ما قام به خير قيام.

لم تعرف مدة إقامة أبي ذر في الشام ولكنه شارك معاوية في هجومه الشهير على جزيرة قبرص واحتلالها تبعاً. كما ورد في الكامل في التاريخ[1]، وشارك أيضاً في غزو القسطنطينية وحصارها الذي استشهد فيه أبو أيوب الأنصاري ولم يتمكن فيه المسلمون من فتحها.

هذا الصحابي الجليل، رجل السيف والعقل، استمر مؤثراً في الحياة العامة لإقليم الشام، وقد أمضى فيها زمناً طويلاً هو مدة خلافة عمر وشطراً من خلافة عثمان.

ويظل أهم ما أهملته كتب التاريخ عن تلك الفترة من حياته هو مدى صلته بالإمام عليّ وطبيعة هذه الصلة، فلم يعرف أن علياً غادر الحجاز طوال

---

(١) ابن الأثير، عبد الكريم الشيباني ت ٦٣٠هـ، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت، ج٣، ١٩٥٥، ص٧٧.

خلافة الرواشد الثلاثة، بل إنها لا تذكر إن كان الإمام زار الشام أصلاً. لهذا يمكننا ترجيح وفادته من قبل الإمام واستمرار تلك الصلة وتصاعد خطر نهج الإمام من خلال رجله الكبير هذا إلى درجة قيام عثمان باستدعائه إلى العاصمة وإطاعة هذا الصحابي المتمرد لأمر الخليفة.

في هذا السياق يمكن تأكيد التزام أبي ذر بولي الأمر، وكان باستطاعته رفض الأوامر، وهو ما يؤكد أيضاً التزام الإمام علي بن أبي طالب بذلك أيضاً. وإذا عدنا إلى أفضل دراسة متوفرة حول هذا الصحابي(رض) في كتاب الغدير للأميني نلمس وثائق تعبر عن هذا الالتزام. ولعلّ من أبرز مظاهر هذا الالتزام من قبله ما رواه ابن سعد في طبقات الصحابة عنه بعيد نفيه إلى الربذة من قبل الخليفة، أن أُناساً من أهل الكوفة قالوا لأبي ذر وهو في الربذة، إن هذا الرجل فعل بك وفعل (يقصدون الخليفة) هل أنت ناصب لنا رأيه، يعني نقاتله، فقال، لا، لو أن عثمان سير فيَّ من المشرق إلى المغرب سمعت وأطعت»[1].

هذا النص يؤكد مسألة أخرى تتعلق بالكوفة نفسها وتحولها إلى معقل لأنصار الإمام علي عليه السلام منذ ذاك التاريخ وحتى اليوم، ويؤكد بالتوازي أن علياً لم يقم بجهد كبير لمنع النفي أو أنه التزم وصبر كعادته عندما لا يطاع، وكان في عهد عثمان كذلك، فإن ما اشتهر أنه تدخل فقط عندما أراد الخليفة نفي صحابي آخر من أبرز شيعة علي وعو عمار، عندها تدخل الإمام عليه السلام قائلاً للخليفة، وكان ذلك بعيد وفاة أبي ذر: «يا عثمان اتق الله فإنك سيرت رجلاً صالحاً من المسلمين فهلك في تسييرك» فلم ينفذ عثمان عزمه ذاك لأسباب قبلية على الأرجح، ذلك أن عماراً رضي الله عنه، تمتع بدعم بني هاشم الصلب حتى صار كأنه منهم، ناهيك عن سابقته في الإسلام وجهاده،

---

(١) الغدير، م.س، ج٨، ص٣٢٥.

ومن المؤكد أن القضايا المتعلقة بحركة القبائل ونفوذها تصاعد إلى الذروة بعيد رحيل رسول الله ﷺ وجاءت تنحية الإمام عن الخلافة (أصلاً) كأحد إملاءاتها (كما أسلفنا).

لماذا تم نفي أبي ذر من المدينة المنوَّرة؟

ظاهر الوثائق التاريخية أن الخليفة لم يحتمل (حديث) أبي ذر في طريقة توزيع أموال الفتح، وهي كثيرة، مما أدى إلى صدامه بالخليفة. فهل وصل عثمان إلى تلك الدرجة من نفاذ الصبر حتى أنّه لم يتحمل مجرد حوارات مع صحابي جليل له كل تلك المكانة؟ إن من الثابت (على الأقل )أن الخليفة في سعيه لتوطيد حكمه الهش لدولة بهذا الاتساع والثروة بدأ يخاف مرجعية الإمام علي بن أبي طالب لمجتمع المدينة، وتحديداً عندما رأى اتساع نفوذه بين أنصاره داخلها وخارجها، وربما أذهلته التقارير المرفوعة إليه من أقربائه الذين يتولون مقاليد ولايات غنية حول هذا الموضوع. ويذكر التاريخ باستمرار اسم مروان بن الحكم كعامل رئيس في حوادث سنة ٣٥ واغتيال عثمان رحمه الله، هذا الرجل يقرر بعض المفسرين مقصوديته بالآية الكريمة في سورة الإسراء عن الشجرة الملعونة في القرآن[١]، ساهم في التحريض على شيعة علي وأقنع الخليفة بضرورة إبعادهم عن العاصمة، ويبدو أن فكرة النفي التي برزت في تلك المرحلة ـ كأحد العقوبات الموقعة على المفسدين في الأرض في القرآن الكريم ـ بدأت بأنصار الإمام تحديداً بقصد إضعافه هو وتياره وإيقاع شرخ بينه وبينهم، في خطوة بالغة الذكاء وآتت أكلها فيما بعد. صحيح أن هذا السلوك من الخليفة الطيب أدى إلى الثورة عليه ولكن المحصلة النهائية كانت امتلاك القبيلة الأموية للسلطة، وهو ما تنبأت به الآية الكريمة التي تحدثت عن الرؤيا

---

(١) راجع: السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، اسماعيليان قم، ج١٣، تفسير سورة الإسراء.

التي لم ير رسول الله ضاحكاً بعدها حتى مات[1].

يلخص الشيخ الأميني كل ما ورد حول وجهة نظر أبي ذر في الأموال. وما قدمه يؤكد أن أبا ذر لم يأت بما يخالف جوهر الإسلام، ولا يرقى إلى ما ادعاه محدثون بأنه طالب بشيوعية الأموال بين المسلمين، ثم يناقش فتوى الأزهر في تخطئته بمطالبه تلك. والواقع أن هذا الصحافي(رض) سار على نهج الإمام علي في الزهد ومحاربة مظاهر الثراء الفاحش لبعض الصحابة وتحديداً أقرباء الخليفة واستيلائهم على أموال الفيء وحرمانهم غالبية المسلمين منها بغاية منهم لمركزة رأس المال للتمكن من السلطة كترجمة عملية لأي تمركز لرأس المال. ويظل المرجح أن أبا ذر لم يفصل الاقتصاد عن السياسة وانحاز باستمرار إلى أحقية إمامه في خلافة رسول الله ﷺ نصاً ومرجعية لتحقيق العدالة في التوزيع والحكم معاً، وثابر على انتقاده سلوك الخليفة الثالث في محاربة شيعة عليّ مما أدى إلى الإسراع باتخاذ عقوبة النفي لإسكات أعلى أصوات المعارضة. هذا النفي يؤذي ويحجم قوّة الإمام في المدينة بإبعاد أنصاره عن العاصمة، من جهة، ويختبر ولاءه للخلافة بدراسة ردود فعله من جهة أخرى، لهذا لم يحرك عليه السلام ساكباً إلا الاعتراض اللفظي.. وهكذا ذهب أبو ذر الغفاري إلى قلب الصحراء.

وثائق تلك المرحلة المستقاة من مصادر موثوقة عن منهج أبي ذر تؤكد

---

(١) الآية الكريمة ٦٠ الإسراء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾، ولأن الشجرة تعني بالعربية (شجرة عائلية غالباً) فلا يلعن الله سبحانه شجرة غير عاقلة خلقها هو، حتى إنه لم يلعن شجرة الزقوم إذن هي قوم منافقون يتظاهرون بالاسلام: أصبح رسول الله ﷺ وهو مهموم وعندما سئل قال: «إني أريت في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري، فقيل يا رسول الله لا تهتم فإنها دنيا تنالهم» كما ورد في تفسير البرهان للثعالبي والدر المنثور عن عائشة، وهو من الأحاديث التي روتها السيدة في حربها ضد بني أمية بعيد اغتيال أخيها عبد الرحمن كما أسلفنا. وكذلك رواه العياشي.

مطالبته لعثمان بالحد الأدنى من التطابق مع الشيخين في مسألة مسلك الخليفة، إن في توزيع الأموال أو في تعيين الولاة، أو بالتشاور مع كبار الصحابة في أمور الدولة، وهي أمور ثبت بإجماع المؤرخين أن الخليفة الثالث لم (يستطع) تطبيقها، وهو ما أثار عليه الصحابة قبل المحيط. وقد أثر عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها هاجمته بشدة متهمة إياه بمخالفة نهج الشيخين بالدرجة الأولى، وينسب إليها قولها «اقتلوا نعثلاً فقد كفر» وكلمة نعثل لقب كان يطلق على الخليفة في الجاهلية. لهذا لم يعرف عن أبي ذر إلاّ هذا الاتجاه بذم عهد عثمان وتزكية عهد الشيخين، وكان يقول لعثمان: ويحك يا عثمان، أما رأيت رسول الله ﷺ ورأيت أبا بكر وعمر. هل رأيت هذا هديهم؟ إنك تبطش بي بطش جبار، ويقول: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام (كما رواه الواقدي)، وأجابه عثمان: مالك وذلك لا أم لك. فقال أبو ذر، والله ما وجدت لي عذراً إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فغضب عثمان وقال: أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، إما أن أضربه أو أحبسه أو أقتله فإنه قد فرق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الإسلام. فتكلم علي وكان حاضراً: أُشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب. فأجابه عثمان بجواب غليظ وأجابه علي بمثله (ولم نذكر الجوابين تذمُّماً منهما) كما يروي الواقدي[1].

هذا النص يعبر بجلاء عن شكل الصراع في مجتمع المدينة المنوّرة.. النقد الموجه إلى الخليفة بصوت عال دون مراعاة أبسط قواعد التخاطب وصولاً إلى الشتيمة من قبل الأطراف كافة، يقابله ضعف في شخصية الخليفة عن استيعاب محاوريه، وفيهم علي عليه السلام، واندفاعه إلى اتخاذ قرارات غير

(١) الغدير. م.س ص، ٣٠٦.

محسوبة النتائج. وهكذا وصل الأمر بهذا الصحابي الجليل(رض) إلى أن يصبح منبوذاً من محيطه قبيل نفيه إلى درجة أن الذين يخاطبهم بآرائه، وقد كان يتحدث بها مع الجميع وبأعلى صوته ـ كانوا يفارقونه خوفاً من إثارة غضب الخليفة لمجرد الاستماع إليه.

أخرج أبو نعيم في حلية الأولياء (ج١، ص١٦٢) من طريق سفيان بن عيينة باسناده عن أبي ذر قال: إن بني أمية تهددني بالفقر والقتل، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها، وللفقر أحب إلي من الغنى.

فقال له رجل: يا أبا ذر، مالك إذا جلست إلى قوم قاموا وتركوك؟ قال: «إني أنهاهم عن الكنوز»، واستمر على رفضه لعطاء الخليفة باعتباره رشوة منه لسكوته (كما ورد في سنن البيهقي).

## أبو ذر والاشتراكية

كلمة الاشتراكية ونسبتها إلى الإسلام تثير حالياً تحفظ بل ورفض رجال الدين الإسلامي كافة، لهذا جهد الباحثون منهم (معاصرين) في نفيها عن سلوك أبي ذر. والحقيقة أن هذا المصطلح وهو ترجمة للكلمة الإنجليزية (Socialism) يعني الاجتماعية أو العدالة الاجتماعية، وعندما دخل في الاقتصاد السياسي اتخذ معنى العدالة في توزيع الثروة، ولم يكن فيه ما يسيء إلى الإسلام بالمقارنة. فهل كان أبو ذر إلا داعية لشيء كهذا؟

فتوى الأزهر التي أشرنا إليها تنص من ضمن ما ورد فيها على «أن من مبادىء الدين الإسلامي احترام الملكية وأن لكل امرىء أن يتخذ من الوسائل والسبل المشروعة لاكتساب المال وتنميته(..).

وذهب أبو ذر الغفاري(رض) إلى أنه يجب على كل شخص أن يدفع ما فضل عن حاجته من مال مجموع عنده في سبيل الله أي في سبيل البر والخير وأنه يحرم ادخار ما زاد عن حاجته ونفقته ونفقة عياله. هذا مذهب أبي ذر ولا

يعلم أن أحداً من الصحابة وافقه عليه(. .) بما لا مجال للشك معه في أن أبا ذر(رض) مخطىء في هذا الرأي(. .) وصاحبه مجتهد مخطىء مغفور له خطأه بل مأجور عليه اجتهاده(. .) ولما كان مذهبه داعياً إلى الإخلال بالنظام والفتنة بين الناس طلب معاوية والي الشام من الخليفة عثمان(رض) أن يستدعيه إلى المدينة(. .) فأخذ أبو ذر يقرر مذهبه ويفتي به ويذيعه بين الناس فطلب منه عثمان أن يقيم بجهة بعيدة عن الناس فأقام هو بالربذة(. .). وجاء في فتح الباري للحافظ ابن حجر: ان دفع المفسدة مقدَّم على جلب المصلحة. . الخ». فهل كان أبو ذر كذلك؟

واقع الحال أنه رضي الله عنه لم يكن إلا متمسكاً بجوهر الإسلام وبإمامة عليّ عليه السلام ولو أنه اتبع في سبيل الدفاع عن منهجه أسلوباً يتسم أو ينسجم مع طبيعته البدوية القاسية لا أكثر ولا أقل.

كان رحمه الله المنفذ الفعلي قولاً وسلوكاً لقناعات الإمام، وسلك بما لم يستطع الإمام القيام به لأسباب كثيرة سبق شرحها، لهذا اتخذ تصميماً على أن يكون طليعة التضحية بالذات في سبيل ما يعتقد وعن إيمان عميق بصوابية ما يفعل. وفي دفاع (الأميني) عنه ما يعزز تلك المقولة؛ إنّه لم يخالف السنة النبوية قيد أنملة، بل إن الخليفة الثاني كان مثله الأعلى في سلوكه الاقتصادي بمواجهة إقبال الدنيا والثروة على مجتمع المدينة المنورة الفقير، ويقدم المؤلف أمثلة مهمة لتعزيز وجهة نظره، لعل أبرزها قول عمر بن الخطاب لأبي هريرة لما قدم من البحرين: «يا عدوّ الله وعدوّ كتابه، أسرقت مال الله؟ قال: لست بعدو الله ولا بعدو كتابه ولكني عدو من عاداهما ولم أسرق مال الله».

ومال الله هو ما في أيدي المسلمين مما يأتيهم من الموارد المعروفة للمال العام رغم أنّه كان يقسم بين المسلمين، ليقول عمر أيضاً «ألا أخبركم بما استحل من مال الله. حلتين حلة الشتاء والقيظ».

هي إذن اشكالية توزيع الأموال وما يجب على المسلم الحق أن يسلكه فيها: أن يكون زاهداً حتى وهو يملكها، وهذا يعني التشدد في السلوك ليكون رجل النخبة من الصحابة مثالاً للآخرين، وليس أدل على المثالية الحقة في الإسلام من الزهد في المال بحيث يتساوى الغني والفقير في معيشتهما.

كان أبو ذر يعلم ذلك، وقد علمه الإمام علي مثل ذلك، وظل سلوكه منسجماً مع إيمانه بتلك المساواة، أن يكون القدوة للمسلمين في التصرف بالمال، لهذا اختار الزهد منهجاً انسجاماً مع قناعاته كقدوة وحسب، ولم يفت مطلقاً بحرمة أن يجمع الإنسان مالاً على الإطلاق، إذا اتبع الشروط الإسلامية لذلك: الانفاق في سبيل الله.

الواقع يقرر تبعاً للوثائق أن الأموال في مجتمع المدينة كانت فائضة عن حاجة الناس، وأن أبا ذر ذاته كان باستطاعته أن يكون غنياً كغيره ولكنه أبى، واختار الزهد في الدنيا، فما الذي سعى إليه إذن؟

للانصاف وحسب يجدر بالباحث أن يقرر أن الصراع حول الأموال في مرحلة أبي ذر دار في إطار الصراع السياسي، ووشحته السياسة وطغى عليه صعود نزعة العودة إلى مرجعية الإمام علي عليه السلام مقابل فساد إدارة الخليفة الثالث رحمه الله وسيطرة قبيلته (بنو أمية) على مقاليد السلطة في الإمبراطورية الإسلامية.

كان أبو ذر أُصولياً متشدداً في التعبير المعاصر: الخشونة في ذات الله. ورغم تشبيه الرسول له بعيسى بن مريم وخلقه ونسكه وزهده «من سره أن ينظر إلى المسيح عيسى بن مريم إلى برّه وصدقه وجده فلينظر إلى أبي ذر» (كنز العمال ومجمع الزوائد) في السنة النبوية، يجدر بنا الإقرار: لقد انتهت مرحلة الثورة وبدأت مرحلة جديدة تماماً هي ترسيخ قواعد دولة، ولم يكن ذاك زمان أبي ذر، ولا زمان علي بن أبي طالب حتى عندما تسلم الخلافة (وهو ما أشرنا

إليه) فبدا أبو ذر رضي الله عنه مجرد صيحات يائسة في الصحراء، لم يستجب لها إلا أقل القليل، وانطبقت عليه نبوءة رسول الله ﷺ بحذافيرها، تمام انطباقها على إمام المسلمين ووصي الرسول عليّ، وكان عليّ يعلم ذلك فصبر كأولي العزم، وفي الحلق شجى (كما عبّر) حتى لقي ربّه.

## أبو ذر في المنفى

مأساة هذا الإنسان المثال أنه عاد أعرابياً في الصحراء القاحلة كما وصف نفسه، وتقول الوثائق وصفاً لمأساته «إنه عاد راعي غنم فكانت له غنيمات يعيش هو وعياله منها فأصابها داء يقال له النقاب فماتت كلها فأصاب أبا ذر وابنته الجوع. فقالت ابنته: أصابنا الجوع وبقينا ثلاثة أيام لم نأكل شيئاً! فقال لي أبي: يا بنية قومي بنا إلى الرمل نطلب العنب (نبت له حب) فصرنا إلى الرمل فلم نجد شيئاً، فجمع أبي رملاً، ووضع رأسه عليه، ورأيت عينيه انقلبتا فبكيت، فقلت له، يا أبه كيف أصنع بك وأنا وحيدة».

هي لوحة تشكيلية بالغة القسوة لإنسان اختار قدره هكذا ورفض حتى معونة إمامه (علي) المالية.. لقد أراد أن يصوغ مصيره تبعاً للنبوءة الرسولية (تموت وحيداً)، وقد حدّث ابنته في لحظاته الأخيرة بذلك[1]. تقول ابنته: دخل إليه قوم من أهل الربذة فقالوا: ماذا يشتكي؟ قال: ذنوبي، قالوا: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قالوا: هل لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. وتتابع الابنة: فلما مات: مددت الكساء على وجهه ثم قعدت على طريق العراق، فجاء نفر فقلت لهم: يا معشر المسلمين، هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد توفي فنزلوا، ومشوا يبكون، فجاؤوا فغسّلوه وكفنوه، ودفنوه وكان فيهم (الأشتر).

---

(١) أبو ذر الغفاري، م.س، ص١٥٢ عن أعيان الشيعة للأمين.

وكان ذلك خيار أبي ذر الوحيد، أن يعمل للمستقبل، وفي مواجهة فشل مشروعه والظلم الذي أوقعته به السلطة (كان باستطاعتها تحمل منهجه بكل تأكيد) اختار جوار أحبائه.. وقد أحب رسول الله كثيراً وأحبه الرسول ﷺ أيضاً.

## مالك الأشتر النخعي

هو شخصية تختلف بالمهمة الموكلة إليه من قبل الإمام علي عليه السلام عن أبي ذر الغفاري.. كان قائداً عسكرياً مقاتلاً، وصفه الإمام علي كأروع ما يكون عندما قال: كان لي كما كنت لرسول الله ﷺ[1] سقط شهيداً من أجل مشروع الإمام الإسلامي، وعرف بلقب الأشتر لجرح في وجهه، (وكما أسلفنا) (فقد مات أبو ذر الغفاري بين يديه وتولى مالك دفنه وأبّنه تأبيناً يدل على الألم لما لقيه من عنت وغبن).

عندما يذكر المؤرخون موقعة صفين الشهيرة بين علي عليه السلام ومعاوية يبرز اسم مالك كقائد تكتيكي بارع لجيش الإمام إلى النصر (أو كاد) لولا المصاحف المرفوعة على أسنة الرماح، ولعلّ أبرز ما في تلك المعركة، الحرب الأهلية، ما عرف بليلة الهرير، كما نقل عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم، حيث قاد مالك معركة ليلية في ظلمة حالكة لا يسمع فيها إلا الهرير، على نهر الفرات شمالي سوريا، وأصر على رفض التحكيم بدءاً ثم رضخ في النهاية إخلاصاً للإمام علي، في موقف يذكره التاريخ بما استحق أن يعبّر عنه فيها برجل الإمام العسكري وأداته القيادية البارعة والشيعي المخلص المجاهد.. ولكنه لم يكن من صحابة رسول الله ﷺ فلم يدرجه باحثو مدرسة أهل البيت ضمن الأركان الأربعة الذين أشرنا إليهم.

---

(١) العقيد أحمد الزيدي، القائد العلم، مالك الأشتر، دار الهادي، بيروت ١٩٩٨، ص١٥.

في تلك الليلة كما وصفت (الثلاثاء ١٠ ربيع الأول ٣٧هـ) «وجعل الأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام، ازحفوا قيد رمحي هذا، فإذا فعلوا، قال ازحفوا قاب هذا القوس فإذا فعلوا سألهم مثل ذلك حتى ملّ أكثر الناس الإقدام ثم عاد بفرسه وركز رايته (. .) وأقبل على فرس له كميت محذوف قد وضع مغفره على قربوس السرج وهو يقول: اصبروا معشر المؤمنين فقد حمي الوطيس(. .) وخرج يسير في الكتائب ويقول: ألا من يشري نفسه لله ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أو يلحق بالله. . فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه»[1].

وقد وصفه أحدهم قائلاً: أي رجل هذا لو كانت له نيّة، ويرد عليه آخر: وأي نيّة أعظم من هذه ثكلتك أمك وهبلتك أن رجلاً فيما ترى قد سبح في الدماء وما أضجرته الحرب وقد غلت هام الكماة من (الحر) وبلغت القلوب الحناجر وهو كما ترى يقول هذه المقالة اللهم لا تبقنا بعد هذا.

عندما يقرأ الباحث تفاصيل معركة صفين يكتشف مالك الأشتر كمحارب قائد، رغم الغلو والرواية الخيالية لمعركة مفصلية في التاريخ الإسلامي، ولكنه بالتدقيق يتعرف إلى نوعية رجل كهذا متجاوزاً التناقض بين الهرير والحر في وصف المكان والجو، ويدرك أخيراً أن الطرفين المتحاربين (في الغالبية العظمى من المشتركين) كانت تشارك في قتال لا تؤمن بمشروعيته، عبر ما ينقله المؤلف من حوارات وشعر، وأن هناك بين الطرفين صفوة من القلة تعرف أهداف الحرب وتؤمن بمشروعية الطرف الذي تقف فيه، وأن النتيجة النهائية للمعركة (التعادل) كانت هزيمة للحق الذي وقف إلى جانبه كل من الإمام عليه السلام ومالك وعمار بن ياسر الذي غادر هذه الدنيا شهيداً على ساحة المعركة.

---

(١) سير الأئمة م.س ص، ١٩٣.

الاسم الكامل لمالك هو: مالك بن الحارث بن عبد يغوث بن النخع، وهو من قبيلة مذحج من اليمن، لقب بالأفعى، وقبيلته الكبرى هي النخع، سكن العراق وكان من سادة الكوفة، ولد قبل الإسلام بقليل، واختلف حول مشاهدته لرسول الله، فإذا أكد الواقدي في فتوح الشام أنه خاض المعامع مع علي في عهد رسول الله فلا بد أنه شاهد النبي، ومع ذلك لم يعتبر من الصحابة لأمر يظل غامضاً، رغم اعتراف الوثائق بمشاركته في الفتح الإسلامي، ضمن القيادة العليا للجيش[1].

كان مالك الأشتر(رض) طويل القامة ضخم الجثة، حتى إنه كان إذا ركب جواده خطت قدماه على الأرض، لهذا ظل منظره يبعث في نفوس مواجهيه الخوف، أُصيبت عينه في معركة اليرموك (أي شترت) فلقب بذلك. عرف من صفاته التواضع وسمات القائد العطوف على جنده، يقتحم المخاطر أمامهم، وتؤكد الوثائق التاريخية أنه لم يترجل مجاهداً حتى استشهد، وشهد كل معارك الإسلام، إن مع العدو منها، أو حروب الإمام علي الأهلية، هذا الجندي النموذجي المؤمن المجاهد، يمكن اعتباره رمزاً لرجل القول والفعل في التاريخ الإسلامي نموذج مقاتل نذر حياته للعقيدة، وقاتل في سبيل الحق، فكان أقرب الناس شبهاً بالإمام علي في سلوكه: قلباً وسيفاً، وإن لم تعرف من سماته التبحر في العلم، فلم تذكر كتب التاريخ عن ذلك شيئاً.

إن الأوضح في كتب التاريخ هو مالك المقاتل، حتى أنها لم تعط تفاصيل علاقته بالإمام علي بن أبي طالب في جانبها العقيدي، أو تبين آراءه في الخصوم الذين قارعهم الإمام في أحقيته بالخلافة منذ رحيل رسول الله ﷺ، لهذا لقّب برجل المهمات الصعبة لدى الإمام، وأوكلت إليه في سنة ٣٨هـ مهمة ترويض مصر، وعهد إليه الإمام أشهر عهوده السياسية في

---

(١) مالك الأشتر، م.س، ص١٩.

نهج البلاغة، هذا العهد اعتبر أهم وثيقة سياسية لمعرفة فكر الإمام[1].

«ثم اعلم يا مالك أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده..».

فكان العهد درساً لهذا المقاتل في سياسة الرعية، وثقة من الإمام بمقدرته على القيام بما أوكل إليه، وهو في الوقت ذاته دلالة على معرفة الإمام أيضاً بأن مالك لم يكن في مستوى الثقافة الإسلامية العالية التي يتمتع بها شيعته الآخرون.

يقول الإمام في عهده إليه «وأكثر مدارسة العلماء، ومثاقفة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك، واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود لله، ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل.. ومنها التجار، وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة...»

والواقع أن تلك الوثيقة السياسية المسلمة إلى مالك، مع معرفة الإمام بالمصاعب التي تواجهه وربما مصيره الأخير، كانت رسالة تعليمية أخيرة للأمة الإسلامية حملها لأبرز شيعته وجنوده واشتهرت بعهد مالك الأشتر. ومن المعلوم أن هذا المجاهد الرائع قتل مسموماً من قبل مخابرات معاوية، وكما يروي الطبري أن الجايستار (وهو رجل خراج) قام بسمه في مكان يدعى القلزم (العريش) فقضى نحبه، وقد حزن عليه الإمام علي حزناً شديداً وقال: «لا أرى مثله أبداً» كما روى الشيخ المفيد في الاختصاص.

---

(١) راجع نهج البلاغة، م.س، ص٣٦٦.

ويقال إن الإمام صعد المنبر ( كما يروي ابن أبي الحديد) ثم قال: «رحم الله مالكاً فقد كان وفى بعهده، وقضى نحبه ولقى ربه مع أنا وطنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ﷺ فإنه من أعظم المصيبات»[1]..

## عمار بن ياسر(رض)

أصبح عمار رمزاً لمفهوم الحق في الإسلام، في الجهة التي يقف معها، منذ أن أطلق عليه رسول الله ﷺ حديثه الشهير الذي تناولته كتب السيرة جميعاً «ويح عمار تقتله الفئة الباغية» وكان ذلك أثناء حفر الخندق عام ٨هـ[2].

لكنه صار من أكثر الصحابة شهرة بين المسلمين في كافة عصورهم، وحمل اسمه ملايين المسلمين لأنه عذب في سبيل الله في بداية الدعوة، وذكرته الكتب المدرسية التي تتضمن تاريخ الدعوة منذ المرحلة الابتدائية، وتحوّل إلى رمز للصمود وتفاصيل عذابه وأبيه وأمه على رمضاء مكة تملأ تلك الكتب، حتى إن رسول الله ﷺ أجاز له التصريح بالكفر حفاظاً على حياته ونزلت فيه آيات قرآنية شهيرة، وكانت أمه سمية أول شهيدة في الإسلام، ومات أبوه صبراً من العذاب، وهاجر إلى المدينة وشارك في معارك الإسلام وصحب النبي حتى رحيله، وأعلن اصطفافه إلى جانب الإمام علي على رؤوس الأشهاد، وأصبح من الأركان الأربعة، ثم استشهد في معركة صفين عام ٣٧هـ وقد طعن في العمر. وتروي الوثائق المتفق عليها للتاريخ الإسلامي أن معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص عندما أبلغا بخبر استشهاده وقد علما باليقين حديث رسول الله أطلقا عبارة شهيرة «لقد قتله من

---

(١) مالك الأشتر، م.س، ص٤٦.

(٢) محمد جواد آل الفقيه، عمار بن ياسر، دار التعارف، بيروت، ص٩، نقلاً عن مراجع تبلغ به حد التواتر.

أخرجه» يعني الإمام عليّ، دفاعاً عن موقفهما حتى لا يوصفا بالفئة الباغية مصداقاً للحديث، وكانت تلك خاتمة لحياة صحابي جليل أحبه المسلمون جميعاً ولم يختلفوا فيه ليصبح رمزاً لكل ما هو نبيل في التاريخ الإسلامي.

هذا الصحابي من اليمن (أهل العرب). ولا تعرف سنة ولادته إلا أنها سنة ولادة الرسول ٥٧٠ ميلادية[١] في مكة التي قدم أبوه إليها وحالف أحد أبرز سادتها (أبو حذيفة بن المغيرة المخزومي) الذي زوجه جاريته سمية بعد حب عاصف بينهما، ولأن سمية جارية فقد قام صاحبها بمنحها الحرية عندما ولدت عماراً وهكذا ثابر عمار وأبوه على التحالف مع بني مخزوم لكسب الحماية، وبهذا الاعتبار أصبحوا في مرتبة الحلفاء الاجتماعية، وهي الطبقة الدنيا من مجتمع مكة المكرمة.

تتحدث كتب التاريخ عن صداقة نشأت بين عمار ومحمد بن عبد الله، هذه الصداقة المخالفة لتقاليد المجتمع المكي الارستقراطية وبسبب امتداد عمر هذا الصحابي حتى العام ٣٧هـ اعتبرته من أشهر رواة السيرة والسنة النبوية، ومن أخلص صحابته وأحبهم إليه بعد عليّ عليه السلام. والحقيقة أن كتب السيرة تتنازعها أحاديث متضاربة حول أحب الناس إلى النبي، فمنها من يقدم علياً وفاطمة وشيعتهما الأربعة، ومنهم من يضع أبا بكر وعائشة في المقام الأول، ولكن المنطق التاريخي ينحاز إلى عمار تحديداً بين جميع الصحابة بعد فاطمة وعلي، وربما كان يوازيهما فهو صديق الطفولة، والنصير الأبرز لرسول الله في زمن عز فيه الأنصار، وصحبة كهذه وتحديداً في زمن النضال المبكر والعذاب ومقارعة الخصوم تمنح لعمار قصب السبق.

يروي عمار تفاصيل دقيقة من حياة رسول الله لم يكن لأحد أن يعرفها ممن كتب لهم العمر المديد (حالي ٩٠ عاماً لوفاته عام ٦٦٠م)، ومنها ما نقله

---

(١) ن.م، ص٢٩.

اليعقوبي عن قصة زواجه من خديجة بنت خويلد عام ٥٩٥م، وبسبب تلك الصحبة نقل عن عمار بعض ملامح حياة النبي قبل البعثة النبوية، وقصة الوحي الأول، مما اعتبرت قسماً منه مراجع من مدرسة أهل البيت قابلاً للشك فيه وإن لم تقدم البديل(*).

اقترن نضال عمار في فجر الدعوة ببلال مؤذن الرسول(رض)، ولكن بلالاً لم يوضع في مرتبة الأركان الأربعة لأسباب غامضة، وقد اقترن اسمه بعمار في كتب تأويل القرآن وتحديداً في الآية الكريمة من سورة الأنعام الآية(٥٢) ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ . . .﴾ فقد ورد في تلك الكتب جميعاً أنها نزلت بالمستضعفين الأربعة (الموالي أو العبيد) عمار، صهيب وبلال وخبّاب. وبعيداً عن تأويل الآية في مسألة ما تشير إليه من تعامل الرسول معهم بالقسوة أحياناً (تطرد)، فلم يوضع بلال في مرتبة عمار مطلقاً، ولم يدرج في أعمدة التشيع الأساسية، ولم تعتبره كتب السنة من النخب المثقفة ورواة الحديث رضي الله عنه، وإن ذكرت قصته الشهيرة مع أبي ذر عندما اشتكاه إلى رسول الله لشتمه له وتوصيفه بالسواد، واعتذار أبي ذر الشهير(١).

## عمار في القرآن والسنّة

اتفقت كتب تفسير القرآن المعتمدة وهي: الطبري، القرطبي، البيضاوي، الزمخشري، الرازي، ابن كثير، ابن جزي، الدر المنثور،

---

(*) المنهج العقلي لمدرسة أهل البيت حلل رواية نزول الوحي الشهيرة في غار حراء، ورجوع الرسول إلى بيته وموقف زوجته خديجة وسؤالها عمها ورقة بن نوفل حول الأمر، وتأكيد الأخير لنبوّة الرسول ﷺ، إنها بالتحليل تسيء إلى عصمة رسول الله وعلمه ومكانته، فلا بد أنه عرف بالنبوة ولم يجزع كما اتفقت كتب السيرة جميعاً.

(١) راجع: أبو ذر الغفاري. م.س.

الخازن، الشربيني، الشوكاني على أن هناك آيات خمس نزلت في عمار بن ياسر(رض).

١ ـ الزمر ٩ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

٢ ـ الأنعام ٥٢ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾.

٣ ـ النحل ١٠٦ ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

٤ ـ القصص ٦١ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾.

٥ ـ الأنعام ١٢٢ ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[1].

وتعتبر الآية الثالثة من أشهر ما عرف لصوقها به خاصة عندما أشرف على الهلاك من العذاب واصرار معذبيه على قتله إن لم يتخل عن الإسلام ونصيحة رسول الله الشهيرة له بفعل ذلك حقناً لدمه، وتكرار ذلك عليه بقولته الشهيرة: «إن عادوا فعد»[2].

ويجدر القول هنا إن من النادر أن يتفق المسلمون على أسباب نزول آية في شخص كما اتفقوا على مكانة عمار في القرآن، بل ولم يتفقوا على حديث نبوي كما اتفقوا في مراجعهم على أن عماراً مع الحق كما وصفه رسول الله ﷺ، بل إن الحديث الوارد في مسند أحمد بن حنبل[3] برواية عائشة أم

---

(١) راجع الغدير ج٩، م.س ص٣٤.

(٢) عمار بن ياسر، م.س ص٤٧.

(٣) عبد الحسين شرف الدين الموسوي، المراجعات، تحقيق حسين راضي، ط٢، بيروت، مراجعة ٧٤.

المؤمنين يؤكد ذلك بما لا يدع مجالاً للخلاف «جاء رجل فوقع في علي وفي عمار عند عائشة فقالت أما علي فلست قائلة فيه شيئاً، وأما عمار فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول فيه: لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما».

أهمية حديث كهذا شمولية الإشارة إلى طبيعة سمات عمار الشخصية وسعة عقله وعلمه الواسع معاً ووقوفه مع الحق المطلق، وإذا قرن بحديث نبوي آخر رواه ابن كثير في تاريخه وآخرون لا يمكن نسبتهم إلى الانحياز لمدرسة أهل البيت (بل العكس صحيح) أمكن التأكيد بأن عماراً في انحيازه إلى الإمام علي عليه السلام وتوحده به وبنهجه كان مع الحق: بنص الحديث «جاء رجل إلى ابن مسعود فقال: أرأيت إذا نزلت فتنة فكيف أصنع، قال: عليك بكتاب الله قال: أرأيت إن جاء قوم كلهم يدعون إلى كتاب الله؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا اختلف الناس كان ابن سميّة مع الحق»[1].

وفي هذا المجال، وبين الكثير مما ورد في السنة النبوية، يضاف حديث بالغ الأهمية بسبب ربطه بين بعض الصحابة في الحياة والآخرة، ورد في مجاميع يقدرها الجميع للحديث النبوي هي: الترمذي، وحلية الأولياء، ومستدرك الحاكم، وتفسير القرطبي، وصححه الذهبي والترمذي والطبراني، ومجمع الزوائد للهيثمي وأخرجه ابن عساكر في تاريخه الشهير، وكذلك في الاستيعاب لأبي عمر.. يقول الحديث عن أنس بن مالك «إن الجنة تشتاق إلى أربعة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي والمقداد» وفي لفظ ابن عساكر «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة إلى علي وعمار وبلال».

أما النص الأول فهو يشمل الأركان الثلاثة ولم يرد فيه اسم أبي ذر الغفاري، والثاني يقرن فيه اسم بلال، وأهميته في شموله لعليّ وأنصاره، وبمقارنة بسيطة مع حديث عائشة يصل الباحث إلى التأكيد بأن عماراً متفق

---

(١) الغدير. م.س. ص٢٥ ج٩.

ليس على مكانته العالية في الإسلام وحسب، بل وعلى وضعه أداة للقياس في مصداقية الجانب الذي يقف فيه، ورغم كل ذلك، واصطفاف عمار مع علي حتى الشهادة، فلم يعزز هذا السلوك من منهج الإمام عليه السلام فقد اتخذت الظروف السياسية في مجتمع المدينة المنورة اتجاهاً مغايراً، وكاد عمار ينفى إلى الصحراء من قبل الخليفة الثالث، لولا تدخل الإمام الحاسم؛ الموقف الذي لم يقفه مع أبي ذر(رض) لمنع نفيه، وفي هذا بحد ذاته تدليل على مكانة عمار البالغة الأهمية.. عند الرسول وعلي معاً.

## علي وعمار

برز ارتباط اسميهما قبيل رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله كما أشرنا ولكن التلاحم المصيري تصاعد لأسباب لها علاقة بالصراع السياسي في مجتمع المدينة المنورة على الأحقية بالخلافة، ومع ذلك فلم يعرف متى بايع عمار الخليفة الأول، هل تم ذلك قبل الإمام علي أم بعده، ولا ينكر أنه قام بنشاط محدد لدعم الإمام، ولكن الوثائق تقرر أنه لم يكن في إطار الصراع (الأسروي) أمور في السقيفة أو ما بعدها، فقد جهد في ثلة من الصحابة وكلهم من أصول بعيدة عن قريش أو الأنصار «المقداد، سلمان، أبا ذر، عبادة بن الصامت، حذيفة، بن التيهان، عبادة بن الصامت» برواية البراء بن عازب في شرح نهج البلاغة[1]، أن يرجعوا الأمر شورى بين المسلمين، وهو كما يبدو الحد الأدنى من محاولة إعادة التصويت أو الانتخاب كما يقال، وجلهم كما هو واضح من المقربين إلى الإمام، ولكن عماراً انفرد بين هؤلاء بالخطبة في المسجد داعياً أحقية الإمام بالخلافة، وإن لم يشر إلى الوصية النبوية في خطبته تلك، وهو أمر مثير للاستغراب فعلاً[2].

---

(١) شرح نهج البلاغة، م.س. ج١، ص٢٢٠.

(٢) عمار بن ياسر م.س ص٧٥.

حول موضوع الوصية يستند الباحثون في تلك المرحلة إلى أن وثائقها المتوفرة في الاحتجاج على الأحقيّة، نادراً ما تتحدث عن حديث الغدير في دعم الإمام عليّ، إن في حديثه هو أو أحاديث أصحابه[1]، وأن حجة كهذه ظهرت متأخرة في مسائل الاحتجاج. ولقد اتخذ الوسطيون من المعتزلة ذات الطريق حتى باعترافهم بالوصية، للانصاف فإن تجاهل حديث خطير كهذا في وثائق المرحلة (إلا نادراً) لا يعني أنّه لم يكن متداولاً بقدر كونه مختلف على معنى مضمونه النبوي هل هو لمجرد الولاية في العلم أو المرجعية العلمية وحسب، ولكن أنصار أهل بيت النبي (أو ما نقل عنهم) استخدموا منهج الإمام العقلي في الرد على خصومهم بنفس منطقهم الخاضع للأهلية والقرابة والصحبة والقبيلة (قريش)، وهو ما استخدم ضد الأنصار في اجتماع السقيفة، فتوارى حديث الغدير إلى الهامش في خضم الحجاج العقلي على الأحقية، ولهذا لم تستخدمه السيدة الزهراء عليها السلام أيضاً فيما نقله عنها (شرح النهج) وهي تشكو ظلامتها لزوارها وللصحابة ممن دعموا أبا بكر، بمن فيهم عمر بن الخطاب (وهو ما نشير إليه في الخاتمة).

عمار بن ياسر التزم بعد ذلك بما التزم به الإمام في تغليب المصلحة العليا للأمة. هذا الشيخ المجاهد لم يترك معركة للإسلام بمعزل عن مشاركته، تماماً كما لم يتخلف عن أي منها في عهد النبي، فعرفته حروب الردة الأهلية، ولكنه لم يشارك في الفتوح أو في الرحيل نحو الشمال والجنوب للتبشير كما فعل عبد الله بن مسعود على سبيل المثال، هذا الأمر المثير للجدل، أرجعه بعض المؤرخين إلى سياسة الخليفة الثاني في إبقاء كبار الصحابة تحت رقابته اللصيقة، وعلى رأسهم الإمام علي بن أبي طالب، وقد

---

(١) راجع، محمد أبو زهرة، الإمام جعفر بن محمد الصادق، القاهرة، دار المعارف بلا تاريخ.

قبل المشاركة في السلطة كوزير.

برز تحالف أصحاب الإمام علي مجدداً (وعلى رأسهم عمار) في زمن الخليفة الثالث، ويجمع المؤرخون على ارجاع ذلك إلى سياسته المالية، وينطبق في هذا الموضوع عليه ما ينطبق على أبي ذر الغفاري كما تقدم. وفي هذا العهد الذي استقرت به دعائم الدولة وساد الرخاء وسيطرة الأسرة الأموية على النظام، عاد وهج المرجعية الإسلامية ليستقر في كنف الإمام علي بن أبي طالب، وامتزج الاقتصادي والسياسي بالديني، وليس أحق بتولي الأمر من علي عليه السلام، وكان لا بد من مرحلة دامية من الصدام بين المعارضة والخليفة وصولاً إلى الثورة العسكرية وقتل عثمان بن عفان رحمه الله.

في ظروف كهذه تتجه أنظار الناس إلى الأبرز بين صحابة رسول الله، وكما اسلفنا فإذا امكن للخليفة إبعاد أبي ذر فإن أمراً كهذا يستحيل تطبيقه على عمار، حتى بتساوي جهود المعارضة بين جميع أنصار الإمام. لهذا جهد المؤرخون من كل الأطراف في تبرئة علي من تهمة المشاركة في قتل عثمان، وكذلك عمار تحديداً، ولكنهم لم يستطيعوا تبرئة الخليفة الشيخ رحمه الله من أخطائه، فقد أجمعوا على ذلك في كل كتب التاريخ الإسلامي المعروفة، لهذا لا يستطيع باحث معاصر مهما جهد أن ينفي عنه مسؤولية اجتماع الاطراف والمركز في الثورة عليه، فيتساوى في ذلك من شارك في الحصار أو من اتخذ الاعتزال وابتعد عن المدينة كعلي عليه السلام.

في هذا المجال يبرز اسم شخصية مثيرة للشكوك والجدل بين إثبات وجودها (كما ورد في كثير من مصادر أهل البيت كالكشي في الرجال وغيره) أو بين من نفاها تماماً، ومن أبرز المعاصرين منهم السيد مرتضى العسكري في كتابه الشهير: مائة وخمسون صحابي مختلق[1]، وطه حسين، وكثير من

(١) راجع كتابنا المنهج التاريخي لدى السيد العسكري.

المستشرقين، ونقصد به عبد الله بن سبأ، وبصرف النظر عن وجوده من عدمه فإنه منطقياً يظل أعجز كفرد عن إثارة فتنة كالتي حدثت في العام ٣٥هـ وأدت إلى اغتيال عثمان. ولا يجوز في عصر التقدم العلمي أن يثابر المسلمون عبر باحثيهم من أهل السنة والجماعة على الإصرار على أن الخليفة الثالث لم يخطىء أو أن شيعة علي تجنوا عليه، أو على فكره أن شخصاً يهودياً فرداً كهذا يمكن أن يخلط أوراق التاريخ الإسلامي، في سبيل تطويع التاريخ لصالح فرد تبرئةً أو إدانة لا فرق.

لقد جرى التلاعب بالنصوص كما نجد لدى شيخ المؤرخين (الطبري) في اعتماده على روايات أشخاص مشكوك في مصداقيتهم كسيف بن عمر الذي تنسب إليه رواية تلك الأحداث[١] وحيداً.

وهكذا حمل هذا الصحابي الجليل من أنصار الإمام عبء تهمة المشاركة في الفتنة أو الثورة على الخليفة الثالث في تناقض وتشوش للروايات لم تشهد له الوثائق التاريخية مثيلاً.

قام الخليفة بضرب عمار بن ياسر عندما وجه نقده إليه حتى الإغماء، فثار بنو مخزوم حلفاؤه التاريخيون، ونقرأ نصاً كهذا في حوارات المرحلة يشير بدقة إلى تفاقم الوضع القبلي في مجتمع المدينة، بين من يتمتع بالحماية وبين من لا يتمتع بها: قام هشام بن الوليد المخزومي فقال للخليفة: يا عثمان أما عليّ فاتقيته وبني أبيه، وأما نحن فاجترأت علينا وضربت أخانا حتى أشرفت به على التلف، أما والله لئن مات لأقتلن به رجلاً من بني أمية عظيم السرّة»[٢].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، ويجدر بالباحث ملاحظة ذلك المصدر الوحيد في الكتاب للأحداث في العام ٣٥هـ مما لا يسمح بوجود تقاطعات في الروايات كما اعتاد الطبري أن يفعل عادة.

(٢) الغدير ج٩، م.س، ص١٥ عن الأنساب للبلاذري ج٥، ص٤٨.

والواقع أن ضرب عمار تحديداً استفز المجتمع المدني حتى أن أُم المؤمنين عائشة (وكانت تتمتع بمكانة بالغة الأهمية فيه) هاجمت عثمان واتهمته بترك سنة النبي، وكان عمرو بن العاص أيضاً حاقداً على الخليفة لعزله عن ولاية مصر، وكذلك أم سلمة (أم المؤمنين). وبالتأكيد ساهم بنو أمية (مروان بن الحكم) بتحريض الخليفة، فقام، ربما بأول استنجاد بالإمام علي عليه السلام لدعمه كما يروي ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة)[1] فأجابه الإمام (وفي هذا الجواب تعبير بليغ عن الوضع البالغ الحرج الذي وجد فيه الإمام نفسه أمام تصاعد الفتنة): «إن فيما تكلمت فيه لجواباً، ولكني عن جوابك شغول بوجعي، فأنا أقول كما قال العبد الصالح: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

يأخذ المؤرخون على الخليفة عجزه عن استيعاب المعارضة، ليأتي ضرب عمار بعد العريضة الانتقادية المرفوعة إليه حول سلوكه، ذروة إثارة النقمة عليه، ولعلّ في ذلك أبلغ الدلالة على مكانة عمار بن ياسر(رض)، فلم تحدث النقمة كما جرى عند نفي أبي ذر وقومه. كان عمار قد تحول إلى رمز أو ضمير لمجتمع العاصمة التي تحكم دولة الإسلام الفسيحة، ويقال إن الخليفة لم يعد يستطيع احتمال تجاهل الصحابة له حتى في جنازاتهم كما جرى حين دفن عبد الله بن مسعود حافظ القرآن والسنّة الأبرز. ولعلّ من أطرف أمور المرحلة ما نقله الرواة فيما يتعلق بخلاف عمار والخليفة الثالث أن الخليفة نفسه هو الذي يروي حديث رسول الله صلى الله عليه وآله الأشهر: «أبشروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» وهو حديث متواتر منتشر بين المسلمين جيلاً بعد جيل[2].

بعيد رحيل الخليفة الثالث عام ٣٥هـ، بدأ عهد الحروب الأهلية،

---

(١) ن.م ص١٨.

(٢) ن.م ص٢٠.

وأصبح عمار بن ياسر(رض) عجوزاً فلا يستطيع استنتاج أنه أصبح من رجالات مرحلة القتال المرير. وفي ظل قيادة كالإمام عليعليه السلام يتوارى الآخرون، فلم تقدم الوثائق خلال السنوات الثلاث المتبقية من عمر هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه شيئاً يذكر، إلا مشاركته في المعركتين: الجمل وصفين، رغم كبر سنه..

ويذكر في كتاب الجمل وصفين موقف لعمار في محاولة وساطة مع عائشة أم المؤمنين، ولكن خطبته المنقولة[1] والمختصرة تحمل وجهة نظر مهمة: يقول: أيها الناس ما أنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم في الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف: **ثم دنا إلى موضعها ونادى: إلى ماذا تدعين: قالت إلى الطلب بدم عثمان، فقال: قاتل الله في هذا اليوم الباغي والطالب بغير حق ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل:**

فمنك البكاء ومنك العويل ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقاتله عندنا من أمر

يختصر هذا النص مسألة الخلاف بين الأجنحة المتصارعة والتهم الموجهة من كل جهة إلى أخرى واندماج السياسي بالديني بالقبلي بالنعرات الشخصية القديمة، ولا يعرف بعد من قائل هذين البيتين الشهيرين أهو عمار حقاً أم غيره.

وقف عمار إذن باختياره إلى جانب عليعليه السلام وكان خصومه يعلمون مكانته ويحفظون أحاديث الرسول بشأنه، وكلهم سعى إلى تبرير موقفه، وبقي الحكم للتاريخ.. أما عمار بن ياسر فقد ثابر على طريق الجهاد نحو صفين محطة حياته الأخيرة.

يروى من طرائف ما بعد (الجمل) أن أم المؤمنين ندمت على مشاركتها

---

(١) السيد محسن الأمين، الجمل وصفين، م.س ص٤٢.

فيها[1]: ولكن منطق ما بعدها إلى رحيل الإمام شهيداً وفرحها بذلك يؤكد عكس تلك الرواية التي يجندها باحثو مدرسة أهل البيت جميعاً. لقد تصاعدت القبلية والثروة والملك وتراجعت الأيديولوجيا مقابل ذلك وتلك سمة المرحلة بالاجماع، فثابرت السيدة أم المؤمنين على نهجها (وإن تراجعت مكانتها في المدينة زمن علي ومعاوية) وتابع عمار والإمام علي الإصرار على محاولة ترسيخ مشروع، كانا يعلمان بالقطع تراجعه أمام التحديات المستجدة، وهكذا جاءت وفاة عمار في لهيب معركة صفين: أشهر المعارك الأهلية في التاريخ الإسلامي.

## استشهاد عمار(رض)

تروي المراجع اللحظة الأخيرة في حياة عمار، وهذه التفاصيل لا يمكن أن ترقى للحقيقة والمنطق معاً، فقد استشهد الصحابي الشيخ المسن في يوم من أيام صفين بالتأكيد، واختار هو طريقة موته.. بالسيف. ويقال إنّه كان يحمل راية الإمام علي مقابل راية عمرو بن العاص، وأنه في يوم موته حمل على الخصوم، وقبل أن يفعل استسقى فأتته امرأة طويلة البدن ومعها اداوة فيها ضياح من لبن فقال حين شرب «الجنة تحت الأسنة: اليوم ألقى الأحبة محمداً وحزبه والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنتم على الباطل» ويوردون أيضاً أن اثنين ساهما في قتله: ابن حوّي السكسكي، وأبو العادية، وأن الأخير احتز رأسه[2].

ليس أمام الباحث في حياة هذا المجاهد العظيم وهو يرى ختام حياته المأساوي.. قتل واحتز رأسه لطلب الجائزة من معاوية، إلا أن يناقش تلك

---

(١) عمار بن ياسر م.س، ص١٥٨.

(٢) ن.م ص٢٢٧ عن كتاب صفين لنصر بن مزاحم.

التفاصيل بعين ناقدة مشككة ولو أن ذلك لا يفيد بشيء، فقد كانت نهاية مفجعة تعبر عن مأساة حملة العقيدة الصادقين في مواجهة قدر لا يرحم، والحقيقة أن أُولئك الذين قدموا تلك الروايات فعلوا بها بمخيلتهم، ورغباتهم معاً، ولكن فاجعة موت صحابي كعمار بهذه الطريقة تعبّر بوضوح عن الدرجة التي تصاعدت فيها سنن القبيلة لتسيطر على الإيمان والأخوة الاسلامية، حتى وإن لم تصدق رواية استشهاد عمار.

وهكذا رحل رمز الحق على تلك الصورة المرعبة، وليس من شك في أن موته فعل فعلته في صفوف الطرفين، والأكثر تأثراً كان حزب معاوية وابن العاص عندما استخدما التبرير الشهير (قتله من أخرجه).. أما الطرف الممثل للحق والذي قاتل عمار معه، فقد أدرك الإمام عليّ بن أبي طالب سلام الله عليه أن نهاية عمار على تلك الصورة هي عملياً نهاية مشروعه الإسلامي، ولم يؤثر عنه أيضاً رثاءٌ لعمار، الذي دفن في قبر مجهول في ساحة المعركة، تم إبرازه اليوم على الطرف الشرقي لمدينة الرقة قريباً من الفرات، ولكن عماراً شرب جرعة لبن قبيل رحيله وقد قتلته الفئة الباغية.

## المقداد بن الأسود(رض)

من خلال القليل مما كتب عن سيرته يعجب الباحث من الدافع الذي حدا برسول الله ﷺ لوضعه في صف الذين قرنهم بالإمام علي في الجنة، فقد ورد في السنة النبوية حديث بصيغ ثلاث وضع المقداد في أحدهما وهما (وقد أشرنا إليها في بحث عمار بن ياسر).

١ ـ عن أنس بن مالك مرفوعاً: إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد.

---

(١) الغدير، م.س، ج٩، ص٢٦.

٢ ـ وفي لفظ الترمذي والحاكم وابن عساكر: اشتقات الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان.

٣ ـ وفي لفظ لابن عساكر: اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: إلى علي وعمار وبلال.

أما الذين أخرجو هذا الحديث بصيغه الثلاث فهم: أبو نعيم في حلية الأولياء (ج١، ص١٣٤) والحاكم في المستدرك (ج٣، ص١٣٧) وصححه هو والذهبي والترمذي والطبراني كما في تفسير القرطبي (ج١٠، ص١٨١) وتاريخ ابن كثير (ج٧، ص٣١١) ومجمع الزوائد للهيثمي (ج٩، ص٣٠٧) وأخرجه ابن عساكر في تاريخه (ج٣، ص٣٠٦) وأبو عمر في الاستيعاب (ج٢، ص٤٣٥)[١].

هذه المراجع الموثوقة لدى كل الأطراف، يحتل في الحديث السالف منها عمار (رض) القاسم المشترك وسلمان والمقداد، وأبو ذر المرتبة التالية، ولأن بلالاً وأبا ذر وسلمان وردوا في مواقع أخرى من السنة النبوية بقي المقداد وحيداً لم يرد إلا في لفظ من حديث، مما يثير الجدل حول مكانته الفعلية بين أصحاب الإمام الخلّص، وهو منهم بكل تأكيد.

المقداد بن عمرو بن ثعلبة الهرائي[٢] ولقبه ابن الأسود الكندي، قدم من حضرموت بعد أن هاجر أبوه إليها هرباً من ثأر وحالف قبيلة كندة هناك وتزوج منها، لهذا اتسم هذا الصحابي بالشكل الأوروبي (الأشقر) والطول الفارع، وكان فارساً شجاعاً ممدوح السيرة في الوثائق التاريخية، أسلم في مكة (قديماً) وكتم إسلامه خوفاً من سيده (الأسود بن عبد يغوث) والذي حمل اسمه (لقباً) فيما بعد، ولم تعرف سنة ولادته.

---

(١) محمد جواد آل الفقيه، المقداد بن الأسود، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ص١٥.

التحق برسول الله ﷺ متأخراً بعد هجرته إلى المدينة المنوّرة، وكان مع مجموعة من قريش خرجوا في دورية قتالية فانحاز إلى سرية بقيادة حمزة بن عبد المطلب من أوائل الدوريات القتالية التي اعتادت الخروج من يثرب للاستطلاع أو للقتال على حد سواء، فاستضافه الرسول ممن استضافهم معه للقيام بمؤونة عيشهم بدعم من الأنصار.

واستمر مقاتلاً، واتيح له أن يروي الكثير عن وقائع تلك المرحلة مما وجد في كتب التاريخ. ويستنتج من تلك الوثائق أنّه كان المرافق الحارس لرسول الله ﷺ، وقد اعتمد عليه في مواقف كثيرة، ولعلّ من أهم ما وضعه في مكانته بين الصحابة موقفه في موقعة بدر (وهو ما اجتمعت عليه كتب السيرة) عندما شاور النبي أصحابه قبيل خوضه المعركة، فقد ورد عنه الجملة الشهيرة التي دللت على إخلاصه وتفانيه في الإسلام عندما قال جواباً للسؤال: «يا رسول الله، امض لأمر الله ونحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون».

ويستشف مما جرى أن الرسول أراد أن يسمع ملامح الدعم من الأنصار وليس من أصحابه الوافدين من مكة أو غيرها، وأنّه سمع من سعد بن معاذ (أحد زعماء الأنصار) ما سرّه فأقبل على خوض المعركة. أما المقداد فقد خلدت كلماته في التاريخ برواية الصحابي الشهير عبد الله بن مسعود الذي قال: فرأيت رسول الله يشرق وجهه بذلك وسرّه وأعجبه[1].

برز اسم هذا الصحابي في موقعة بدر، فقد أسر أحد زعماء قريش (النضر بن الحارث) ولما اتخذ الرسول قراره بإعدام هذا الأسير، حاول المقداد إنقاذه فرفض النبي، ولكنه عند توزيع الأنفال أعطى المقداد سهمين:

---

(١) ن.م ص٧١.

سهم له وسهم لفرسه (سبحه) وظل يتفاخر بذلك ويقول «ضرب لي رسول الله ﷺ يومئذ بسهم ولفرسي بسهم»، وقائل يقول: «ضرب رسول الله يومئذ للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم» كما ورد في شرح نهج البلاغة[1].

كان المقداد إذن من القلائل الذين امتلكوا خيلاً، ومعروف أن المسلمين في بدر لم يكن لديهم منها إلا القليل بعكس المشركين، لهذا حمل لقب الفارس، حتى إنه طلب من النبي فرساً اهديت إليه قبيل موقعة تبوك، فقدمها له عن طيب خاطر (كما ورد في المغازي للواقدي ص١٠٣٣). اعتبر رسول الله ﷺ إنجاز المقداد في بدر هاماً، وكذلك المسلمون (كما يبدو) فاحتل فيهم مكانة كبرى رغم عهده الجديد بالالتحاق مهاجراً، وظل تقديم أسير إنجازاً كبيراً فعلاً، فقد خدم الأسرى مجتمع المدينة بتعليم الناس القراءة والكتابة، ناهيك عن الفدية.

يعلل الواقدي سبب اعدام النضر بن الحارث (ج١، ص١٠٣) من قبل النبي في خطوة اتسمت بالغرابة تبعاً لتقاليد العرب: أن ذاك الرجل كان من أبرز الذين آذوا الرسول فكرياً وجسدياً. عندما تحالف مع اليهود وتبنى مواقفهم المناهضة للإسلام، وهو الذي نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ..﴾، ومع ذلك فقد اعتبر هذا التعليل (لإعدام النضر) متسماً بالغموض، ناهيك عما ورد في شرح النهج عن موقعة بدر بأن الرسول ندم على خطوته تلك، وهو ما يسيء إليه ﷺ[2]، ولا يليق بعصمته.

حضر المقداد موقعة أحد، وأبلى فيها بلاء حسناً كعادته، واختلف المؤرخون حول النفر الذين ثبتوا مع النبي في ساعة العسرة، وقد سمت علياً،

---

(١) ن.م ص٧٩.

(٢) راجع شرح النهج، م.س، ج١٤، ص١٧٢.

وطلحة والزبير وأبو دجانة وعبد الله بن مسعود، وذكر أحدها وهو بحار الأنوار للمجلسي: المقداد بن الأسود، وللإنصاف فإن وجود اسمه هنا (رغم الاختلاف) ينسجم مع شخصيته وسيرته وإخلاصه، ولا مجال إلا تأكيد ذلك.

عرف المقداد فارساً إذن ولم يعرف متبحراً في الدين أو من رواة الحديث النبوي، ولم يشارك بعد ذلك في غزوات الرسول ـ كما تشير كتب السير وهي لم تترك شارداً ولا وارداً ـ إلا اثنتين ـ، واحدة صغيرة سميت غزوة الغابة عام ٦ هـ عندما نهب المشركون إبلاً لرسول الله ﷺ في ذاك الموقع شمالي المدينة، وتمكن من ردّ بعضها، ثم غزوة خيبر في السنة ذاتها، وهي الغزوة التي كرست الإمام علي بن أبي طالب بطل الإسلام بلا منازع والعدوّ الثاني للحركة الصهيونية حتى اليوم (بعد رسول الله ﷺ)، وفي هذه الغزوة قال رسول الله ﷺ حديثه الشهير: (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ولا يرجع حتى يفتح الله على يده). وكان علي أرمد، فلما أصبحنا (برواية عمر بن الخطاب) قال: إني ما أحببت الإمارة إلا ذلك اليوم وتمنيت أن أعطى الراية، ويقول سعد بن أبي وقاص: جلست على ركبتي ثم قمت على رجلي رجاء أن يدعوني، فقال ﷺ: ادعوا لي علياً، فصاح الناس من كل جانب: إنه أرمد لا يبصر موضع قدميه فقال: أرسلوا إليه وادعوه، فوضع رأسه على فخذه ثم تفل في عينيه فقام وكأن عينيه جزعتان وبرى* من ساعته وقال: «خذ الراية ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك»[1] وهكذا كان.

وفيها أيضاً برز اسم المقداد بن الأسود كأحد أبطالها، ودليل ذلك توزيع الغنائم، فقد أعطاه رسول الله خمسة عشر وسقا(*) من انتاج خيبر الزراعي،

---

(١) المقداد بن الأسود، م.س ص١١٨ عن الكامل، والسير المختلفة.

(*) الوسق مساحة من الأرض.

والتي بيعت فيما بعد إلى معاوية بن أبي سفيان.

تأخر المقداد عن التحاقه بشيعة علي عليه السلام، فلم يعرف موقعه من حادثة السقيفة، ويبدو أنه كان ثقة لدى الخليفة الثاني عندما وضعه حارساً على الصحابة الستة في الشورى بمن فيهم الإمام.

صاهر هذا الصحابي الجليل آل عبد المطلب عندما زوجه الرسول ابنة عمه (ضباعة) بنت الزبير بن عبد المطلب، وقد اعتبر ذلك خرقاً للتقاليد العشائرية والأسرية المعروفة (كما اعتاد الرسول أن يفعل لتحطيم سطوتها). وقد فسر ذلك الإمام الصادق عليه السلام «لتتضع المناكح وليتأسوا برسول الله وليتعلموا أن اكرمهم عند الله أتقاهم» كما ورد في وسائل الشيعة ج١٤ الباب ٢٦ الحديث الأول)[1]، وولدت له ولدان وابنة. والعجيب في الأمر أن ابنه الكبير عبد الله قتل في موقعة الجمل، ولكن في الجانب المضاد للإمام علي عليه السلام الذي وصّفه قائلاً «بئس ابن الأخت أنت» كما في الإصابة (ج٣، ص٦٥)، وقد دللت هذه الحادثة على مدى ما وصل إليه التمزق الأسري في الصراع العشائري بين المسلمين في خضم الفتن المتفجرة بعد تولي الإمام علي الخلافة، أن ينفصل الابن عن منهج أبيه حتى الموت، ولكن لم يعرف أيضاً لماذا لم يشترك المقداد مع الإمام في تلك الموقعة.

في عهد عمر بن الخطاب ساهم في فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص، ولا تبرز الوثائق أية ملامح من معارضته للخليفتين الأولين تماماً كما يؤكد ذلك التزامه وتوحده بالإمام علي وسلوكه نهجه، أما في عهد الخليفة الثالث فينطبق عليه هنا ما انطبق على الباقين: أبو ذر وعمار، ولو أن معارضته لم تكن أبداً بذات الدرجة التي كان عليها الاثنان، أما سلمان فكان قد رحل عن هذه الدنيا قبل ذلك كما تدل الوثائق.

---

(١) ن.م ص١٣٢.

في أيام الشورى أعلن المقداد بن عمرو انحيازه للإمام علي عليه السلام في العام ٢٢هـ، ولكن هذا الإعلان لا يعني أنّه لم يكن كذلك من قبل، ومن المرجح أن عقيدته تلك لم تكن معروفة لدى الناس جميعاً بدليل ثقة عمر بن الخطاب به أنه ملتزم بأوامره بقتل الستة جميعاً إن عجزوا عن اختيار واحد منهم لخلافة المسلمين: وهكذا أقبل المقداد على الناس قائلاً (كما في شرح النهج): «أيها الناس اسمعوا ما أقول أنا المقداد بن عمرو إنكم إن بايعتم علياً سمعنا وأطعنا وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا» وعندما وجد من يعارضه من مخزوم رد عليه قائلاً «يا عدوّ الله وعدو رسوله وعدوّ كتابه ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون؟» ورد عليه المخزومي «يابن الحليف العسيف ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمر قريش» هذا الحوار يبين طبيعة القوى المتصارعة في مجتمع المدينة المنورة المتعدد الجهات. مهاجرون، أنصار قريش، كبار الصحابة وهم وحدهم المؤهلون لتولي الخلافة، ضعف أنصار الإمام علي، وأخيراً رفض قريش (كما تدل الوثاق) لتوليه إمارة المؤمنين وتفضيل عثمان عليه. لقد كان عثمان يتمتع بشعبية كبيرة بين الناس؛ غناه كبر سنه، سابقته في الإسلام، انعدام العداوات القبلية والثارات بينه وبين الآخرين بسبب عدم مشاركته في القتال والقتل كالإمام علي. ويبدو أن المقداد وأصحاب الإمام شعروا بذلك وأدلوا بآرائهم في محاولة للتأثير على اللجنة المجتمعة. وهكذا حسم الأمر من قبل الأغنياء: طلحة، عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وتولى عثمان الخلافة وأعلن الإمام جملته كعادته: فصبر جميل وبالله المستعان على ما تصفون. أما المقداد فقد أثر عنه التزامه المطلق بالإمام حين قال علناً «تالله ما رأيت مثل ما أوتي إلى أهل هذا البيت بعد نبيهم واعجباً لقريش، لقد تركت رجلاً ولا أعلم أن أحداً قضى بالعدل ولا أعلم أن أحداً أتقى منه، أما والله لو أخذ أعوانا..» وحسم الإمام الأمر بالتهنئة حين قال: «إني لأعلم ما في أنفسهم، إن الناس ينظرون إلى

قريش، وقريش تنظر في صلاح شأنها فتقول: إن ولي هذا الأمر بنو هاشم لم يخرج منهم أبداً، وما كان في غيرهم فهو متداول في بطون قريش » (كما ورد في شرح النهج) هذه الفقرة البالغة الأهمية، رغم رفض الإمام لذاك المنهج في الاختيار، أدت فيما بعد إلى توصيف المستشرقين وغيرهم من الباحثين المعاصرين لمجريات المرحلة بأنها حالة ديمقراطية مستندين إلى تلك الفقرة، ولكن الثابت أن اختيار عثمان فتح الطريق واسعاً أمام خلافات مريرة في الدولة الإسلامية، أما الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه وشيعته (المعارضة) فقد التزموا المعارضة الإيجابية، ولم يعرف عن أحدهم بما فيهم المقداد (الفارس القوي الملتزم) القيام بأي عمل عنيف ضد السلطة، إلا التبصير بالأخطاء والخطايا، ورفض الظلم والدعوة إلى الله والزهد في الدنيا وليس من شك في أن تلك الأخطاء التي يتحمل وزرها الخليفة الثالث (والملك عقيم) أدت إلى الثورة المسلحة الشهيرة. وأبرزت فيما أبرزته مشاركة المقداد في محاسبة الخليفة في مجلسه، كما ورد في صحيح مسلم[1] على سبيل المثال، وهو (الحديث) من القليل الذي روي عن هذا الصحابي الجليل. . يقول الحديث «بينما كان عثمان جالساً ذات يوم وحوله بعض وجوه قريش، إذ أقبل رجل أحسبه كان شاعراً يتكفف أعطيات الملوك، فجعل يمدح عثمان، وكان المقداد حاضراً فجثا على ركبتيه وجعل يحثو الحصباء في وجه الرجل، وتعجب عثمان من تصرف المقداد هذا والتفت إليه قائلاً ما ساءك؟

فقال: قال رسول الله ﷺ إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب».

كان المقداد إذن من جلساء الخليفة بينما لم يكن الإمام علي كذلك وتحديداً في السنوات الأخيرة من ولاية عثمان، وهذا يعني أن الخليفة الثالث

---

(١) مسلم بن الحجاج (ت٢٦١هـ) صحيح مسلم، دار الفكر بيروت ١٩٧٨ ج٤، الكتاب ٥٣ الحديث ٦٩ عن المقداد بن الأسود م.س.

كان يكن له الاحترام حتى بعد توقيعه على العريضة الاعتراضية التي وقعها تسعة من الصحابة احتجاجاً على تصرفاته (كما ورد في الإمامة والسياسة) هذه العريضة حملها عمار بن ياسر وعوقب عليها بالضرب (كما ذكرنا)، ويبدو أن التسعة ظنوا (عندما حملوها لعمار) أن الخليفة لن يجرؤ على تصرف كذاك، ولكنه فعل رحمه الله.

لم يعرف عن المقداد أنّه تلقى أية عقوبة من عثمان رغم تصريحاته المتكررة ضده قولاً وكتابة، وقد اشتهر عنه ترديده وإعلانه لمحبته لأهل البيت قولته لعبد الرحمن بن عوف (الصحابي الغني الشهير): «والله إني أحبهم لحب رسول الله ﷺ لهم وإني لأعجب من قريش وتطاولهم على الناس بفضل رسول الله ثم انتزعوا سلطانه من أهله».

هذه الكلمات تختزل جدلية الخلاف بكامله، وظل المقداد قادراً على الدفاع عن نفسه أمام الذين يمكن أن يؤذوه من أنصار الخليفة، فارساً قوياً شجاعاً مؤمناً، عاش بقناعاته وقول الحق، لم يجرؤ حتى الخليفة على إيذائه أو إهانته (رغم ما فعله في مجلسه) وحتى كونه من فرع بعيد عن قريش أو العشائر القوية حول المدينة، ولعلّه الوحيد الذي صرّح بقلة أنصار الإمام علي في المدينة زمن عثمان عندما قال لرجل سمع مقالته وتبعه يريد الانضمام إليه ضد الخليفة: «رحمك الله، إن هذا الأمر لا يغني فيه الرجلان أو الثلاثة».

توفي رضي الله عنه في خلافة عثمان ٣٣ هـ عن سبعين عاماً، ودفن بالبقيع، وصلى عليه عمار بن ياسر(رض) دون أن يبلغ الخليفة بموته (كإعلان عن المقاطعة أو العصيان المدني) قال فيه عثمان بعد أن أبلغه الزبير برحيله «يا زبير، تقول هذا؟ أتراني أحب أن يموت مثل هذا من أصحاب محمد ﷺ وهو عليّ ساخط»، والحقيقة أن عثمان رحمه الله أغضب الجميع، وكان موته حالة مفصلية في التاريخ الإسلامي في تحول الشورى إلى ملك عضوض بإجماع المؤرخين.

## سلمان الفارسي(رض)

كان لهذا الصحابي البارز أن يحاط بالغموض في سيرة حياته، فقد قيل أنه عاش ثلاثمائة وخمسون عاماً، وهو أمر خاضع للنقد والتمحيص، لم يعرف مكان ولادته إلا أنه جاء من فارس حاملاً تراثاً حضارياً غنياً لأمة عظيمة. وتميز عن جميع شيعة الإمام علي عليه السلام بالعلم الواسع بشهادة الجميع، وتذكر كتب التاريخ أن المشركين عندما شاهدوا الخندق حول المدينة في غزوة الخندق علموا أن وراء ذلك رجلاً ليس ككل الرجال وأنه قادم من بلاد بعيدة عرفت تقنيات حربية كهذه، ومعلوم أن ذلك أدى ضمن أسباب عديدة إلى هزيمة آخر هجمة على ديار الإسلام، ومؤشراً على صعود الدين الإسلامي نحو النصر الأخير.

ولد سلمان في ضواحي أصفهان الإيرانية، واعتنق المجوسية دين أبيه، وفي هذا بحد ذاته ما يثير إشكالية صحة الخبر وما دار حول ذلك في كتب التاريخ والسنة النبوية وأحاديث الإمام علي من أنّه «كان عبداً صالحاً حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» كما رواه الإمام الصادق[1] ناهيك عن اجماع باقي مدرسة أهل البيت على هذه المقولة. وقد ورد أيضاً في الوثائق تحليل لماهية المجوسية وهل أنها نابعة عن كتاب، ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله أجاز أن تؤخذ الجزية منهم كأهل الكتب (مسيحيين ويهود) مما يدل على اعتقاده بذلك. لكل هذا كثر الجدل حول المجوس في التاريخ العربي، وبسبب خفي من حب الرسول لسلمان وشهادته الشهيرة فيه والمتفق عليها اسلامياً «سلمان منا أهل البيت» واعتبر بعضهم أن المجوسية، أتباع زرادشت لهم كتاب هو صحف إبراهيم التي رفعت كما ورد في الملل والنحل للشهرستاني، ولكن أياً كانت المجوسية فهي تتحدث عن الثنائية في الوجود، النور والظلمة، أو

---

(١) محمد جواد آل الفقيه، سلمان الفارسي، دار التعارف، بيروت، ص٩.

الخير والشر، ولم يعد لسلمان(رض) علاقة بها بعد أن اعتنق الإسلام.

نسب إليه عن رحيله إلى ديار العرب قصصاً تدل في جوهرها على سعيه لاكتساب المعرفة، هذا السعي ميّزه كإنسان واسع العقل هدفه الحق والمغامرة بحياته في سبيله، فتعرف إلى المسيحية بصحبته لأسقف دير مطل على دمشق، وصحبه طويلاً، خدمه وتعلم منه وربما اعتنق المسيحية، فقد ورد في سيرته أنه ربما عرف المسيح نفسه (كما ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي)، ثم ذهب إلى الإسكندرية في مصر حيث رافق أحد الرهبان الذي أخبره بظهور الرسول محمد بن عبد الله[1] في أرض العرب.

وفي سبيل الله والمعرفة رحل إلى الصحراء مع كل ما تحمله تلك الرحلة من مخاطر، رافق في رحلته ركباً من العرب عاملوه أسوأ معاملة عندما وجدوه نباتياً ولا يشرب الخمر فاستعبدوه وباعوه بثمن بخس، وهكذا ارتضى هذا العارف بالله أن يكون عبداً لتلمس الحق.

تقول السيرة إن يهودياً كان من ضمن مالكيه فباعه إلى امرأة (سلميه) (منطقة قريبة من المدينة) استخدمته في الزراعة زمناً حتى سمع بظهور الرسول وقدومه إلى يثرب. وفي يوم التقى برسول الله ﷺ قادماً إلى قريته وعرف فيه علامات النبوّة: أهمها خاتم النبوّة، فقام سلمان باختبار العلائم، وكشف النبي له عن خاتم النبوة فقبل قدميه، عندها اشتراه النبي من المرأة بثمن شكل بحد ذاته معجزة، علماً أن كل ما يروى في هذا المجال يمكن إدراجه في خانة المعجزات التي تخضع للتمحيص، وبهذا أتم سلمان (رض) اكمال حلقة الغموض المحيطة به بتسمية رسول الله له: سلمان بعد أن حمل اسم (روزبة) طويلاً. وأصبحت قصة حياته السابقة على الإسلام تصنف في خانة الأساطير التي لا يعلم صدقها إلا الله.

---

(١) ن.م ص٢٩.

جوهر الأمر أن ما روي عن حياته قبل الإسلام منسوب له، وقد نسب قسم من ذلك إلى الإمام علي عليه السلام، وبما أن مدرسة أهل البيت تضع العقل نبراساً لتمحيص ما هو متوفر، فإن الغريب في أمر حياة هذا الصحابي الجليل أن الكثيرين قبلوا الرواية ودافعوا عنها، والكثيرين أيضاً حاولوا توفير الحجج العلمية لمسألة طول عمره، ولكنه بالمحصلة بقي فوق الشبهات والصراعات وجاء انضمامه إلى شيعة عليّ رمزاً لمصداقية أنصار الإمام والإمام والحق الذي يظللهم في مسارهم ونضالهم، فقد أحبه رسول الله جداً بما أعطاه مركزاً سامقاً بين صحابته وجعل باحثاً كابن أبي الحديد يقبل الرواية المتداولة عن حياته واسلامه دون تحفظ.

لم يلتحق سلمان بالنبي إذن حتى ما قبل موقعة الخندق ٥ هـ، وبما أنه هو الذي أشار عليه بحفر الخندق، فإن عملية الحفر بحد ذاتها أعطت تبعاً للروايات والأحاديث النبوية، جملة من النبوءات بالغة الأهمية: منها: نبوء الرسول بفتح فارس جميعها وأرض الروم واليمن، وذلك يعني العالم القديم بكامله، وقد استبشر المسلمون بذلك كما تثبت الوثائق التاريخية، وظلت تلك النبوءات متداولة بين المسلمين إلى درجة التواتر.

أما المعركة نفسها فشهدت صعود نجم الإمام علي عليه السلام الشاب عندما قتل عمرو بن ود العامري في مبارزة شهيرة، وأبرزت قول رسول الله (الحرب خدعة) بعد اتفاقه مع نعيم بن عامر بن مسعود، الذي تمكن من القيام بمهمة تاريخية حسمت مصير الحرب كلها.

شارك سلمان في حصار الطائف، وقبل ذلك في هزيمة هوازن في معركة حنين، ويعتبر هو أيضاً من اقترح على رسول الله صلى الله عليه وآله استخدام (المنجنيق) كأداة حربية لم تعرفها العرب من قبل في الهجوم على الطائف (كما يقول الواقدي)، المدينة التي استسلمت صلحاً كما ورد في الأثر.

## علي وسلمان

ليس من شك في حب رسول الله ﷺ وعلي عليه السلام لسلمان الفارسي ودعمهما له، كان في زمن النبي ذا مكانة ليس لأحد مثلها من الصحابة، ولأنه ممن لا سند قبلياً لهم فقد دافع عنه النبي في وجه كبار صحابته القرشيين بما في ذلك (أبو سفيان وأبو بكر الصديق)، ولعل حديثاً كهذا في سلمٍ يعزز ذلك[1]:

عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم، فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال ﷺ: لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا اخوتاه أغضبتكم قالوا: لا يغفر الله لك يا أخي».

وقالت عائشة عنه نقلاً عن (الاستيعاب، حاشية على الإصابة في معرفة الصحابة):

«كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به الليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله».

والواقع أنّه لم يتخذ موقفاً حاداً من حادثة السقيفة بعيد رحيل الرسول، فقد نقل عنه قوله بعد اختيار أبي بكر الصديق أنّه قال كلمتين بالفارسية: كرديد ونكرديد: ويفسرها كل طرف حسب هواه ومعناها: فعلتم وما فعلتم، ويفسرها ابن أبي الحديد في شرح النهج كانسان محايد «صنعتم شيئاً وما صنعتم أي استخلفتم خليفة ونعم ما فعلتم إلا أنكم عدلتم عن أهل البيت، فلو كان الخليفة منهم كان أولى»، وتفسره

---

(١) صحيح مسلم، م.س ج٤، رقم الحديث ٢٥٠٤.

الشيعة: أراد: أسلمتم وما أسلمتم.. ويفسره أصحابنا فيقولون: «معناه أخطأتم وأصبتم»[1].

فهل أراد الصحابي الجليل أن يكون وسطياً حتى لا يغضب أحداً؟ ولكنه كان منحازاً عملياً لموقف الإمام ذاته منسجماً معه، وقد قرر الإمام المعارضة الإيجابية فلم يكن لسلمان إلاّ أن يكون كذلك، ولهذا روي عنه من الأحاديث العرفانية في الإمام والرسول الكثير، فقد ظل محباً للنبي وأهل بيته ولكنه بالقطع لم يتدخل في الصراع الحاد الذي نشأ بعد السقيفة، وقد يكون ذلك بسبب كبر سنه، رغم رحيله إلى العراق مع الجيش ومشاركته في تحطيم الإمبراطورية الفارسية.

غادر سلمان موقع الصراع إذن إلى الشمال، وبدت بعد ذلك أخباره متفرقة في كتب التاريخ والسنة النبوية، ويصوره ابن الأثير في الكامل (وهو يأخذ الكثير عن الطبري) مقاتلاً من الطراز الأول، خاصة في عملية احتلال المدائن عاصمة الفرس الأولى، وهو بهذا يؤكد التزامه بموقف الإمام علي في المشاركة بالفتح وتغليب المصلحة العامة على قضية الخلافة، ويذكر هنا أن الخليفة الثاني ولاه إمارة المدائن، التي بقي فيها حتى وفاته عام ٣٤هـ، ولا يعرف بدقة هل بقي أميراً عليها حتى وافاه الأجل أم أنه عزل من قبل الخليفة الثالث فسكن هناك كمواطن فقط؟ لقد ظلت تلك أسئلة حياته المجهولة التي لم يجب عليها مؤرخ، تماماً كغموض حياته وعلمه وزهده ورحلاته في الأرض.

يذكر في هذا المجال أن سلمان(رض) زار دمشق وبيروت، وروي عنه في أنساب الأشراف حديث حول الرباط في سبيل الله، ومعروف أن المدن الساحلية لبلاد الشام اعتبرت مراكز للجهاد إلى يوم القيامة تبعاً للسنة النبوية

---

(١) سلمان الفارسي م.س ص١١١ عن شرح النهج ج٦، ص٤٣.

يقول سلمان «يا أهل بيروت ألا أحدثكم حديثاً يذهب عنكم غرض الرباط (العناء) سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أجير من فتنة القبر، وأجري له ما كان يعمل إلى يوم القيامة»[1].

ابتعاد سلمان عن المدينة المنورة أعفاه من مشقة خوض معارك أصحاب الإمام الذين ظلوا فيها مع الخليفة الثالث، والمآسي التي أدت إليها (كما ذكرنا)، لهذا استقبل يوم زيارته لدمشق وبيروت استقبالاً حافلاً، ويبدو أن ذلك تم بدعم من والي الشام معاوية لأسباب معروفة وإن لم تشر إليها الوثائق، والتقى في بيروت بصديق عمره (أبو الدرداء) وهو من آخى رسول الله بينه وسلمان.

وتقول كتب التاريخ إنه ممن اختار مدينة الكوفة عاصمة للعراق بطلب من الخليفة الثاني لأنه سمع الإمام علي يمدحها (والتي أصبحت أكبر مدفن في العالم لمحبي أهل بيت النبي بجوار مرقد الإمام) كما ورد في معجم البلدان، والكامل في التاريخ[2].

لقد مدحه الإمام علي والأئمة الكرام كثيراً، وسئل أمير المؤمنين عن سلمان فقال: «أمرؤ منا وإلينا أهل البيت من لكم بمثل لقمان الحكيم، علم العلم الأول والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأول والكتاب الآخر وكان بحراً لا ينزف» هذا المدح الوارد في كتاب (الأعلام للزركلي) يدهش الباحث أن ليس هناك أي أثر مكتوب أو منقول عن هذا الصحابي لإنتاجه العلمي حتى في مسائل تأويل القرآن والحديث، وبما أنه من صحابة الإمام الخلص وشيعته فهل يمكن القول أن علمه اختلط بعلم الذين أحبهم من أهل البيت؟ سؤال لن

---

(١) ن.م ص١٢٦.

(٢) ن. م، ص١٢٩.

تجد من يجيب عليه أبداً.

أخرج الشيخ الطوسي في أماليه عن منصور بن برزج قال: قلت لأبي عبد الله الصادق، ما أكثر ما أسمع منك ذكر سلمان الفارسي؟ قال عليه السلام: لا تقل سلمان الفارسي، ولكن قل سلمان المحمدي، أتدري ما أكثر ذكري له؟ قلت: لا، قال لثلاث خصال، إيثاره هوى أمير المؤمنين عليه السلام على نفسه، والثانية حبه للفقراء واختياره إياهم على أهل الثروة والعدد، والثالثة حبه للعلم والعلماء..».

قيل إنّه تزوج (ولم يثبت ذلك) وأنه انجب ولداً ذكراً اسمه عبد الله، ولكنه في توحده بالإمام كان صورة منه في الزهد وشظف العيش حتى وهو في سدة الإمارة، يقول عنه الحسن البصري: كان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده وكانت له عباءة يفرش بعضها ويلبس بعضها، ولم يكن لسلمان بيت، إنما كان يستظل بالجدر والحجر..».

فهل تعطي هذه الأقوال التي مصدرها شرح نهج البلاغة صورة دقيقة عن هذا الرجل القادم من رحم الأسطورة والذي عاش في الغموض ومات في ضبابه الفسيح؟!

لاحقته الأساطير حتى في قصة وفاته ودفنه (كما ورد في بحار الأنوار ج٢٢، ص٣٧٩) فقيل إن الذي قام بتجهيزه الإمام علي بن أبي طالب (أمير المؤمنين) مع أنه توفي قبل إمارته، واختلف حتى في سنة وفاته، وكان الإمام في المدينة حكماً، وجاءت الرواية على لسان الأصبغ بن نباتة الذي روى أن علياً قال له: يا أصبغ بهذا عهد إليّ رسول الله.. وتعددت الروايات في المناقب لابن شهر أشوب وغيرها، وسعى بعض باحثي مدرسة أهل البيت للدفاع عن تلك الروايات مجملين قضية الدفن أكثر مما يلزم بإثارة للتشوش

والنقد ولم يثبت لأي بحث عقلي وتاريخي، وظل الثابت الوحيد أنه دفن بالمدائن وأقيم عليه مسجد شهير لا زال قائماً حتى اليوم في وسط العراق وثارت الأسئلة حول عمره يوم وفاته حتى إن الذهبي يؤكد أن عمره ناف على المئتين وخمسين عاماً، ويقارنونه بنوح عليه السلام وغيره، ولكن ما يهم الباحث في حياته أنّه عاش مؤمناً وعالماً وزاهداً، ورحل فقيراً كما أراد، وحظي باحترام وتقدير المسلمين بكافة فئاتهم، وقد طعن في العمر، وذلك ثابت على أية حال..

وظلت شهادة رسول الله فيه الدليل الأبرز على مكانته: سلمان منا أهل البيت.

# خاتمة

# حول شرح النهج لابن أبي الحديد

هناك إجماع على وثاقة هذا الكتاب لدى كل الأطراف رغم تأخر صدوره زمنياً، ولد مؤلفه عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني بالمدائن عام ٥٨٦هـ (١٢١٨م) تقريباً، وتوفي قبيل احتلال بغداد من قبل المغول ٦٥٥هـ.

لقد ظل كتابه أبرز موسوعة عن حياة الإمام علي عليه السلام تتسم بالموضوعية والعقلانية (سمة المعتزلة الذين ينتمي إليهم المؤلف)، ولهذا نهل منها كل الذين كتبوا عن الإمام بعد ذلك ولم يناقشوا في مصداقية المؤلف ومضمون الكتاب، واعتبرته مدرسة أهل البيت ثقة وكذلك معظم التيارات البحثية المعاصرة، خاصة المصيرية منها (علي سامي النشار، محمد صبحي) وغيرهما، وشرحه أيضاً الإمام محمد عبده شيخ الجامع الأزهر بطريقة متميزة. ويكتشف الذين يكتبون عن الإمام في كل عصر أن ابن أبي الحديد سبقهم إلى الكثير من الأفكار التي تراودهم حول موضوع كتاب نهج البلاغة وإثبات نسبته إلى الإمام علي، بل إنه أحياناً يبدو المرجع الوحيد الممكن الاعتماد عليه في الكتابة في خضم المئات ممن عالجت شخصية سابقة ومثيرة للاختلاف بين المسلمين كعليّ من زاوية رأيه في المرحلة التي عاشها،

وخاصة الخليفتين الأول والثاني (الشيخان)، قد أصر الإمام على أحقيته في الخلافة، وتأسست على ذلك مدرسة أهل البيت (الشيعة) وانقسم المسلمون إلى ضفتين أو ثلاثة ضفاف (إذا اعتبرنا الشريحة الوسطية ضفة أو طريقة في البحث) وكان ابن أبي الحديد من أولئك رغم أن أي تدقيق في الكتاب يرى فيه ذروة في التشيع والالتزام بأحقية الإمام.

نصان في الكتاب يجدر بنا تمحيصهما في سبيل إطلاق حكم قيمة على هذا المرجع الهام يصلحان كخاتمة لكتاب مختصر عن حياة أمير المؤمنين كالذي قمنا بتقديمه. الأول روايته عن اللحظات الأخيرة في حياة الزهراء عليها السلام والثاني مناقشته هو للمرحلة من زاوية أحقية الإمام علي بالخلافة تبعاً للوصية الشهيرة في حديث الغدير، وصولاً إلى الخليفة الثالث وبروز المعارضة الملتفة حول علي في سبيل إسقاطه وتنصيبه أمير المؤمنين عليه السلام أخيراً.

في الجزء السادس عشر ص٣٣ وبعد إيراد السند: لما اشتد بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الوجع وثقلت في علتها اجتمع عندها نساء المهاجرين والأنصار فقلن لها كيف أصبحت يا ابنة رسول الله؟

قالت: عائفةً لدنياكم، قالية لرجالكم، لفظتهم بعد أن عجمتهم وشنأتهم بعد أن سبرتهم فقبحاً لفلول الحد وخور القناة وخطل الرأي، وبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جرم، قد قلدتهم ربقتها، وشنت عليهم غارتها، فجرعاً وعقراً وسحقاً للقوم الظالمين ويحهم أين زحزحوها عن رواس الرسالة، وقواعد النبوّة، ومهبط الروح الأمين، والطبين بأمر الدنيا والدين ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموه من أبي حسن، نقموا والله نكير سيفه، وشدة وطأته ونكال وقعته وتنمره في ذات الله، وتالله لو تكافوا عن زمام نبذه إليه رسول الله صلى الله عليه وآله لاعتلقه، ولسار إليهم سيراً سجحاً لا تكلم خشاشته ولا يتعتع راكبه، ولأوردهم منهلاً

نميراً فضفاضاً يطفح ضفتاه ولأصدرهم بطاناً قد تحير بهم الرأي، غير متحل بطائل إلا بغمر الناهل وردعه سَورة الساغب، ولفتحت إليهم بركات السماء والأرض، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون» إلى آخر الحديث.

أما من ناحية حقها في فدك فيروي في الجزء ١٦ ص٢٤٩ خطبتها الشهيرة في المسجد «افتتحت كلامها بالحمد لله عز وجل والثناء عليه والصلاة على رسول الله ثم قالت ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن تعزوه تجدوه أبي دون آبائكم وأخا ابن عمي دون رجالكم، فبلغ الرسالة صادعاً بالنذارة، قائلاً عن سنن المشركين، ضارباً ثبجهم يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة (. .) وكنتم على شفا حفرة من النار، نهزة الطامع ومذقة الشارب وقبسة العجلان وموطأ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتاتون القد، أذلة خاسئين يتخطفكم الناس من حولكم (. .) حتى انقذكم رسول الله وآله بعد اللتيا والتي. .)الخ. .

ثم قالت« يابن أبي قحافة أترث أباك ولا أرث أبي، لقد جئت شيئاً فريا، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمد، والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون. .»

فقال أبو بكر: يا خير النساء وابنة خير الآباء والله ما عدوت رأي رسول الله ﷺ ولا علت إلا باذنه وإن الرائد لا يكذب أهله واني اشهد بالله وكفى بالله شهيداً أني سمعت رسول الله يقول: «إنا معشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة ولا داراً ولا عقاراً وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة» فلما وصل الأمر (الخلافة) إلى علي بن أبي طالب عليه السلام كُلّم في رد فدك فقال: إني لأستحي من الله أن أرد شيئاً منع منه أبو بكر وامضاه عمر».

ثم يناقش ابن أبي الحديد نسبة هذا الكلام إلى فاطمة ويؤكد أن ذلك

يعود إليها بكل تأكيد، وأن نفيه عنها مجرد عداوة النافين لأهل البيت، وأن المرتضى (جامع نهج البلاغة) يؤكد أن فاطمة كفت غاضبة على الجميع.

وجاء في الجزء ١٢ ص١٨٢ ما نصه حول مسألة الخلافة: ويسجل المؤلف هنا نقاشاً مع النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد حول مختلف النصوص في قضايا الخلاف التي نشبت بعيد وفاة رسول الله ﷺ مما يتعلق بمسألة الخلافة ويقول:

«ولكني أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله ﷺ على شخص بعينه، كما استبعدنا من الصحابة على رد نصه عن الكعبة وشهر رمضان وغيرهما من معالم الدين فقال لي رحمه الله: أبيت إلا ميلاً إلى المعتزلة، ثم قال: إن القوم لم يكونوا يذهبون في الخلافة إلى أنها من معالم الدين وأنها جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم، ولكنهم كانوا يجرونها مجرى الأمور الدنيوية، ويذهبون لهذا، مثل تأمير الأمراء، وتدبير الحروب، وسياسة الرعية، وما كانوا يبالون في أمثال هذا من مخالفة نصوصه ﷺ إذا رأوا المصلحة غيرها.. ألا تراه كيف نص على إخراج أبي بكر وعمر في جيش اسامة ولم يخرجا لما رأيا أن في مقامهما مصلحة للدولة والملة وحفظاً للبيضة ودفعاً للفتنة، وقد كان رسول الله يخالف وهو حي من أمثال ذلك فلا ينكره» ويعدد الكاتب أمثال تلك المخالفات بدءاً من تأبير النخل إلى رفضهم إعطاء الرسول ورقة وقلماً ليكتب عهداً في لحظة وفاته ﷺ إلى مخالفتهم له في موقعة بدر إلى صلح الحديبية وغيرها..

ويقول «وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك..»

ويعدد منها: سهم ذوي القربى والمؤلفة قلوبهم، وعملوا بآرائهم في حد الخمر بينما لم يقم به النبي وعملوا بمقتضى ما يغلب ظنونهم في المصلحة

ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء. ثم يقول «أما مخالفتهم له فيما هو محض الشرع والدين فإنه يقل جداً» ويعدد أشياء «كالوضوء والصلاة» ثم يشرح لماذا رفضوا الإمام علي عليه السلام بأنهم قدروا أن العرب لا تطيع علياً من الحسد أو الوتر والثأر أو لحداثة سنه الخ، ومنها لرغبتهم في تداول السلطة، ومنها بغضهم له (من قبل المنافقين وهم كثر في مجتمع المدينة) فتأولوا النص لأن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب (خاصة في الخلافة)، ذلك أن الانصار أنفسهم رغبوا فيها رغم معرفتهم بحديث الغدير. ويتساءل عن هؤلاء الصحابة سؤالاً مثيراً للجدل هو «فأيما أصلح للدين؟ الوقوف مع النص المفضي إلى ارتداد الخلق ورجوعهم إلى الأصنام والجاهلية، أم العمل بمقتضى الأصلح واستبقاء الإسلام واستدامة العمل بالدين وإن كان فيه مخالفة النص»؟؟!!

ويعلل النقيب أبو جعفر نجاح السقيفة بما يلي «وسكت الناس عن الإنكار، فانهم كانوا متفرقين، فمنهم من هو مبغض وشانىء لعلي عليه السلام فالذي تم من صرف الأمر عنه هو قرّة عينه وبرد فؤاده، ومنهم ذو الدين وصحة اليقين إلا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه ظن أنهم إنما فعلوا ذلك لنص سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله بفسخ ما كان قد سمعه من النص على أمير المؤمنين عليه السلام لاسيما ما رواه أبو بكر من قول النبي (الأئمة من قريش) فإن كثيراً من الناس توهموا أنه ناسخ للنص الخاص وأن معنى الخبر أنكم مباحون في نصب إمام من قريش من أي بطون قريش كان فإنه يكون إماماً».

ويتابع قائلاً «وأكد أيضاً في نفوسهم رفض النص الخاص ما سمعوه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» وقوله «سألت الله ألا يجمع أُمتي على ضلال فأعطانيها فأحسنوا الظن بعاقدي البيعة» فقالوا هؤلاء أعرف بأغراض رسول الله فامسكوا وكفوا عن الإنكار. . ومنهم فرقة

أخرى وهم الغالية أعراب جفاه وطغام أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح فهؤلاء مقلدون لا يسألون ولا ينكرون( . . ) وقويت كلمة العاقدين لأبي بكر وقواها زيادة اشتغال علي وبني هاشم برسول الله ﷺ».

ثم يتابع قائلاً في كلمات مثيرة للجدل حول تصرفات الإمام علي بعد السقيفة «وأراد علي عليه السلام أن ينقض البيعة فلم يتم له ذلك وكانت العرب لا ترى الغدر . . ».

ويتابع النقيب «ومما جرأ عمر على بيعة أبي بكر والعدول عن علي( . . ) أنه أنكر مراراً على الرسول ﷺ أموراً اعتمدها فلم ينكر عليه ﷺ إنكاره بل رجع في كثير منها إلى رأيه . . » ويتابع ملخصاً أن القوم في مجتمع المدينة عادوا في النتيجة إلى رأي عمر وتفسيره للنصوص ما دام فعل ذلك في حياة النبي وأن عمر نفسه أعدّ تبريرات مقنعة جداً لأفعاله في مسألة الخلافة طرحها على المسلمين بما في ذلك اختلاف حديث مهم (كما يقول النقيب) هو «إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء إنما وليي الله وصالح المؤمنين» فهل تم ذلك فعلاً؟؟

وأخيراً يقول النقيب «ثم أكّد حسن ظن الناس بهم أنهم أطلقوا أنفسهم عن الأموال وزهدوا في متاع الدنيا وزخرفها، وسلكوا مسلك الرفضّ لزينتها والرغبة عنها والقناعة بالطفيف النزر منها ولبسوا الخشن وأكلوا الخشن، ولما ألقت إليهم الدنيا أفلاذ كبدها، فرقوا الأموال على الناس وقسموها بينهم . . ».

ثم يقارن بين الشيخين وعثمان مما أدى إلى الثورة عليه مما هو معروف ومشهور في كتب التاريخ. ويلخص ابن أبي الحديد رأيه في النقيب أبي جعفر «بأنه لم يكن إمامي المذهب ولا كان يزامن السلف ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة ولكنه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني وبينه».

وقبل خوضنا في تعليقه على وجهات النظر المطروحة في مجتمع المدينة المنوّرة بعيد رحيل رسول الله يجدر بنا أن نقدم من شرح النهج أخيراً نصاً يتعلق بأحاديث لرسول الله نسبت للإمام علي نفسه حول المسألة ذاتها.

في الجزء الرابع من النهج ص١٠٦ يقول «روى شيخنا أبو القاسم البلخي رحمه الله تعالى عن سلمة بن كهيل عن المسيب بن نجبة قال: بينا علي عليه السلام يخطب إذ قام أعرابي فصاح: وامظلمتاه، فاستدناه علي عليه السلام، فلما دنا قال له: إنما لك مظلمة واحدة وأنا قد ظلمت عدد المدر والوبر، قال وفي رواية عباد بن يعقوب أنه دعاه فقال له: وأنا والله مظلوم أيضاً، هات فلندع على من ظلمنا.

وروى سدير الصيرفي عن أبي جعفر بن محمد بن علي [الباقر] قال: اشتكى علي عليه السلام شكاة فعاده أبو بكر وعمر وخرجا من عنده فأتيا النبي صلى الله عليه وآله فسألهما: من أين جئتما؟ قالا: عدنا علياً، قال كيف رأيتماه؟ قالا: رأيناه يخاف عليه مما به، فقال: كلا إنه لا يموت حتى يوسع بغياً وغدراً وليكونن في هذه الأمة عبرة يعتبر به الناس بعده».

وروى عثمان بن سعيد عن سعد الله بن الغنوي أن علياً عليه السلام خطب بالرحبة فقال أيها الناس إنكم قد أبيتم إلا أن أقولها، ورب السماء والأرض إن من عهد النبي الأمي إلي «أن الأمة ستغدرُ بك بعدي».

وروى هيثم بن بشر عن اسماعيل بن سالم مثله، وقد روى أكثر أهل الحديث هذا الخبر بهذا اللفظ أو بقريب منه.

وروى أبو جعفر الإسكافي أيضاً أن النبي صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام فوجد علياً نائماً فذهبت تنبهه فقال: «دعيه فرب سهر له بعدي طويل ورب جفوة لأهل بيتي من أجله شديدة فبكت فقال: لا تبكي فإنكما معي وفي موقف الكرامة عندي».

وروى الناس كافة أن رسول الله ﷺ قال: «هذا وليي وأنا وليه عاديت من عاداه وسالمت من سالمه» أو نحو هذا اللفظ.

وروى أيضاً محمد بن عبيد الله بن أبي رافع عن زيد بن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ «عدوك عدوي وعدوي عدو الله».

(..) وضع رسول الله ﷺ رأسه على رأس علي فبكى فقال علي ما يبكيك يا رسول الله قال: ضغائن قوم لا يبدونها لك حتى يفقدوني فقال: يا رسول الله أفلا أضع سيفي على عاتقي فأبيدخضيراءهم؟ قال: بل تصبر، قال: فإن صبرت؟ قال: تلاقي جهداً، قال: أفي سلامة ديني؟ قال: نعم، قال علي: فإذاً لا أبالي».

وروى جابر الجعفي عن محمد بن علي عليه السلام [الباقر] قال: قال علي عليه السلام: ما رأيت منذ بعث الله محمداً ﷺ رخاءً، لقد أخافتني قريش صغيراً وأنصبتني [العداء] كبيراً حتى قبض رسول الله فكانت الطامة الكبرى والله المستعان على ما تصفون».

عندما كُتب شرح نهج البلاغة لهذا الباحث المعتزلي في نهاية العصر العباسي تقريباً (ويقال إن كاتبه توفي قبل سقوط بغداد بأيام) كانت قضايا الخلاف بين جناحي المسلمين تعود إلى الساحة الفكرية من جديد (كما يبدو)، ولقد قدر لنسخة من هذا الكتاب أن تنجو من تدمير مكتبة بغداد وغيرها ـ كما نجا القليل من تراث الحضارة العربية وجد مبعثراً هنا وهناك ـ يدهش الباحث من دراسة موضوعية تطرح كل وجهات النظر وتترك للقارىء الحكم النهائي، ولكن أي باحث في حياة رجل بقامة عليّ مهما كان موقفه ينحاز إلى موقف الإمام، وهو ما يلمسه قارىء الكتاب في ثناياه، علماً أن المعتزلة لم يكونوا على وفاق مع مدرسة أهل البيت، رغم أنهم أخذوا منها في الأصول معظم أدبياتها، فقد رفضوا التشيع، وفي ذروة صعودهم انحازوا

إلى موقف الخليفة المأمون ضد الجميع كدعاة للعقلائية والعدل في توصيف الله سبحانه، وهم بالتأكيد قدموا إنجازات كبيرة للعلم والاسلام معاً.

لكل ذلك لقي الكتاب قبولاً من الجميع كوثيقة قديمة (نوعاً ما) لمرحلة من أكثر مراحل التاريخ الإسلامي تعقيداً.

المهم في هذا الموضوع أن المؤلف يؤكد نسبة النهج إلى الإمام كجزء من تراثه الفكري من جهة، وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن علياً عبّر عن ظلامته، كما عبّرت فاطمة عليها السلام أيضاً، وأن هناك نبوءات للرسول فيهما معاً تحققت، وأن الأمة اختارت الولاية على نفسها بعيد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله ولم تولّ علياً، فهل أراد ابن أبي الحديد أن يقول إن الصراع في الصدر الأول كان بين حقين؟ وهل يجوز أن يكون هناك حقان يتصارعان دون أن يحمل أحدهما صفة الباطل أو اللاحق؟

مدرسة الإمام علي بن أبي طالب من خلال دراسة حياته وتراثه بالغة التنوع والغنى والجاذبية ولعلها أشد جاذبية في هذه الأيام والمستقبل، والواقع أن نصاً لدى ابن أبي الحديد نقله عن النقيب أبي جعفر حول مطالبة الإمام علي بالخلافة أو نقض البيعة من قبل الأنصار بعيد السقيفة يستحق التوقف عنده، فكما رأينا أردت أن أثبت أن الإمام لم يفعل ذلك من خلال السلوك وإلا لحضر السقيفة وأبدى وجهة نظره، ولكنه أكد حقه من خلال موقف سلبي عبر مقاطعة البيعة لمدة محددة وحسب، ولم يعد للمطالبة بالخلافة بالسلوك والفعل أبداً، ومع ذلك فلم يترك وشأنه وأجبر عليها بعيد وفاة عثمان ثم حورب حتى في نواياه وحورب أصحابه بالنوايا والاتباع المنهجي، في أشرس حرب عقائدية عرفها التاريخ؛ أن يحارب الإنسان لمجرد النية أو استشفاف النية، وإلا فمن هو الشيعي إلا مُحب لأهل البيت، وهل يحارب الإنسان على مجرد الحب؟؟

إن دارس المرحلة وما بعدها بقليل يكتشف أيضاً أن الإمام الحسين لم يخرج لطلب السلطة بل العدالة في أمة جده، ومرفوض أن يقوم رجل من أتباع الإمام أو أبنائه بالمناداة بالعدالة.

وقد دلت الوثائق أن الحسين لم يكن ليترك وحيداً لشأنه حتى لو غادر إلى اليمن مما أجبره على الدخول في معركة خاسرة كان يعلم نتائجها مسبقاً (راجع سيرة الأئمة ج٣ للسيد محسن الأمين).

وهكذا يجدر التأكيد أن علياً ظلم كما أنبأه رسول الله، وأنه عمل من أجل المستقبل وحسب وأبدع في عمله هذا، وبذلك حاز حب أمة المسلمين اليوم بكل فئاتها، وحظي منهجه باتباع ثلثها على الأقل، وأصبح منهج مدرسة أهل البيت قلعة علمية (من اجتهاد متصل) ليس لها مثيل، في حين تجمدت المدارس الأخرى، ليؤكد الإمام والوقائع أنّه وقد نصر النبي والإسلام منذ طفولته وحتى رحيله عن هذه الدنيا، قدّر الله له أن يترك نهجاً فكرياً ومن حياته كقدوة للجميع أمكن له من خلاله أن يوصف رجل المستقبل بلا جدال وأن يثابر من خلال ذلك على نصرة هذا الدين حتى الأزل.

# مراجع الكتاب


١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ صحيح الكافي، محمد بن يعقوب الكليني ج١، دار الكتب الإسلامية، طهران.

٣ ـ صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج توفي ٢٦١هـ، دار الفكر، بيروت ١٩٧٨.

٤ ـ صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل بن برزويه توفي ٢٥٦هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٥ ـ السيد محسن الأمين: سير الأئمة الجزآن ١ ـ ٢ دار التعارف للمطبوعات بيروت.

حرب الجمل وصفين، دار الفكر للجميع، دمشق ١٩٦٩.

٦ ـ السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن الأجزاء ٢ ـ ١٣ إسماعيليان قم.

٧ ـ عز الدين بن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠.

٨ ـ سعيد السامرائي، حجج النهج، إعداد مؤسسة الفجر، بيروت ١٩٨٧.

٩ ـ نهج البلاغة، جمع الشريف الرضي، مؤسسة النهج تحقيق مؤسسة نهج البلاغة، الجمهورية الاسلامية الايرانية.

١٠ ـ عبد الحسين الأميني، الغدير، ج١، ج٨، ج٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٧.

١١ ـ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، دار التراث بيروت.

١٢ ـ أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج٣، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٠.

فجر الإسلام، القاهرة ١٩٨١.

١٣ ـ عباس محمود العقاد، معاوية في الميزان، دار الهلال القاهرة ١٩٥٠.

١٤ ـ توفيق الحكيم، حياة محمد، دار الهلال، القاهرة ١٩٥٢.

١٥ ـ أبو بكر بن العربي، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة، تحقيق محي الدين الخطيب، القاهرة ١٩٦٠

١٦ ـ مرتضى العسكري: أحاديث عائشة أم المؤمنين وأدوار من حياتها.

مائة وخمسون صحابي مختلق/ دار الزهراء بيروت ١٩٩٢.

١٧ ـ علي الشهرستاني، منع تدوين الحديث، ط مؤسسة الإمام علي، قم ١٤١٨هـ.

١٨ ـ محمد رضا الجلالي، تدوين السنة الشريفة، مكتب الإعلام الإسلامي قم، ١٩٥٢.

١٩ ـ محمد بن اسحاق (ابن النديم) الفهرست، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٦.

٢٠ ـ زهير غزاوي، الإمام جعفر بن محمد الصادق بين الحقيقة والنفي، دمشق ١٩٩٨.

الإمام موسى بن جعفر الكاظم ومدرسة أهل البيت في مرحلة الاكتمال ٢٠٠٠.

نمو القيم والاتجاهات عند طفل ما قبل المدرسة، دار المبتدأ، بيروت ١٩٩٣.

النهج التاريخي لدى السيد العسكري، كلية أصول الدين، طهران ١٩٩٨.

٢١ ـ ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٦٩.

٢٢ ـ عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار العودة، بيروت.

٢٣ ـ أحمد بن عبد الله الأصفهاني (أبو نعيم)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الفكر بيروت.

٢٤ ـ علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج٢، ط٧، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧.

٢٥ ـ د. أحمد الوائلي، هوية التشيع، دار التعارف، بيروت ١٩٨٨.

٢٦ ـ أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٦٨.

(علي بن الحسين) مقاتل الطالبيين، دار المعرفة، بيروت.

٢٧ ـ ابن الأثير عبد الكريم الشيباني، الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٥٥.

٢٨ ـ القاضي عبد الجبار الهمداني، طبقات المعتزلة، تحقيق علي سامي النشار، دار المطبوعات الجامعية، القاهرة ١٩٧٧.

٢٩ ـ محمد يحيى الهاشمي، الإمام الصادق ملهم الكيمياء، دار الأصول، بيروت ١٩٨٤.

٣٠ ـ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (تفسير القرآن)، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع.

٣١ ـ الإمام الصادق في نظر علماء الغرب، اعداد وترجمة نور الدين آل علي، دار الفاضل، دمشق ١٩٩٥.

٣٢ ـ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد سعيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.

٣٣ ـ حسين مروّة، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ج١، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٩.

٣٤ ـ فخر الدين الرازي، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين، مراجعة طه سعد، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٢.

٣٥ ـ أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، مطبعة الآداب النجف ١٩٦١.

٣٦ ـ كامل مصطفى الشيبي، الصلة بين التصوف والتشيع، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩.

٣٧ ـ اخوان الصفا، الرسالة الجامعة، تحقيق (جب)، ترجمة عادل العدّا، دمشق ١٩٥٩.

٣٨ ـ محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ط٣، بيروت ١٩٨٨.

٣٩ ـ الحسن بن موسى النوبختي، فرق الشيعة، تحقيق ريتر، ١٩٣١.

٤٠ ـ اجنس غولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف وآخرون، دار الكاتب المصري ١٩٤٦، القاهرة.

٤١ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل وآخرون، مكتبة الانجلو مصرية ١٩٦٣.

٤٢ ـ أبو نصر السراج (الطوسي)، كتاب اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، القاهرة ١٩٦٠.

٤٣ ـ عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، القاهرة ١٩٣٨.

٤٤ ـ عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، القاهرة.

٤٥ ـ عبد الرحمن بدوي، شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) القاهرة، دار المعارف ١٩٦٢.

٤٦ ـ قبسات من نور العاشقين، بلا مؤلف، دار الثقلين، بيروت.

٤٧ ـ عمانوئيل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبة، مركز الاتحاد القومي لبنان.

٤٨ ـ جوفان دوشستر، الحياة في الكون، كيف نشأت وأين توجد، ترجمة عيسى عيسى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨.

٤٩ ـ جوزف هارولدسون، فجر الحياة، ترجمة عبد الحليم منصور وآخرون، دار عيسى البابي الحلبي القاهرة.

٥٠ ـ ستيفن هوكنغ، موجز تاريخ الزمن من الانفجار الأعظم إلى الثقوب السوداء، ترجمة أدهم السمان دار طلاس دمشق ١٩٩١.

٥١ ـ هنري برغسون، الطاقة الروحية، ترجمة تيسر شيخ الأرض، دمشق ١٩٦٠.

٥٢ ـ محمد بحر العلوم، بين يدي الرسول الأعظم دار الزهراء للطباعة، بيروت ١٩٨٠.

٥٣ ـ السيد علي تقي الحيدري، وصي الرسول الأعظم، مؤسسة أهل البيت بيروت١٩٨٢.

٥٤ ـ أحمد عباس صالح، اليمين واليسار في الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٢.

٥٥ ـ محمد جواد آل الفقيه، أبو ذر الغفاري دار التعارف بيروت ١٩٩٢.

سلمان الفارسي دار التعارف بيروت.

المقداد بن الأسود دار التعارف بيروت.

عمار بن ياسر دار التعارف بيروت.

٥٦ ـ أحمد الزيدي، القائد العلم مالك الأشتر النخعي، دار الهادي، بيروت ١٩٩٨.

٥٧ ـ سليم بن قيس الهلالي، تحقيق علاء الدين الموسوي، مؤسسة البعثة، بيروت، بلا تاريخ.

٥٨ ـ السيد حيدر العرفي، أبو طالب بطل قريش، دار النوادر، دمشق ١٩٩٣.

٥٩ ـ سليمان العيسى، فتى غفار مسرحية شعرية/ حلب ١٩٥٣.

٦٠ ـ عبد الحسين شرف الدين الموسوي، المراجعات، تحقيق حسين راضي ط٢ بيروت.

٦١ ـ محمد علي التسخيري، من حياة أهل البيت عليهم السلام، المجمع العالمي لأهل البيت، طهران.

٦٢ ـ بطروشوفسكي، الإسلام في إيران، ترجمة السباعي محمد السباعي، دار الثقافة القاهرة ١٩٨٢.

٦٣ ـ يوليوس فلهوزن، الخوارج والشيعة. ترجمة عبد الرحمن بدوي مكتبة النهضة القاهرة ١٩٥٨.

٦٤ ـ دومينيك سورديل، الاسلام، ترجمة خليل الحر، المنشورات العربية، رقم ٨، باريس.

٦٥ ـ مراد هوفمان، الاسلام كبديل، مجلة النور، الكويت ١٩٩١، ترجمة غريب محمد غريب.

٦٦ ـ السيد محمد الشيرازي، من فقه الزهراء، دار الصادق، بيروت ١٩٩٨.

٦٧ ـ محي الدين النووي، رياض الصالحين، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣.

٦٨ ـ فتحية مصطفى عطوي، مع المرأة في نهج البلاغة، الدار الإسلامية، بيروت ١٩٩٢.

٦٩ ـ محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٧٩.

٧٠ ـ السيد حسين مكي، عقيدة الشيعة في الإمام الصادق وسائر الأئمة، دار الأندلس، دمشق ١٩٦٣.

# الفهرس

الإهداء ..... ٣

مقدمة ..... ٥

## الفصل الأول

## أفكار حول الإمام ـ محطات في حياته

الإمام والسعي إلى الخلافة ..... ١٩

السيدة الزهراء وفدك ..... ٢١

تحليل نصّين ..... ٢٦

أولاً: الشقشقية ..... ٢٦

جدلية الإمامة والسلطة والدنيا والآخرة معاً ..... ٣١

النص الثاني: الخطبة ٢٧ الإمام بين البشرية والمعصومية (الغدير) ..... ٣٣

الإمام والمشاركة في السلطة ..... ٤٨
جدلية الإمام في السلطة مجدداً ..... ٥٩
الإمام في السلطة وأزمة المعارضة ..... ٦٨
أمير المؤمنين علي عليه السلام ومعاوية ..... ٧٩
الإمام علي (أمير المؤمنين) والخوارج ..... ٨٥

## الفصل الثاني

## الإمام علي عليه السلام والعرفان

تمهيد ..... ٩٥
نظرية الخلق ..... ١٠٠
خلق الإنسان ..... ١٠٨
التوحيد ..... ١١٠
نص التحليل والمقارنة ..... ١١٣
جدلية رؤية الله ..... ١٢١
الكلام ..... ١٢٢
في مسألة القضاء والقدر والزمن ..... ١٢٥
الحكمة ..... ١٣٢
جدلية الزهد لدى الإمام ..... ١٣٥

أطياف مناهج تفسيرات الغاية ..... ١٣٨
عودة إلى الزهد ..... ١٤٠
الزهد؛ تياراً إسلامياً ..... ١٤٤
الزهد والسعادة ..... ١٤٨
بحث مقارن حول نظرية السعادة في الزهد ..... ١٥١
بمثابة الخاتمة ..... ١٥٧

## الفصل الثالث

## رجال حول الإمام (الشيعة الخمسة)

مدخل ..... ١٦٣
أبو ذر الغفاري ..... ١٧٠
أبو ذر والاشتراكية ..... ١٧٩
أبو ذر في المنفى ..... ١٨٢
مالك الأشتر النخعي ..... ١٨٣
عمار بن ياسر(رض) ..... ١٨٧
عمار في القرآن والسنّة ..... ١٨٩
علي وعمار ..... ١٩٢
استشهاد عمار(رض) ..... ١٩٨

المقداد بن الأسود(رض) ..... ١٩٩
سلمان الفارسي(رض) ..... ٢٠٨
علي وسلمان ..... ٢١١
خاتمة حول شرح النهج لابن أبي الحديد ..... ٢١٧
مراجع الكتاب ..... ٢٢٧
الفهرس ..... ٢٣٥
صدر للمؤلف ..... ٢٣٩

# صدر للمؤلف

## مجموعات قصصية وروائية

١ ـ السؤال.

٢ ـ القرار.

٣ ـ دائرة الصنوبر.

٤ ـ أوراق عن بيروت والناس والحصار.

٥ ـ أغنية القلعة.

٦ ـ ثرثرة على وقع نهاية البحر.

٧ ـ اللحظات المسروقة.

## كتـــب

٨ ـ نمو القيم والاتجاهات عند طفل ما قبل المدرسة.

٩ ـ المؤسسات الدينية الاسلامية والكيان الصهيوني.

١٠ ـ الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بين الحقيقة والنفي.

١١ ـ الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام ومدرسة أهل البيت في مرحلة الاكتمال.

١٢ ـ المنهج التاريخي لدى السيد مرتضى العسكري.

١٣ ـ المقاربة القيادية للتربية في الطفولة المبكرة (ترجمة).

١٤ ـ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إنسان للمستقبل.

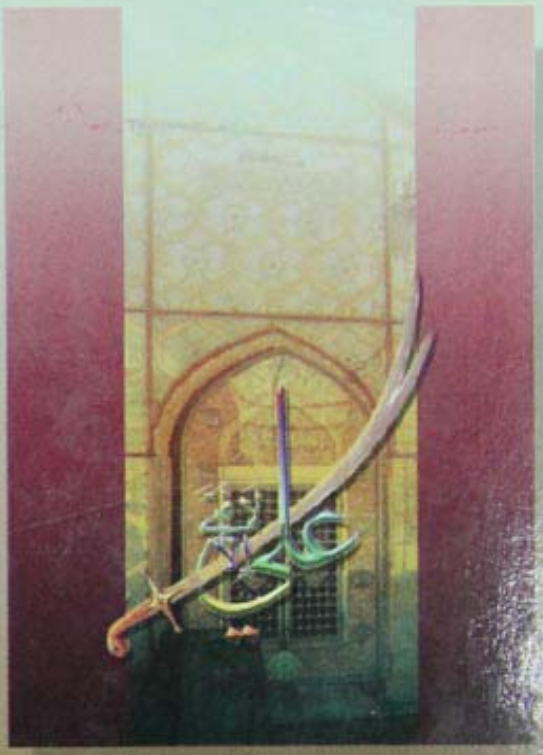

الإمام

# علي بن أبي طالب عليه السلام

## إنسان للمستقبل

« القلب والسيف »


دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٠١/٥٤١١٩٩

ص.ب: ٢٨٦/٢٥ غبيري - بيروت - لبنان

E-Mail: daralhadi@daralhadi.com

URL: http://www.daralhadi.com



Designed by R. Sedik